الألف كتاب

الجغرافيا توجه التاريخ

باشراف ادارة الثقافة العامة
بوزارة التربية والتعليم
الاقليم الجنوبى

الألف كتاب

الجغرافيا توجه التاريخ

تأليف
جوردون ايست
استاذ الجغرافيا التاريخية بجامعة لندن

ترجمة
الدكتور جمال الدين الدناصوري
مدرس الجغرافيا بجامعة القاهرة

مراجعة
الدكتورة دولت أحمد صادق
الأستاذة المساعدة بجامعة عين شمس

دار الهلال

هذا الكتاب ترجمة :

The

Geography Behind

History

by

GORDON EAST

تقديم

بقلم الدكتورة دولت صادق

قام مؤلف هذا الكتاب الاستاذ جوردن ايست ، أستاذ الجغرافيا التاريخية بجامعة لندن بدراسات متعددة فى الجغرافيا التاريخية . ومن أهم كتبه « الجغرافيا التاريخية لاوربا » وكتاب « الجغرافيا .. توجه التاريخ » وفى كتابه « الجغرافيا .. مغزاها ومرماها » بين بوضوح أيضا العلاقة بين التاريخ والجغرافيا

ويعتبر كتاب « الجغرافيا .. توجه التاريخ » أشمل مؤلف تناول عناصر الجغرافيا التاريخية .. حقيقة أن هناك جملة من البحوث والمقالات تناولت بعض موضوعات الجغرافيا التاريخية ، كموضوع المدن ونشأتها ، أو موضوع الحدود .. ولكن هذا الكتاب يمتاز بجمعه لكثير من هذه البحوث المتفرقة ، ومحاولة التوفيق بينها ، واظهار أهمية ارتباط الدراسات التاريخية بالدراسات الجغرافية ، وان كلا منهما يستطيع التماس الضوء من الآخر .. بل ويتحتم عليها أن تفعل ذلك فى مشاكل معينة ، فالجغرافى الذى يدرس الحاضر يجد نفسه دائما أمام مشاكل لا يستطيع أن يفسرها ويعللها ، والتاريخ وحده قد يملك حلها

***

كذلك التاريخ ، انه ليس استقصاء لامور وأحداث عفى عليها الزمن .. بل انها تتعلق بمشاكل حاضره فى يد الماضى مفاتيحها . وقد ذكر ايست فى كتابه « الجغرافيا .. توجه التاريخ » ان دارس التاريخ يجب أن يغادر مكتبه وفى يده خريطة ، ليفهم العالم المحيط به ، الذى قد يعثر فى أرجائه أحيانا على ما يلقى على الماضى ضوءا أقوى من الوثائق والسجلات الرسمية التى يستقى منها مادته . فهناك اذن علاقات متبادلة بين الجغرافيا والتاريخ حاول المؤلف ابرازها أثناء عرضه لفصول الكتاب المختلفة

مقدمة

بقلم الدكتور جمال الدين الدناصورى

صدر هذا الكتيب فى مجموعة من الدراسات المبسطة أطلق عليها « كتب المناقشة » ، ولهذا فهى تستمد أهميتها ـ ولاأقول متعتها وجدتها فحسب ـ من أن المؤلف يبسط الحديث فى غير تكلف ولاتعقيد ، فلايتعصب لرأى ولا يتحزب لمذهب . وقد اضطلع بتأليف هذا الكتاب الذى أسماه مؤلفه « الجغرافيا من وراء التاريخ » « غوردون ايست » أستاذ الجغرافيا التاريخية بجامعة لندن ، ارتاد تلك الشقة المجهولة بين ميدان بحث المؤرخ الذى يقصر دراسته على أعمال البشر طوال أحقاب التاريخ المتعاقبة ، وبين مجال دراسة الجغرافى الذى لا يستطيع أن يرفع باصرتيه عن الارض محلقا فى الفضاء أو متعمقا فى باطن الارض حتى يرتد الى سطح هذه الارض ليشاهد ويدرس ويحلل ويوزع ما تناثر فى أرجائها من ظاهرات الطبيعة ، وما حققه الانسان من نجاح فى استغلال أو تغيير هذه المظاهر على وجه من الوجوه . أن الجغرافية التاريخية تدرس «جغرافية» العصور الماضية سواء مايتصل بها بما طرأ على الظروف الطبيعية : انسطح والمناخ ومظاهر التضاريس ونظام صرف المياه والحياتين النباتيـة والحيوانية ... من تطورات ، أو مايتصل بأعمال الانسان ونشـاطه كأماكن سكناه ومحلات اقامته وحرفه وطرائق معيشته ، وما مده من طرق وما أصابه من ثروة وقوة وزيادة فى العدد ، أو ماناله من ضعف وتخاذل أمام ما يواجهه من مشكلات ويتحداه من ظروف تستثير كامن قوته ومقدراته ، وهذه هى موضوعات هذا الكتاب

***

وقد تتابعت فصول الكتاب التسع فى ترابط وتكامل : اذ قصر حديثه فى الفصل الاول على تبيان الاواصر والعلاقات الوثيقة المتداخلة بين التـاريخ بأحداثه وبين الارض بمظاهرها ، التى تعد مسرح هـذه الاحداث ومجالها ، فالجغرافيا ـ كما يذكر ـ وثيقة تاريخية لابد للمؤرخ أن يعرف ما تنطوى عليه ليتسنى له ادراك مغزى مايطالعه من وثائقه التى خطهـا الانسان بيديه ، فالجغرافيا تحدد الاماكن التى وقعت فيها الاحداث ، وما اكتنفها من ظروف وملابسات قد تؤثر ـ لا فى اختيار موضع معين لحدوثها كالمواقع الحربية مثلا أو اقامة عاصمة أو مد طريق ـ ولكن أيضا فى سير الاحداث ، ثم اردف محذرا

من أن يتبادر الى الذهن ان التاريخ وحده متحرك يضطرب بالحياة ، فالظروف الطبيعية نفسها متغيرة كالموقع الجغرافى واهميته فى قيام العلاقات بين الاماكن ، وهبوط الارض وطغيان البحر فى مناطق السواحل أو ظهور بركان أو تراكم رواسب بعض الانهار حتى تطمر خلجانها فتختنق الملاحة فيها وتقل أهمية موانيها . . . كل ذلك يضيف الى تعقيد طبيعة العلاقات بين أعمال الناس وبيئاتهم وموطنهم من سطح الارض ، لان كليهما متطور متغير . . . فاحياء الماضى أو اعادة تصوير ماكان يسوده من ظروف ، ويعمره من سكان بألوان نشاطهم المتعددة من الضرورة بمكان لتفسير أحداث التاريخ ، ولكن اذا كانت يد الجغرافيا تؤثر فى أعمال الانسان ومايجرى به تاريخه من أحداث ، فانه لاتوجهه ولا تملى عليه أن ينهج منهجا معينا ، وهكذا انتهى فى الفصل الاول من ابراز أهمية دراسة المكان أو الظروف الجغرافية بالنسبة للمؤرخ الذى يجب الا يغفل أن الزمان والمكان عنصران لا ينفصلان

***

ثم عالج المؤلف فى الفصل الثانى من الكتاب الموقع الجغرافى وبين أن الموقع لا يعنى موضع المكان الفلكى على سطح الارض ، بل ولا بالنسبة لمظاهر الطبيعة من يابسة ومياه فحسب ، بل ينطوى على طبيعة الموقع بالنسبة لمراكز الحضارة ومواطن المدنية . .بل أن الموقع ليس فكرة مادية فحسب ، فأهميته لا تتغير بتغير توزيع اليابس والماء ولا بظهور حضارة ومراكز للقوة واضمحلال أخرى فقط ، ولكن الموقع قد يكون مايدركه الناس وما يتصورونه عن طبيعة مناطق قد تبدو غريبة عليهم ، ولذلك فللموقع امكانيات يتيحها قد يفيد الناس منها أو لا يفيدون فى عصر من العصور

***

أما فى الفصل الثالث ، فقد تناول تطور المناخ . . وهو موضوع شائك لم يتفق العلماء فيه على رأى ، فخلص من مناقشته لهذا الموضوع بأن المناخ عنصر متغير من عناصر البيئة ، وأنه بحكم أهميته البالغة فى التأثير فى حياة البشر لابد لمن يتصدى لدراسة التاريخ القديم ألا يغفل أن الظروف المناخية قد تحمل فى طياتها الضوء الذى قد يفسر ما غمض من أعمال الانسان ، وقد انتهى الى رأى معتدل وهو أن المناخ قد تغير فى العصر التاريخى ، وقد يكون قد اتخذ التغير فى عنصر المطر صورة جفاف تدريجى ، أو تغير غير منتظم باختلاف المناطق والعصور التى نتناولها بالدراسة ، ويبدو أن المرجح أنه يجب ألا ننكر هذا التغير كما يجدر بنا الا نبالغ فى مقداره أو تأثيره فى كل العصور وفى جميع البيئات ، ويرجح أن محاولة استنتاج أن نظاما عاما للمناخ بكل دقائقه كان يسود فى عصر معين غير مقطوع بصحته حتى الآن

أما فى الفصل الرابع فقد أبان عن أهمية الطرق وما تلعبه الظروف الطبيعية فى تحديد هذه الطرق، او الايحاء للانسان بانشائها واستخدامها ، وقد استرعى الانتباه الى الابقاء على شبكات الطرق القديمة فى العالم الرومانى خلال العصور ، فلا زال الكثير مما أنشىء منها فى أثناء الحكم الرومانى لبريطانيا قائما يستخدم للآن ، مما يشير الى قيمة تأثير الظاهرات الطبيعية فى اتخاذ هذه الطرق وسائل لانتقال السلع والناس والافكار والحضارات

***

أما فى الفصل الخامس فقد عرض للمدن وظروف قيامها من طبيعة الموضع الذى نشأت فيه ، والعلاقات التى تربطها وموقعها فى الاقليم الذى قامت فيه ، وفى البلاد التى نشأت فيها ، ثم فى العالم المعمور الذى تتصل به فى حياتها ونشاطها ، وقد أبان فى وضوح أن هذه النواحى الجغرافية التى تطورت خلال التاريخ ــ كما يحدث حين يطمر خليج قامت عليه ميناء أو قلت أهمية مجرى مائى كعائق طبيعى ــ تفسر الى حد كبير أسباب قيام المدن ومنشئها وتطورها وما اضطلعت به من وظائف ، وما قامت به من خدمات لاقليمها وللعالم المحيط بها ، وقد حاول المؤلف أن يسوق أمثلة لمدن عديدة اضمحلت لاسباب تتصل بتغير الظروف الطبيعية للبقاع التى نشأت فيها ، ولكن توكيد أهمية هذا التغير اغفال لاهمية مايطرأ على الظروف البشرية من تغيرات ربما كانت أكثر شيوعا وابعد أثرا

***

أما الفصل السادس فقد عقده المؤلف على الحدود والتخوم بين الدول والوحدات السياسية ، وقد عنى بأن يجلو تأثير ظروف الجغرافية الطبيعية فى تخطيط الحدود السياسية ، فأسهب فى دراسة طبيعة منطقة التخوم بين ويلز وانجلترا ، وتتبع تأثير السطح ونظام تصريف المياه وما اتصل بذلك من تباين النظم الاقتصادية والثقافية والاتجاهات أو النزعات التاريخية ، وربما كان فى تشبث الانسان بتقاليده وثقافته واتجاهاته التى نمت وتطورت فى عهد كان يتأثر بمقدار ما تتيحه الظروف الطبيعية له من أسباب الاتصال أو تعيقه ــ ما يفسر « الاتفاق » بين الحدود السياسية فى بعض الدول وبين ظاهرات الطبيعة التى لا تقف الآن حائلا فى أكثر الاحيان دون ربط الجهات الواقعة على جانبيها مهما كانت عاتية

***

أما فى الفصل السابع فقد حاول المؤلف أن يبين أن طرق معيشة الانسان وحركته ليست وليدة الظروف الطبيعية التى تمليها ، لان أفكاره وعاداته وحاجاته ورغباته ونزعاته وأهواءه ، جميعا توجهه . . ولكنه لم ينكر الامكانيات

التى تتيحها الظروف الطبيعية للانسان ، فيتسع مجال اختياره لحرفته أو يضيق تبعا لسخاء الطبيعة أو شحها ، وان كان فى كل حالة يحتاج الى جهود وتجارب لكى يفيد منها . وخلص من ذلك الى أن توزيع أنواع الغلات لايمكن أن تفسره الظروف الطبيعية وحدها ، فعادات ، وتقدم ، وكثافة ، وعقائد السكان كل له تأثيره

***

وفى الفصل الثامن ، حاول المؤلف أن يزيح الستار عن أسباب قيام الحضارات العريقة بدراسة ما اكتنف قيامها من ظروف، وطبيعة البيئات التى نشأت فيها ، لعله يظفر بجواب شاف عن البواعث لاقامة الحضارة والظروف التى تقودها للفناء والاضمحلال . والواقع انه ظن أنه وجد ضالته فى تشابه البيئات التى قامت فيها الحضارات القديمة، حضارة مصر والعراق والسند .. فكلها نشأت فى سهول فيضية فى بيئات جافة وان كانت أقل جفافا منها اليوم، كما أتاحت لسكانها التربة الغنية والمناخ المنعش وطريق النهر «المتحرك»، وطول فصل النمو ، وكثرة النباتات والحيوانات التى يمكن استئناسها ، كما تحدت سكانها بما واجهتهم من صعوبات الفيضان والجفاف والمستنقعات ، فضلا عما أحاط بها كلها من بيئات متباينة من جبال أو هضاب يسكنها أناس قد تكون أفكارهم قد أضافت الى أفكار وثقافات سكان هذه السهول الفيضية. ولكن أتراه وجد أخيرا حلا ؟ الواقع أنه أغفل أهمية تقدير الموقع الجغرافى لكل بيئة من هذه البيئات فى تطور الحضارة ونشأتها ، كما أغفل عجز الانسان القديم عن تطهير الاراضى التى كانت تعد أكثر غنى من الناحية النباتية الى الجنوب فى اقليم السفانا ، ويضاف الى ذلك أن أكثر سكان هذه الاقاليم المعتدلة كانوا يؤثرون المناخ الدفىء الذى لم يتوافر الى شمال هذه البيئات

***

أما الفصل الاخير فقد كان نوعا من « التقويم » للعناصر الجغرافية التى سبق دراستها ليبين تأثيرها فى تطور العلاقات بين أوربا والصين فى نطاق اقليمى ، فدرس ظروف قيام الحضارة الصينية وتحول التجارة بينها من اليابس الى البحر حينا وما أفاد كل من الآخر ، ومقدار ما تتيحه ظروف المناطق الشاسعة التى تتصل بينهما فى توثيق هذه العلاقة بينهما أو اضعافها . وهكذا اختتم دراسته بعد أن ألم بعناصر البيئة الجغرافية الرئيسية ، وكشف عن دورها فى تطور مظاهر نشاط الانسان ، كما أكد أهمية دراسة تطور هذه العناصر فى تفسير أحداث التاريخ

الفصل الاول

الجغرافيا كوثيقة تاريخية

« وهذه أمور يغفل عنها السادةالذين يعرفون القوانين جيدا »
Flecker, Invitation دعوة – تأليف فلكر

لازالت الطبيعة الجموح حتى اليوم – ولو عن طريق ماينتابها من أحداث عنيفة – تذكرنا بقسوة الظروف المضطربة التى تكتنف سكنى الجماعات البشرية واستغلالها لسطح الارض . وان مايتردد من قول – ينطوى على الكبرياء – من أن الانسان قد أصبح سيد عالمه انما هى دعوى جوفاء ، حينما نذكر الفيضانات والمجاعات المتعاقبة التى تصيب زراع الصين الشمالية ، وفيضانات المسيسبى المدمرة سنة ١٩٣٧ ، وما وقع فى وقت حديث نسبيا من تحطيم الجليد لكوبرى « فيوفولز » View Falls الذى كان يقوم على نهر نياجارا ، والتوكيد بأن (الصحراء تتسع) فى افريقيا الوسطى ، وانتشار ظاهرة تعرية التربة فى بقاع من افريقيا والغرب الاوسط فى الولايات المتحدة ، وأخيرا سيف الجفاف المسلط الذى يهدد دائما مناطق القمح الكبرى فى العالم ، سواء فى الولايات المتحدة وكندا أو روسيا الجنوبية ، فهذه الاحداث والنذر وأمثالها تؤكد لنا – حتى بالنسبة للشعوب التى بلغت شأوا بعيدا من الحضارة المادية – ان البيئة الطبيعية قد ظلت حقا كصندوق باندورا على استعداد دائما لينفجر فى عنف ، فيبعثر ماحواه من أشياء مزعجة . .

فلو كان من الواضح اننا لانستطيع الآن – مع كل مافى حوزتنا من ذخائر العلم والفن والقوة المحركة – ان نتجنب أو نتحكم فيما يكتنف بيئتنا من الاخطار والصعوبات ، فكم كانت هذه الاخطار وتلك الصعوبات أكثر قسوة وتنفيرا فى المراحل الاولى من تاريخنا البشرى ، حين كان الناس لايملكون من الوسائل مايمكنهم من محاولة تكييف بيئتهم الطبيعية لحاجاتهم ! وقد بلغ هذا الامر مبلغا حدا الى ترديد القول بأن التاريخ بأكمله كان يرادف فى فجره الجغرافيا ، لاننا نعرف أن الناس فى الطور البدائى من أطوار الثقافة –لفترة امتدت آلافا لا عداد لها من السنوات – كانوا يقاسون من طبيعة عارمة ذات سطوة فى كل البقاع يعجزون عن تغييرها أو استغلالها . ولكن عددا كبيرا من الشعوب فى

جهات مختلفة من العالم ، قد أفلحت خلال التاريخ ــ بعد أن أدركت أسرار الطبيعة ــ أن تكيف حياتها رويدا رويدا لتلائمها ، وان كانت قد عجزت عن كبح جماح هذه الطبيعة تماما

***

ومما يدعو للتضليل أن نتوقع ان الجغرافيا حين تفسر التاريخ مقصورة على الاحداث العنيفة التى تلعب فيها الجغرافيا دائما دورا رئيسيا فحسب ، ولكن لم تكن البيئة الطبيعية بمظاهرها العنيفة ــ زلازلها وثوراناتها البركانية وزوابعها وفيضاناتها ــ أوضح أثرا فى التاريخ البشرى من مظاهرها اليومية المألوفة . فلو أخذنا بأن الجغرافيا ــ مهما كان مجالها فسيحا ــ تشمل فى المقام الاول دراسة البيئة الطبيعية تصبح مشكلتنا الجوهرية أن نعرف طرق تأثير البيئة فى سير التاريخ والمجال الذى يبدو فيه ذلك التأثير . أما بالنسبة للمتشيعين لتأثير البيئة او أنصار الحتم البيئى الذين ذهبوا مذهب بعض فلاسفة الاغريق القدماء ، فحاولوا تفسير مظاهر التاريخ المعقدة المتعددة فى ضوء عامل واحد هو العامل الجغرافى ــ فان هذه المشكلة تصبح هينة الحل ، أما هذا الجبر الجغرافى ــ كما يسمى ذلك المذهب الذى ظن أنصاره أن فى الاختلافات فى الظروف الجغرافية بين بقعة وأخرى مايكفل تفسير كل ماغمض من أحداث التاريخ ــ فقد ظل حينا لايجد تأييدا من الثقاة ، ولم يجد « أ . ج توينبى » A. J. Toynbee الذى أعاد عرض هذه القضية حديثا حين تناول بالبحث التعليل التاريخى ليبين قصورها ، (١) ولكننا اذا لم نستطع قبول الرأى القائل بأن الجغرافيا تمكن من تفسير التاريخ تفسيرا كاملا ، لانه رأى غير جدير بالتصديق ، فما هو اذا المكان الحق الذى يجدر بالجغرافيا أن تحتله أو تشغله فى دراسة التاريخ ؟

***

ان دعوى الجغرافيا التى تتردد فى مجالس التاريخ تقوم على أساس راسخ، يتلخص فى أنها هى وحدها التى تدرس دراسة شاملة علمية بواسطة طرائقها وأساليبها الخاصة مجال النشاط البشرى ، فضلا عن أن الظروف الخاصة التى تميز هذا المجال لا تساعد على تعيين مكان الاحداث فحسب ، بل تؤثر كذلك فى بعض نواحى هذه الاحداث على الاقل . وان ما ألفناه من تشبيه الجغرافيا والتاريخ بالمسرح والرواية التمثيلية مضلل من عدة وجوه ، لانه بينما يمكن أن تمثل الرواية على أى مسرح بغض النظر عن خصائص هذا المسرح ، فان مجرى التاريخ لايمكن أن يمضى البتة فى طريقه دون أن يتأثر بالاختلافات والتغييرات التى تحدث للمسرح نفسه . فضلا عن أن التاريخ على عكس الرواية لاتجرى له « بروفة » قبل تمثيله ، كما أن مظاهره تبلغ من الاختلاف والتغير حدا يؤكد أنه ينقصه وحدة المكان والزمان والموضوع

---

(١) ا. ح. توينبى (دراسة التاريخ) الجزء الاول (١٩٣٤) من صفحة ٢٤٩ الى صفحة ٢٧١

ومجمل القول أن الجغرافى حين يدرس المسرح الطبيعى الذى لا مندوحة عن وجوده لتجرى فيه أحداث التاريخ ، يعرض لأحد العنـــاصر التى يتألف منها التاريخ ، ذلك الشىء المركب . فهو يفحص أحد الخيوط التى ينسج منها التاريخ ، ولكنه لايؤكد فى سذاجة أنه يســتطيع أن يتتبع أو أن يفسر كل الاشكال المتداخلة المعقدة فى هــذا النسيج ، ولكن مع ذلك يذهب الى توكيد أن البيئة الطبيعية مثلها مثل الهدف فى لعبة الكريكت ــ لها بفضل خصائصها التى تختلف من مكان لاخر ومن وقت لاخر تأثير يذكر فى سير اللعب

وقبل أن نعرض عرضا أكثر اسهابا لما يمكن أن تسديه الجغرافيا للتاريخ من أيادى ، نقف قليلا للتعرف على طبيعة التاريخ نفسه ، فمهمة المؤرخ التى تنطوى على الطموح تتضمن عرض وايضاح وتفسير أفكار البشر وأعمالهم ، وهى فى تغيير دائم من مكان لاخر ومن وقت لاخر تعتمــد بوجه خاص على السجلات المدونة رغم أنها انتقلت الى أيدينا فى صورة مبعثرة غير كاملة . ولكن لما كان المؤرخ يتوسع دائما فى ميدان بحثه الخاص بدراسة أعمال الملوك والابطال ليتناول مصاير الممالك والامبراطوريات والحياة اليومية (لعــامة الناس الذين ليسوا موضع ذكر) فقد اضطر أن يفيد من الاعمال التى تتصل ببحوثه ، والتى يقوم بها الدارسون فى العلوم الاجتماعية الاخرى التى يتصل بعضها بميدانه ، من أمثال عالم الآثار والانثروبولوجيا والخبراء فى الدراسات اللغوية وأسماء الاماكن

***

ولما كانت حقائق التاريخ ــ سواء أكانت مدونة أو غير مدونة التى تتناول بعض عصــور أو أماكن معينة ــ نادرة ومتضاربة ، فضلا على أن التاريخ المكتوب ــ مهما كانت سجلاته كافية ــ لامندوحة له من أن يعكس الى حد ما وجهة نظر المؤرخ وتفسيره الشخصى ، رغم ماقد يتوخاه من الحيطة والعناية والامانة ، الى جانب أن على كل جيل من الناس أن يدون تاريخه وهو غالبا يقوم بذلك ، فلهذه الاسباب ومايشابهها يستطيع الناقد أن يقول كما ذكر نابليون وكمــا ذكر جيته على لسان فاوست بأن (التاريخ اختلاق المؤرخين)

ولــكن بعض المؤرخــين وفى مقدمتهم « ا . ج . توينبى » Toynbee يرى أن أحداث التاريخ تتفق وأنماط معينة او سنن خاص تخضع بطبيعتها للمنطق والعقل مســتقلة عن تأثير عقلية المؤرخ . ومن جانب آخــر فان هـ . ا . ل . فيشر H. A. L. Fisher ــ وهو ليس أقل جدارة بأن يدلى بحكمه فى هذا الموضوع الفلسفى ــ يعتقد أن التاريخ يفتقد « الحبكة والتساوق أو النظام ، اذ أنه ليس سوى سلسلة من الاحداث الطارئة تحــدث نتيجة لتفاعل عوامل متناقضة لايمكن التنبؤ بها »

وعلى كل حال ، فأيا كانت النظرية التى نعتنقها من نظريات التاريخ ، فلا اختلاف فى أن جانبا كبيرا من التاريخ الماضى قد أصبح الآن معروفا وبخاصة فى الستة آلاف سنة الاخيرة ، أو نحو ذلك ، حين كانت الحياة المتحضرة قائمة فى بعض جهات العالم ، فلا حاجة بنا أن نذهب مذهب الدكتور «أنج» (١) بنزعته الزارية المتشائمة حين يقول : « ان الاشياء التى نعرفها عن الماضى يمكن أن تقسم الى تلك التى ربما لم تحدث البتة ، وتلك التى لايعنينا حدوثها كثيرا » اذ أجدر بنا أن نعجب بالقدر الكبير من المعرفة الممحصة التى كانت ولا تزال تزداد بفضل البحوث التى تتناول موضوعات محدودة معينة بعمق والتى يمارسها المؤرخون الان ، متبعين فى ذلك أسلوب البحث العلمى والتخصص الدقيق . وسواء اتخذ المؤرخ مشاكل منطقة محدودة أثناء فترة قصيرة موضوعا لدراسته وتصويره ، أو كانت تعنيه مشاكل الجماعات التى تحتل مساحة أكبر ، أو عاشت زمنا أطول من الدول القومية أو الدول التى تتكون من مدينة City-States أو أية مجتمعات سياسية أخرى وهو ما ينظر اليه « ا . ج . توينبى » على أنها (الميادين التى يمكن فهمها بوضوح فى دراستنا للانسان) ــ فمن المؤكد ان المؤرخ يستطيع فى نقط كثيرة ان يضيف الى ثروة وعمق دراسته اذا أدرك الاسس الجغرافية لمشاكله .. لان تفكير الانسان وعمله يحدثان فى وسط جغرافى معين محدود واضح وليس فى فراغ ، مما يحدد ويوضح طبيعة المجهود البشرى ونطاقه بدرجات متفاوتة

***

ويمكن أن نؤكد أن التاريخ والجغرافيا لايمثلان شيئين مختلفين ومتقابلين كما يذهب الذين يحاولون التمييز بينهما بوجه عام ، على أنهما يمثلان دراسة الانسان والارض ، اذ لم يختف بعد تماما الرأى الذى يذهب الى أن التاريخ يبدأ حين تنتهى الجغرافيا ، مستندا الى أن الاخيرة تعنى بالحقائق الطبيعية وحدها ، وهو رأى مستمد من فكرة عن الجغرافيا لايؤمن بها دارسوها الان . فمما لاشك فيه أنه لايمكن ان نبالغ فى توكيد الهدف الرئيسى من دراسة الجغرافيا وهو دراسة البلاد بكل نواحيها العديدة وعلاقتها المعقدة ، ولكن دراسة البلاد تتضمن بدون شك دراسة الانسان وهو عامل مهم فى تطورها ، كما أنه عامل لايمكن أن نتجاهله بصفتنا أفراد النوع البشرى الذى لا يزال يعيش وحده الى اليوم

ولما كان كل حادث من أحداث التاريخ يقع فى مكان وزمان معينين معا ، فان التاريخ لايمكن ــ الا فى بعض فروعه الدقيقة التخصص ــ أن ينتزع أو ينفصل عن البلاد أو المكان لانه اذا كانت « الجغرافيا بدون تاريخ تبدو

---

(1) Dr. Inge

كهيكل بدون حراك ، فان التاريخ بدون الجغرافيا كضال لا مأوى له يسير على غير هدى »

ولما كان لابد للتاريخ أن يعنى بتحديد موطن الحوادث التى يبحثها فانه يجب الا يقتصر على توجيه الاسئلة المألوفة : لماذا ؟ ولمـــاذا فى ذلك الحين ؟ ولكن يضيف اليها أسئلة أخرى : أين ؟ ولماذا هناك ؟ وتستطيع الجغرافيا أن تساهم قبل كل شيء فى حل المشاكل الاخيرة « لانه حتى الان ـ كان للطبيعة فى كل مسرح من مسارح الحوادث تقريبا نصيب أوفر من نصيب الانسان فى تحديد المكان الذى يقع فيه الحادث ، ولم يستطع الانسان أن يجعل من نفسه الى حد ما محور الاحداث الا فى دور متأخر نسبيا » (١)

***

ورغم أن دراسة بعض المسائل السالفة الذكر التى تختص بهـا ميادين منفصلة من الدراسة قد يكون ضروريا فىالواقع ، مما قد يتفق والاعتبارات الاكاديمية لكنه يقيم حاجزا عبر حلبة واحدة ، ففى الاتصـــال الوثيق بـين التاريخ والجغرافيا الذى يؤخذ به فى جامعات فرنسا والذى لايقابله نظام مماثل لدينا ، مايؤكد الحقيقة التى تتلخص فى أن هذه الدراسات متصـــلة بعضها البعض اتصالا وثيقا ومنطقيا .. فاذا استطاع التـاريخ أن يفيد شيئا من الجغرافيا ، فان الجغرافيا رغم انها تعنى قبل أي شيء آخر بالحاضر ، فان حاجتها للاضواء التى يلقيها التاريخ لاتقل عن ذلك أهمية

وان غير المتخصص الذى يعرف النذر اليسير من التاريخ وقدرا أقل من الجغرافيا ، لايدرك من الجغرافيا الحديثة الا قليلا .. فقد كانت الجغرافيا فى بدايتها احدى ثمار الفكر الاغريقى القديم ، ثم خطت خطوات واسعة فى ألمانيا فى القرن التاسع عشر ، ثم تطورت تطورا سريعا فى هذه البلاد وغيرها فى أثناء العقود القليلة الاخيرة . وقد ظلت مع ذلك (فى نواحى كثيرة تعد علما يافعا لايزال ينمو) فرغم أنه قد تم ارتياد العالم فما يزال ثمة مجال واسع لنبذل جهدا كبيرا حتى نزيد معرفتنا عمقا بأجزاء العالم

وقد يكون من المفيد ومن المناسب ونحن فى صدد هذا البحث أن نشير الى مجال الجغرافيا وأغراضها الحالية ، لانه ـ مالم نكن أوفر حظا ـ فان مالا يزال عالقا بذاكرتنا فى غموض وابهام من الجغرافيا منذ عهد تلقى العلم لن يجدينا كثيرا ، فكما أن عالم الطبيعة يعنى بدراسة الذرة وأقسامها ، وعالم الاجتماع يعنى بالجماعات التى تختلف فى حجمها ودرجة تعقيدها ، فان وحدة الدراسة لدى الجغرافى هى الاقليم . فجهـود الجغرافيين رغم تباينها وتعـدد نواحيـها تلتقى على هدف مشترك هو فى المقام الاول التعرف على الاقاليم ووصفهـا

---

(١) ج. ل. ميرز G. L. Myres فى كتابه Cambridge Ancient History الطبعة الثانية (١٩٢٨) الجزء الاول : صفحات ٢ ، ٣

وتحديدها ، وهى مساحات من البلاد متشابهة بوجه عام ويمكن تمييزها على أساس علمى . ولكن « للجغرافيا الاقليمية » أغراضا أكثر طموحا من ذلك ، فرغم انها تعنى بالنواجى الطبيعية للبلاد قبل أى شىء آخر فانها تحاول دائما أن تتبع وتحدد العلاقات التى تقوم بين الجماعات البشرية فى أعمالها وتنقلاتها ، وبين الظروف الطبيعية ، فكلما زادت أهمية الاقليم بالنسبة للانسان وزادت العلاقات بين المكان والسكان تعقيدا نتيجة لذلك ، كلما زادت أهميته ودلالته فى ميدان الدراسة الجغرافية وازدادت المقدرة على فهمه وادراكه

***

ففكرة الاقليم تمثل « الحصن الرئيسى » للجغرافيا ، فالاقليم سواء كان كبيرا أم صغيرا يتكون من مساحة من البلاد لم تحددتحديدا متكلفا أو مصطنعا كما يحدث على خريطة ذات مقياس رسم كبير ، ولكنها تمتاز بتجانس معين اما فى ظروفها الطبيعية أو البشرية . وتختلف العناصر الجغرافية التى تتضمنها أية مساحة من الارض والتى يمكن تحليلها الى عناصر منفصلة وان كانت فى الواقع يتوقف كل منها على الآخر : من المناخ والموقع والبيئة ومظاهر السطح (تشمل التضاريس ونظام الصرف) وأنواع التربة والنبات الطبيعى الى المجتمعات البشرية نفسها وكل ماتركته على أديم الارض من آثار . ويجب أن نلاحظ أيضا — كمظهر آخر مميز من مظاهر أية بقعة — وجود حيوانات وحشية أو مستأنسة وأسماك وحشرات مثل بعوضة انوفيلس وذباب تسى تسى ، وهى ذات أهمية واضحة كحقائق تمثل البيئة . ومن اليسير أن نتبين كيف تعتمد هذه العناصر المختلفة — فى أية بقعة — كل منها على الآخر الى حد بعيد . فموقع المكان بالنسبة لخطوط العرض ، اى بالنسبة للشمس ، يحدد المناخ بوجه عام برغم أن المناخ يتأثر أيضا بموقع المنطقة بالنسبة لليابس والبحر وبارتفاعها وتوجيهها . كما أن المناخ يمثل غالبا العامل الرئيسى فى تكوين أنواع التربة ، وذلك عن طريق تأثيره فى النبات الطبيعى برغم أنه ربما قد تكونت أنواع التربة بتأثير عوامل التعرية الجوية فى الصخور المحلية ، أو نقلت عن طريق الجليد والمياه والرياح ، كما أن المناخ والتربة تعين الحدود التى تستطيع النباتات أن تنمو داخلها ، وبذلك تؤثر فى توافر الموارد الغذائية للانسان والحيوان . ويمثل التركيب الجيولوجى لمنطقة ما أهم العناصر التى تفسر أشكال سطح الارض وتضاريسها ، كما انه يدل كذلك على الاماكن التى يمكن التنقيب فيها على موارد المياه والفحم والبترول والمعادن والمنسوبات التى تتوافر عندها هذه الموارد

كل هذه العوامل السالفة الذكر وغيرها من العوامل المرتبطة بها ، تكيف وان لم تفرض مظاهر نشاط الانسان الذى يعد هو نفسه عاملا غير قليل الاهمية فى تغيير الظروف الجغرافية ، اذ يستطيع — وقد تمكن فعلا — منذ

أقدم الازمنة أن يعدل نظام الصرف والتربة والنبات الطبيعى ، وهو يستطيع — الى حد ما — أن يغير من تضاريس الارض كما نشاهد فيما تراكم من أكوام كبيرة فى مناطقنا التعدينية . ورغم براعة الانسان فانه يجب أن يخضع لسلطان المناخ صاغرا ، بيد أنه يستطيع بالملاحظة الدقيقة أن يحاول التنبؤ بما يخبئه الطقس من مفاجآت ويعدل من تأثيره . فحين يلجأ لاستخدام الرى — حيث يكون ذلك ممكنا ومريحا — ولاقامة حواجز لصد الرياح الضارة ولاستخدام البيوت الزجاجية لتربية النباتات ، يستطيع أن يفيد من المناخ الذى يعجز عن التحكم فيه وكبح جماحه . وقد أمكنه كذلك — ولو أن ذلك جاء فى دور حديث — أن يتجنب الى حد ما ، مايفرضه المناخ من حدود ، باستخدام بديل للمحاصيل ، فزرع بنجر السكر حيث لاينمو قصب السكر ، وصنع المطاط الصناعى فى العروض المعتدلة . وان المحاولات التى بذلت فى روسيا القطبية حديثا لزراعة الخضروات أسفل التربة السفلى المتجمدة ، باستخدام الضوء والحرارة الكهربائية التى استمدت من قوة الرياح ، انما يدل على المدى الذى يمكن أن يصل اليه الانسان بفضل مهارته وابتكاره ، وذلك برغم أن تحدى المناخ يدل على أنه هواية كبيرة النفقات ، فربما تستطيع أن تزرع البطاطس فى القطب الشمالى كما يقال ، ولكن لابد من أن توفر أستاذا جامعيا يسهر على كل نبات من نباتات البطاطس ليراقب نموه (١)

***

ولكن لما كان النسيج الجغرافى لاية منطقة يتكون من خيوط كثيرة متداخلة ، فكيف يمكن أن نميز الاقاليم التى تتكون منها وحدات متجانسة فى بعض النواحى الهامة ؟ الواقع أنه توجد عدة طرق لذلك ، حتى أن الناقد المتحامل يمكن أن يذهب مؤكدا الى أن الاقاليم شىء لا وجود له الا فى أذهان الجغرافيين . ولكننا اذا قدحنا زناد الفكر فسوف نهتدى الى أن أنواعا معينة من الاقاليم ، وهى التى تسمى عادة بالاقاليم الطبيعية (٢) ، لها كيان موضوعى يبدو واضحا للعيان . ويمكن أن نميز هذه الاقسام الطبيعية للارض — برغم أن حدودها قد تكون أشبه بالمناطق منها بالخطوط — معتمدين فى ذلك على المناخ والبيئة ومظاهر السطح أو التربة أو بعض هذه العناصر مجتمعة . فالمناخ يرشدنا الى التقسيم المبدئى البسيط لسطح الارض الى أقاليم ، أما اذا تشابهت الظروف المناخية بوجه عام فنجد أن للنباتات سواء الطبيعى منها أو المنزرع خصائص مميزة وحدودا لها دلالتها ، كما تمدنا التربة غالبا بدليل واضح بما يحدث من التغييرات الكبرى فى الظروف الجغرافية فى الكتل

(١) التقدم الاقتصادى لروسيا القطبية — تأليف : H. P. Smolka المجلة الجغرافية سنة ١٩٣٧ من صفحة ٣٢٧ — ٣٣٨

(٢) 'Natural or physical regions'

القارية ، ولهذا نجد فى الهضبة الروسية التى تتكون من كتلة صلبة نطاقات من التربة العميقة تمتد من الشرق الى الغرب بوجه عام مختلفة فى تركيبها وصفاتها

***

وأخيرا نعثر فى بلد تسوده ظروف طبيعية متباينة كبلدنا على عدد كبير من الاقاليم الصغيرة التى غالبا ما تحتفظ بأسماء تقليدية والتى يمكن تمييزها على أساس مظاهر السطح التى تميزها بصفة خاصة . ويمكن أن نذكر على سبيل المثال ودياننا الكثيرة مثل وديان بكرنج Pickering والزيرى Aylesbury وهولمزديل Holmesdale ، وبيوزى Pewsey أو هضابنا المنخفضة الكثيرة بحافاتها ذات الانحدار الشديد الوعورة ، ومنحدراتها التى تميل ميلا رفيقا مع الطبقات مثل تشلترنز Chilterns ويوركشيروولدز Yorkshire Wolds ونورث وسوث دونز North & South Douns وبلاد المورلاند المرتفعة مثل دارتمور Dartmoor ومرتفعات اسكتلند وستينمور فى البنين Stainmoor in the Pennines ، ومستنقعاتنا فى سومرسيت Somerset serals وأراضى الفنلاند Fenland الواسعة ، وأخيرا منطقة تشبه الاستبس من النادر العثور عليها ، تغطيها الاشجار الآن ، وتدعى بركلاند Breckland فى نورفولك الغربية West Norfolk وعند تحديد الاقاليم الطبيعية تتناول بالتقسيم سطح الارض الحالى بما انتهى اليه تاريخه الطويل ، وما تعرض له من أحداث ، من التواء الصخور وانكسارها والنحت وآثار الجليد وحركات الهبوط والارتفاع . ومن الواضح أن تتبع وتعيين حدود الاقاليم الصغيرة يتطلب دراية ومرانا خاصا سواء (على الطبيعة) أو فى تفسير ومعرفة الخرائط الجيولوجية والطبوغرافية ، ولكن يمكن أن نؤكد أن الاختلافات الاقليمية فى طبيعة تكوين أو بناء الارض واضحة وان لم يكن فى تفاصيلها ، ولا يمكن تجاهل أهمية هذه الاختلافات من وجهة نظر التاريخ لان أكثرها من النوع الدائم ، فاذا عرفناها فى شكلها الحالى فسنعرفها فى الماضى الذى لايختلف عن حاضرها أيضا

وحينئذ يحاول الجغرافى أن يكشف النظم أو الاشكال التى حفرت أو تركت آثارها على سطح الارض ليجد بعض التماثل والتنسيق فيما يبدو لاول وهلة كأنه شيء مختلط يفتقد النظام ، وبعد أن يهتدى الى وجود هذه الاقاليم ، يحاول أن يتبين الى أى حد تعمل المجتمعات البشرية فى الافادة من الفرص التى أتيحت لها فى تعمير الارض وسكناها واستغلال مواردها الطبيعية ، والتردد هنا وهناك أثناء الهجرات والتجارة والرحلة والحروب ، وأخيرا فى تغيير ظروف الاقليم لكى تسد حاجات هذه المجتمعات وتأثير الاقليم بدوره فيها . ولكن ما علاقة كل ذلك بما نحن بصدده عن دور الجغرافيا فى تفسير التاريخ ؟

والجواب على ذلك أنه باستخدام طريقة البحث الاقليمي يتسنى للجغرافى أن يضع طريقة للتفكير خاصة به لاتقل فى انطباقها على الماضى عن الحاضر ، الذى يعد أهم مايعنى به الجغرافى . فيمكن أن نتصور مظاهر سطح الارض المتباينة خلال الماضى ، وبذلك يصبح الماضى بمثابة وثيقة ان لم تكن معاصرة بدقة لاحداث التاريخ ، فانها مع ذلك توضح أعمال المؤرخ كما أنها وثيقة الصلة بها . فالجغرافيا على الاقل فى مظهرها الطبيعى تمدنا بمقياس عام لكل الازمنة التاريخية أكثر قدما من ميتوشولح Methuselah (١) فقد شاهدت الارض ظهور الانسان وظلت بعد ذلك قائمة كما شاهدت الاحداث الطارئة التى تضمنتها أعماله الهادفة ..

***

ولما كانت هذه الاختلافات الكثيرة فى شكل الارض ، وفى مناخها ، وموقعها ، ومواردها الطبيعية ، تضع حدودا للمجهود البشرى فيجب أن تكون هذه الامور موضع عناية المؤرخ ، فلا يكفى فى دراسة التاريخ أن نرجع الى خرائط الاطلس لنحقق موقع ومساحة البلاد أو موقع المعارك والمدن ، برغم أنه منذ وقت غير طويل كانت الجغرافيا التى تتضمنها الكتابات التاريخية الجادة أما مفتقدة تماما أوكانت تقتصر على هذا المظهر التافه الممل، فكتاب «فريمن»(٢) المشهور الذى لم يفقد قيمته بعد، والمعروف باسم جغرافية أوربا التاريخية(٣) مثلا يشمل مجلدا من الخرائط ، وان لم تظهر فى خرائطه العديدة أية ظاهرة طبيعية فى تلك القارة ، ولذلك فان القارىء الذى يهمل المبادىء الاولى قد يذهب الى استنتاج أن سكان أوروبا ودولها قد تطورت على جزء من الارض متجانس ، وان كانت الحقيقة انه قلما نجد منطقة تبلغ مساحة أوروبا تقريبا وتشبهها فيما يبدو فيهـا من تباين فى بنيتها أو سطحها أو مناخها

وبعد أن أشرف على هذه المرحلة من يرتاد منطقة الحدود أو التخوم بين التاريخ أو الجغرافيا يجب عليه أن يتريث فى حيطة وحذر ، فهل يستطيع أن يدعى وهو مطمئن ان ظروف الجغرافية الطبيعية كانت مستقرة أو ثابتة أو بتعبير آخر أن البيئة أو المسرح الطبيعى Natural landscape لم يصبه تغيير ما ؟ بكل تأكيد نجد أن الموقع الجغرافى فى معناه المطلق لم يتعرض للتغيير ، ولكنه بمعناه النسبى ـ كما سنرى فيما بعد ـ يتغير أثناء العصور التاريخية (٤) ، كذلك هل المناخ الذى يعد بآثاره المباشرة وغير المباشرة أشد عوامل البيئة قوة وأبعدها أثرا فى أية بيئة طبيعية .. قد ظل ثابتا خلال

(١) ميتوشولح أحدالمعمرين من بنى اسرائيل،كان يعيش قبل طوفان نوح، وقد قيل أنه امتد عمره لنحو قرن من الزمان
(٢) Freeman
(٣) The Historical geography of Europe
(٤) انظر الفصل الثانى

التاريخ ؟ سوف نتناول هذه المشكلة بعد ذلك (١) ، ولكننا يمكن أن نذكر فى هذا المقام أنه برغم كثرة ما يكتنف هذا الموضوع من شكوك كثيرة وما يثيره من تناقض كبير ، فان فرض حدوث تغير مناخى وبخاصة فى عصور ما قبل التاريخ أمر لا يمكن تجاهله ..

***

ولكن على النقيض نجد أن مورفولوجية الارض — أى أشكال السطح والتضاريس ومظاهر الصرف فيها — تكشف عن استقرار واضح لان ماينتابها من التغيرات المألوفة يستغرق أزمنة أطول بكثير من عصور التاريخ ، فلم تقع سوى تغيرات مورفولوجية محدودة أثناء التاريخ البشرى القصير اذا قيس بالتاريخ الجيولوجى ، ولكن رغم ذلك فقد كان لهذه التغيرات الطبيعية المحدودة المتفرقة احيانا آثار بشرية مهمة ذات دلالة .. فالثورات البركانية والزلازل التى تحدث فى الاقاليم ذات البنية الحديثة ، وهبوط أو ارتفاع سطح الارض بالنسبة لمستوى البحر ، والتغيرات التى تؤثر فى مجارى الانهار وتطمر خلجانها ، ونحت أراضى السواحل واضافة أراضى جديدة اليها بتأثير عوامل بحرية أو نهرية ، وطغيان الصحراء لما تسفيه الرياح من الرمال ، وفقدان التربة نتيجة للنحت رغم أنها قد تعزى بطريق غير مباشر الى نشاط الانسان .. مثل هذه التغيرات مهما كانت غير ذات بال من الناحية الجيولوجية ، من الممكن أن تتمخض عن نتائج بشرية هامة ، فضلا على أنه يجب أن نلاحظ — وبخاصة فى المناطق التى استقر فيها السكان منذ زمن طويل او التى استغلت استغلالا كثيفا — انالنبات الطبيعى الذى كان يغطى سطح الارض فى عصور ماقبل التاريخ السحيق قد اختفىجميعه تقريبا ، بل حتى فى الجهات التى لم تستغلأو ظلت متخلفة نسبيا مثل حوضى الامزون والكنغو ، فان جانبا على الاقل من غطاء النبات الطبيعى الاول قد أزيل (٢)

وقد بذل الانسان جهودا متصلة مدة طويلة لاصلاح بعض الاراضى للانتفاع بها ، حتى أصبحت الحيوانات البرية والنباتات بل والتربة تمثل عناصر بيئية قد تأثرت بالمجهود البشرى ، أى أن هذه العناصر أضحت تختلف تماما عن عناصر البيئة الطبيعية كما وجدها السكان الاوائل . وتمدنا مصر فى هذا الصدد بمثل فريد لهذه الحقيقة (٣) برغم أن هناك من كتب يقول :

« تمثل مصر وثيقة من سعف النخيل دون الانجيل فيها على كتابات هيرودوت ، ثم كتب عليها القرآن ولذلك نستطيع أن نتبين الكتابة الاولى القديمة خلال كل ذلك (٤)

(١) انظر الفصل الثالث (٢) انظر الفصل السابع (٣) انظر الفصل الثامن

(٤) ذكرى نيوبرى P. E. Newberry تحت عنوان (مصر كحقل للبحث الانثربولوجى) « Egypt as a field for Anthropo logical Research » (1923-1924) P. 193 British Association Report.

ومن المعقول أن نذهب الى أن بعض مظاهر الحياة المصرية التقليدية ، التى تبدو حتى اليوم فى الحفلات الدينية ، والحرف اليدوية ، والزى والزينة ، ومنتجات التربة ــ تدين بشىء ما الى تأثير ظروف البيئة الطبيعية المتميزة جدا والتى أثرت وكيفت الحضارة المصرية

ولذلك فان كل من يحاول أن يعيد تصوير الظروف الجغرافية التى كانت سائدة فى أية منطقة وفى أى عصر مضى، انما يضطلع بواجب يتطلب خبرة معينة وعناية بالغة ومجهودا ليس دون ذلك . ويصبح الواجب الاساسى أن يتعرف الانسان على الخصائص الطبيعية وامكانيات المنطقة ، وان يكشف ما يتوفر فيها من الامكانيات الاقتصادية ، والصعوبات واسباب التيسير التى تكتنف الانتقال داخل المنطقة ، أو فى علاقتها بالعالم الخارجى ، وما هى أسباب الدفاع التى تتيحها هذه الصفات الطبيعية ، وما هى طرق الحياة التى تسمح بممارستها

***

ولو رغب ان يذهب أبعد من ذلك ، فان ميدان بحثه سوف يتجاوزالظروف الطبيعية ، فيحاول أن يتعرف على الظاهرات البشرية التى تركت أثرها على سطح الارض فى عصر معين ، وهكذا سيتناول عملا أكثر مشقة ، ويصبح لزاما عليه أن يميط اللثام عن أنواع العمران التى كانت موجودة ، وكيف كان توزيعها ، وما هى السبل التى كانت مطروقة حينئذ ، والموارد المعدنية التى كانت مستغلة ، وأين كانت ، وطرق الاستفادة من الارض ، وكيف كان توزيع السكان ..

يقع مثل هذا البحث ضمن ميدان التخصص الذى يعرف الآن بوجه عام باسم الجغرافية التاريخية لانه يستهدف فى المقام الاول غرضا جغرافيا ، فيعيد تصوير الظروف الجغرافية التى كانت سائدة فى الماضى . ولكن لو قدر المضى فى هذا البحث حتى نهايته بالافادة من كل الادلة التى تكون فى متناولنا ، فسوف لاتقل أهميته للمؤرخ عن اهميته للجغرافى ، كما انه سيساعد فى توضيح التاريخ الاقتصادى والاجتماعى من ناحية ، والظروف الجغرافية السائدة الآن من ناحية أخرى

ولنذكر الان ماانتهى اليه الرأى فى هذا البحث ، اذ أنه لما كانت كل الحوادث الانسانية تقع فى مكان وزمان معينين ، فالمؤرخ الذى يجعل جل اهتمامه بالتغيرات التى تحدث خلال العصور لا يستطيع أن يغفل مشاكل المكان ، تلك المشاكل التى تنفذ منها الجغرافيا ، لان المسرح الذى تجرى فيه أحداث التاريخ يحد من حرية الانسان فى العمل على نمط يختلف بين مكان وآخر ، فهو يحدد مواطن كثير من الاحداث . هذا الى أن الجغرافيا حين تأتى لتشد أزر التاريخ ، تمدنا على الاقل بتفسير جزئى لطرق المعيشة التى كانت تتبعها الشعوب

فى الجهات المختلفة (١) . حقا ان من المتفق عليه ان « طرق المعيشة » ليست أمرا تمليه الظروف الطبيعية املاء . . فالجماعات البشرية نفسها ـ تبعا للمرحلة التى بلغتها من التطور الثقافى وحاجاتها وقدرتها على الابتكار ـ تختار طرق معيشتها ووسائل النقل التى تستخدمها (٢) ، ولكن لذلك دائما حدودا ، قد تضيق أحيانا جدا تحت تأثير طبيعة بيئتهم ، كما ان استخدام الطريقة الجغرافية أحيانا يلقى ضوءا ـ يكتنفه الشك ـ على حقائق التاريخ . كما أن ما يقوم به الجغرافى من عمل « خرائط التوزيع » لايعد طريقة ملائمة ودقيقة للاجابة عن السؤال : أين ؟ فحسب ، بل قد يبين كذلك أن التوزيعات تتبع أنماطا وأنظمة يمكن تفسيرها جغرافيا . وقد تواضع علماء الآثار على استخدام هذه الطريقة بعد ان ايقنوا بمضى الزمن اهمية النواحى التى تتناول المكان فى كشوفهم ، فأصبحت لا تعوزها الاسانيد التى تسوغ استخدامها لانها تمخضت عن نتائج يعتد بها . ومن الواضح أن هذه الطريقة يمكن أن تلقى مثل هذا التوفيق اذا تناولت المسائل التاريخية ، وهو امر يزداد وضوحا بمضى الزمن . ويجب طبعا أن لا نذهب الى أن كل التوزيعات يمكن تفسيرها على ضوء الظروف الطبيعية ، فان اعداد خريطة للتوزيع لاتعدو ان تكون تجربة قد تسفر عن نتائج

***

ولنتناول باختصار الاستعمار الاغريقى فى القرن الخامس قبل الميلاد كمثل يوضح ذلك ، فلو رسمت خريطة لتوزيع المستعمرات الاغريقية (انظر شكل ١) ودرست علاقتها بالحقائق والتوزيعات الجغرافية الاخرى لامكن أن تستخلص طائفة من النتائج ذات الاهمية التاريخية : وهنا يتضح لاول وهلة انتشار هذه المستعمرات على طول شواطىء البحر المتوسط والبحر الاسود كما وصفها أفلاطون بأنها (كالنمال والضفادع انتشرت حول بحيرة راكدة) ، ثم نلاحظ بعد ذلك أن هذه المستعمرات الاغريقية كانت أقل فى انتشارها نسبيا فى الحوض الغربى للبحر المتوسط حيث سبقهم الى الاستقرار فيه الفينيقيون والاتروسكيون ، وأخيرا سيسترعى انتباهنا انه فى ضوء الاعتبارات المناخية والامكانيات النباتية (والموقع المتوسط للبحر وسط اليابس) قد نشأت المستعمرات الاغريقية حيث يمكن اتباع طرق المعيشة الخاصة ببلاد الاغريق دون أن يصيبها أو أصابها تغيير قليل ، حيث كانوا يستطيعون ان ينتجوا حبوبهم ونبيذهم وزيتهم ، وأن يجدوا المرعى لقطعانهم من الاغنام والماعز وأن يصيدوا أسماكهم من البحر الذى يسلكونه فى تجارتهم

والواقع ان هناك ارتباطا يسترعى الانتباه بين توزيع كل من المستعمرات

(١) انظر الفصل السابع (٢) انظر الفصل الرابع

الاغريقية ومناخ البحر المتوسط ، فكانت تضعف الحضارة الاغريقية فى بلاد الاغريق تدريجيا عند أطراف هذا الاقليم المناخى ، ومن ناحية أخرى فانه رغم انهم كانوا يستطيعون اتباع طرق المعيشة الخاصة باقليم البحر المتوسط دون تغيير كبير على سواحل البرتغال ، فمن المعقول أن نستنتج أنهم كانوا عازفين عن ولوج مياه المحيط التى تقع وراء بوغاز جبل طارق

***

وأخيرا هنالك ناحية أخرى من نواحى التاريخ ترتبط بالجغرافيا بأواصر وثيقة ، ففى ربوع الريف فى الوقت الحاضر — كما يبدو فى الخرائط الطبوغرافية ذات المقياس الكبير والتى يمكن الحصول عليها الان لكثير من البلاد — نجد ان الظاهرات ذات الاهمية التاريخية والجغرافية مترابطة فى كل مكان ، وان أعتبار الريف — كما يبدو على الخريطة التفصيلية —بمثابةوثيقة اذا قيض لها الخبير الذى يحسن حل رموزها ، تأتى بنتائجمجزيةسواء للجغرافى الذىيحاول أنيفسر الانماط أو أنظمة توزيع الظاهرات كما تبدو الآن ، أو للمؤرخ الذى يعينه الماضى وآثاره التى لا تزال شاخصة ، كما يوضح تماما كيف يعتمد هذان النوعان من الدراسة كل على الآخر ، فاذا تزود الجغرافى بالخرائط فلابد له آن يعمل على الطبيعة in the field لمتابعة دراساته ، كما يستطيع المؤرخ ان يجد فى الفضاء الطليق ما تتطلبه دراسته ايضا . فلو كان الاخير يدرس مثلا الطرق فىعصر ماقبل التاريخ أو فىالعصور الرومانية ، والمعسكرات التى أقيمت علىقمم التلال فىأول عصر البرونز ، أو السدود والمتاريس التى ترجع للعصور المظلمة مثل « Offa's dyke » العجيب ، والاديرة ومراتع الاغنام فى العصور الوسطى والملاحة النهرية ، وما الى ذلك ، فانه يستطيع أن يضفىعلى وصفه الواقعية والدقة بمشاهدة الاشياء مباشرة فى الطبيعة . فقد كتب عن جرانت الن (١) الذى قيل أن كتابه (المدينة والريف فى انجلترا) (٢)

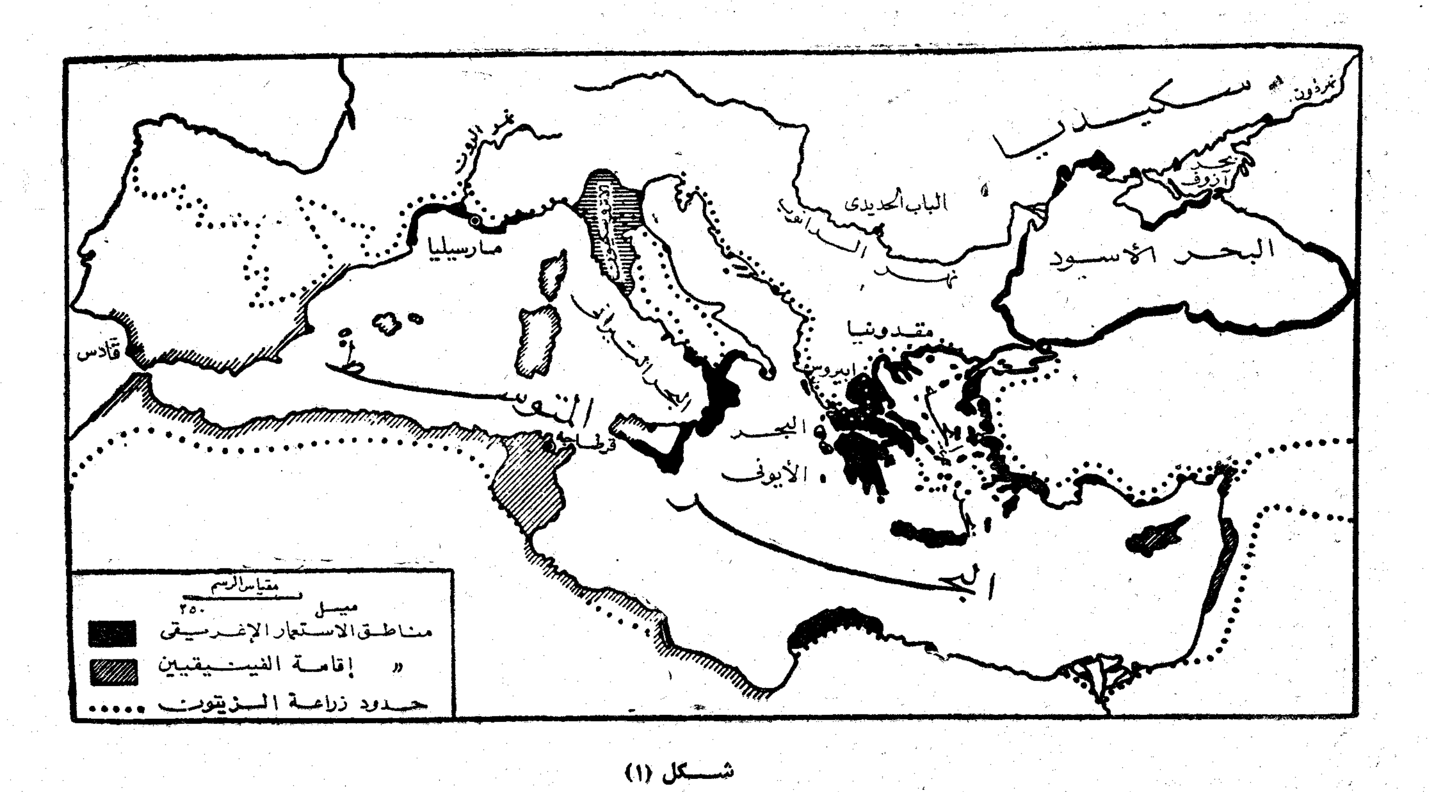
« كشف — منذ جيل — على تقدير فيه زكاءة وفطنة للريف المعاصر باعتباره وثيقة تاريخية » (٣)

« لقد كان من دواعى السرور أن تصحبه فى نزهة ، فقد كان يبدو الريف له ككائن حى يتطور تحت بصره ، يجب أن يتعرف الانسان على تاريخه الماضى فى ضوء الظروف القائمة ويمكن أن نضيف الى ذلك أنه اذا كان ماحققه الانسان من تغيير وجه الارض وأشكالها يمثل جانبا من دراسة التاريخ بحق فانه لايتسنى ادراك مثل هذا التاريخ الا اذا درس فى ضوء الاسس الطبيعية التى لاتتغير نسبيا

---

(١) Grant Allen (٢) Town &County in England

(٣) المقدمة التى كتبها ف. يوركباول F. York Powell فى كتاب « المدن والريف فى انجلترا سنة ١٩٠١ Town & County in England 1901



شكل (١)

عالم البحر المتوسط من القرن السابع الى القرن الخامس قبل الميلاد
(يلاحظ أن حدود منطقة زراعة الزيتون تدل تقريبا على حدود اقليم البحر المتوسط المناخي)

فلا يمكن أن نظل نتصور الجغرافيا كعلم يفسر التاريخ مثل يد القـــدر المختبئة التى توجه سير التاريخ البشرى ، اللهم الا ربمـــا أثناء الفترة الاولى الطويلة من فترات حضارة العصر الحجرى القديم ، ولــكن فى أثناء تاريخ الانسان الثقافى بمعناه الواسع والتاريخ الاقتصادى والاجتماعى والتـــاريخ السياسى والعسكرى والبحرى ،نجد أن « روح المكان »(١) تلعب دائما دورها. وتمثل طريقة التفكير الجغرافى سواء بتقسيم العالم الى أقاليم متميزة واضحة بما تتيحه من فرص معينة للانسان أو بتوزيع الظاهرات توزيعا مكانيـا — أحد المناهج الاضافية لتناول هذه الفروع من دراسة التاريخ. ورغم أننا على حق اذا اعتقدنا ان الناس كانوا فى الماضى يدركون العالم المحيط بهم ادراكا منقوصا، وانهم انشأوا ثقافة مادية باستخدام طريقة التجربة والخطأ ، ورغم ان رغبتهم ومقدرتهم على تكييف عالمهم او تغيير أنفسهم لتلائم ذلك العالم ، كانت فى تغير متصل ، فمن المسائل ذات الاهمية الواضحة أن أى تصوير للماضى يجب أن يلقى فيه ذلك العالم الطبيعى من العناية ماتلقاه المصادر المكتوبة من اهتمام بالغ ، وتشمل هذه الدراسة الجغرافية فحص كثير من الخرائط والتصميمات والمصورات فحصا دقيقا ومطالعة الكثير من المواد المكتوبة كما تتضمن كذلك — حيثما أمكن ذلك — البحث «على الطبيعة» . ولذلك فقد يأتى الوقت فى بعض الاحيان الذى يجب على دارس التاريخ ان يغادر مكتبه وخريطته فى يده ، ليخطو فى العالم المحيط به ، الذى قد يعثر فى أرجائه أحيانا على مايلقى على الماضى ضوءا أقوى من الوثائق المغبرة والسجلات الرسمية التى يستقى منها مادته ، بل يستلهمها كذلك الوحى لتدوين ملحمته

---

(1) Genius loci

الموقع الجغرافى

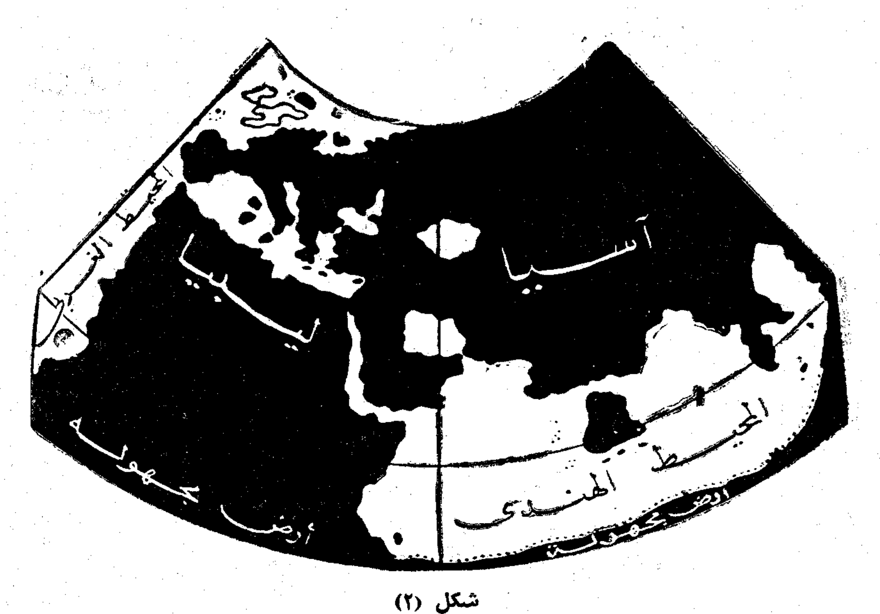
أين افريقية ؟
مسرحية « القافلة » ـ نويل كوارد (١)

اين افريقية ؟ .. هكذا سألت الخادمة فى مسرحية « القافلة » عن البطل الذى عاد من حرب البوير ، ويمكن أن نذكر انها لم تظفر برد شاف . وقد يبدو لاول وهلة أنه من اليسير ان نجد الجواب لهذا السؤال اذا رجعنا الى مصور للخرائط أو كرة أرضية . ولكن هل يكفى للاجابة عن أسئلة تتناول الموقع أن نذكر خطوط الطول والعرض التى قد يفيد منها علماء الخرائط والملاحون ، والتى تساعد فى تحديد الاشياء التى تظهر فى خرائط تبين سطح الارض ..

حقا من الممكن أن نصدق ان أوضاع أو توزيع القارات والبحار قد ظل ثابتا دون تغيير اثناء تاريخ الانسان القصير على سطح الارض ، اذ لايعنينا فى هذا المقام فرض « فجنر » الالمعى (عن زحزحة القارات) الذى يفسر التوزيع الحالى للقارات على أنه نشأ نتيجة لتفككها وابتعادها عن كتلة من اليابس كانت متصلة من قبل ـ لان ذلك لايتصل بتاريخ الانسان وانما بالعصور التى ينقسم اليها الزمن الجيولوجى وهو أطول كثيرا . كما أنه لا تعنينا دراسة خرائط العصور الجيولوجية التالية أكثر من ذلك ، وتعد خصائص موقع أى مكان خلال العصور التاريخية على جانب من الاهمية ، لانها اذا أضيفت الى بعض المميزات الجغرافية الاخرى فسيكون لها بعض التأثير على سير تاريخه . واذا أمعنا النظر فسنجد ان الموقع ليس فكرة مطلقة فحسب ، ولكنها نسبية أيضا لان الناس عاشوا دائما فى عالم متغير ، ولذلك فان موقع المكان عامل جغرافى متغير وثابت فى وقت واحد .. فهو يمثل حقيقة طبيعية فى ناحية من نواحيه فقط ، ونعنى بكلمة طبيعية انه خلق كذلك ولم يكن معرضا للتغيير ، ولما كان الموقع يعتبر شيئا متغيرا لعلاقته بالعالم المتغير ، فانه لابد أن يقوم تقويما صحيحا خلال عصور التاريخ المختلفة ..

فنحن لا نستطيع أن نفترض مطمئنين أن قيمة موقع أية بقعة فى الحاضر ظل كما كان فى الماضى الا اذا ارتكبنا خطأ تاريخيا غير مقبول ، ولكن الى أى شىء

(١) Cavalcade تأليف Noel Coward

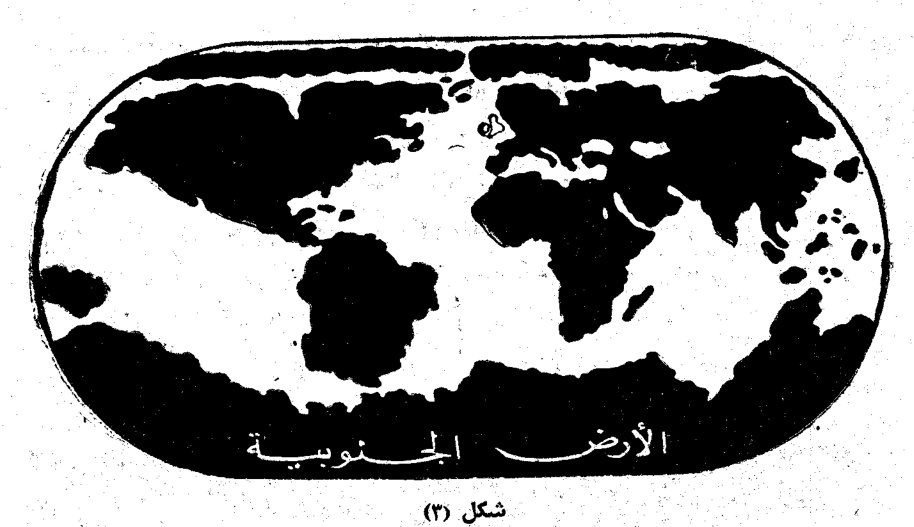


شكل (٢)

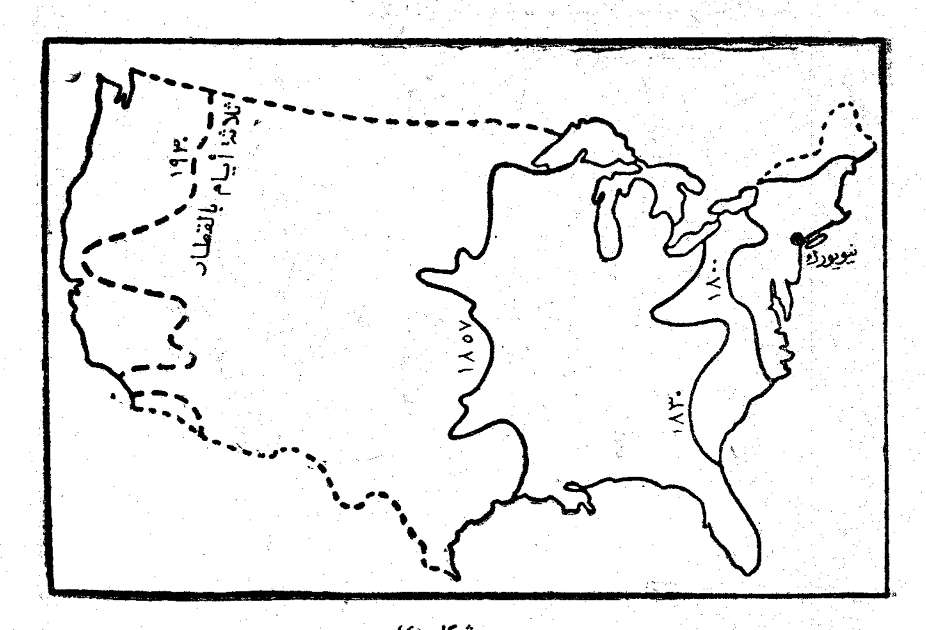
العالم عام ١٥٠ ميلادية تقريبا تبعا لبطليمـــوس
(تركت الجزائر البريطانية دون تظليل باللون الاسود)

ننسب الموقع ؟ الجواب على ذلك أنه بالنسبة ــ فى المقام الاول ــ لما أسماه الاغريق « oekumene » أى العالم المعروف والمعمور الذى لم يكن يشمل البتة سطح الارض الحقيقى فى عصور التاريخ المختلفة ، فلنقارن مثلا العالم كما كان معروفا فى أوج الامبراطورية الرومانية بما كان يعرفه علماء الكون بعد العصر الاكبر للكشوف الجغرافية منه ، (انظر شكلى ٢ و ٣) فقد اتسعت حــدود العالم المعروف منــذ العصر الذى رسمت فيــه خريطة اورتليوس « Ortelius » عما كانت عليه من قبل . . اذ عرفت معرفة تكاد تكون كاملة المظاهر الرئيسية فى توزيع اليابس والماء على الارض ، فقد رسمت على الاقل الحدود العامة للاقاليم القطبية . كما أن موقع أى مكان فى أى عصر يتأثر بالحالة التى عليها الاراضى المعروفة من حيث أنها مأهولة بالسكان أو غير مسكونة ، متحضرة أو متأخرة

وأخيرا فان المدى الذى نذهب اليه حين نصف موقعا ما بأنه يوجد عند الحدود أو فى الوسط يتوقف فى ناحية من نواحيه على سهولة الاتصال به . وهذا أمر يتغير من عصر الى عصر ، كلما تغيرت وسائل الاتصال والنقل ، فنلاحظ مثلا كيف تغيرت طرق الاتصال بنيويورك أثناء المائة والاربعين عاما الاخيرة . (أنظر شكل ٤) ويمكن القول أن طبيعة أى مكان تتيح امكانيات



شكل (٣)
العالم فى ١٥٧٠ م - أورتليوس « Ortelius »
(تركت الجزائر البريطانية دون تظليل باللون الاسود)



شكل (٤)
مناطق كان يستغرق السفر اليها من نيويورك أسبوعا فى ١٨٠٠ر١٨٣٠ر١٨٥٧ ، وثلاثة أيام ١٩٣٠

معينة أو فرصا للافادة من الموقع استغلت استغلالا متفاوتا فى العصور المختلفة .. فجزرنا تعد مثلا فريدا يجلو هذا الرأى ، اذ طالما شيد بذكر

موقعها كمقوم دائم على جانب من الاهمية ، كما استند اليه فى تفسير بعض نواحي تاريخ هذه الجزر ، بيد أن هذا الموقع لم يكن بكل تأكيد ثابتا خلال عصور التاريخ . فلم تكن بريطانيا مثلا تمثل جزرا طوال تاريخها البشرى ، فقد ظلت متصلة اتصالا وثيقا بالقارة أثناء آلاف عديدة من السنوات خلال العصرين الحجرى القديم والاوسط .. (انظر شكل ٥)

أما الآن فان الجزائر البريطانية تتمتع حقا بموقع ينطوى على مميزات واضحة ، فهى تقع قريبا من القارة ولكنها منفصلة عنها ، تلك القارة التى تتصل بها الجزائر من نواحى التكوين الجيولوجي ، وبذلك فهى أقرب جهات أوربا الى أمريكا الشمالية . وقد أصبح طريق البحار مفتوحا أمامها بعد أن



شكل (٥)

بريطانيا وقد اتصلت بالقارة حوالى ٧٥٠٠ قبل الميلاد

(نقلا عن ل. د. ستامب L. D. Stamp)

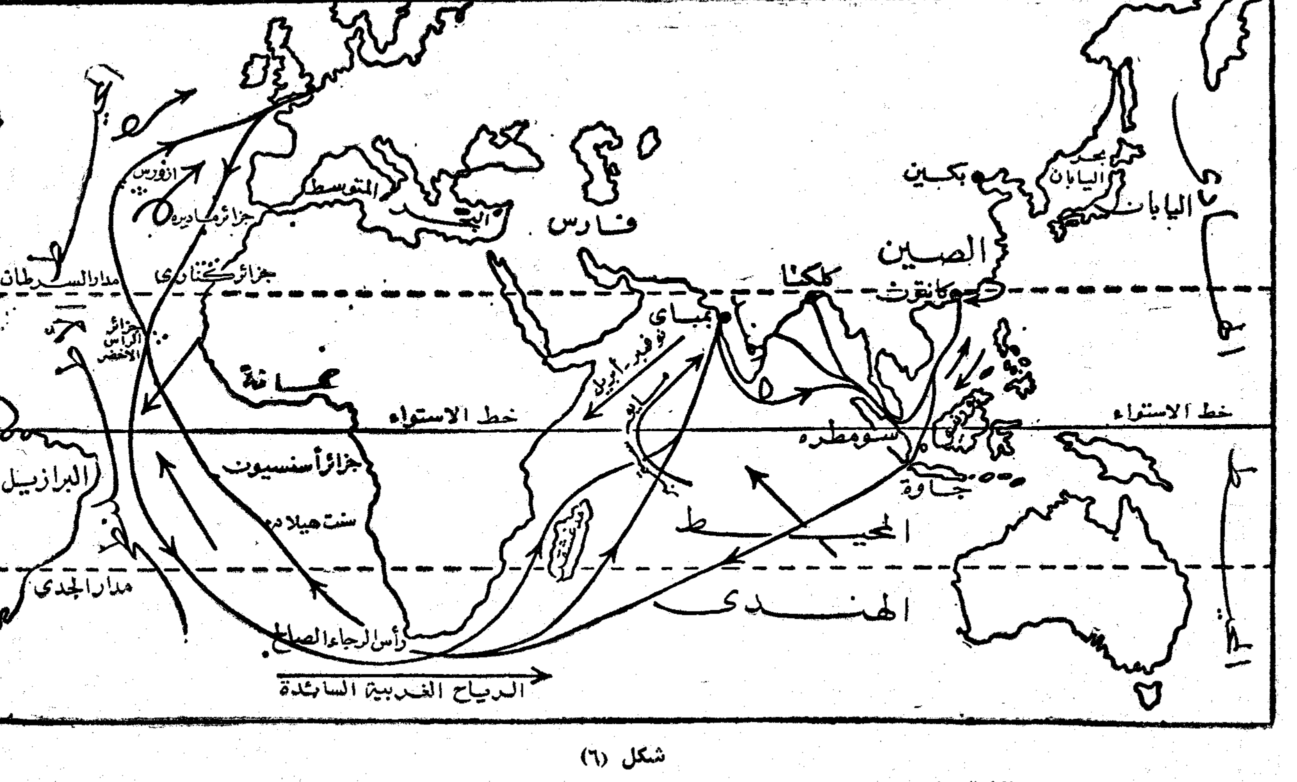
اكتشفت الطرق البحرية عبر المحيطات وأصبحت آمنـــة ، ولذلك أضحى اتصالها ميسورا لا بالعالم الجديد وجنوب افريقية والشرق الاقصى فحسب .. ولكن بالبحار المحلية شبه المغلقة ، وهى بحر الشمال وبحر البلطيق والبحر المتوسط أيضا . كما انه لم تعترض طرق المواصلات البحرية التى تصلها مباشرة بأمريكا الشمالية أية منطقة من اليابس تقع الى غرب الجزائر البريطانية مباشرة ، ولكن دول غرب أوربا وبخاصة البرتغال وأسبانيا وفرنسا وهولندا قد شاركت بريطانيا فى هذه الجبهة الغربية التى تطل على المحيط الاطلسى الشمالى فلعبت كل منها دورها فى التجارة والاستعمار فى الامريكتين . أما بالنسبة للطريق البحرى لرأس الرجاء الصالح والشرق الاقصى (أنظر شكل ٦) فكانت كل من البرتغال وأسبانيا تتمتع بمركز يفوق موقع الجزائر البريطانية وهى ميزة لم تقصر هذه البلاد فى الاستفادة منها واستغلالها

ويعد المدى الذى يعتبر فيه الموقع وحده عاملا له أهمية تاريخية موضوعا طريفا ، ففى بعض النواحى مثلا كان موقع ايرلنـــدا يفوق موقع الجـــزيرة البريطانية وهى أكبر منها مساحة وأكثر منها ثروة وسكانا . ولكن هـــذه الجزيرة الكبرى ، وبخاصـــة انجلترا ، هى التى أفادت من الفرص التى أتاحها الوضع الجديد فى الجزائر البريطانية عقب الكشوف الجغرافية فى نهاية القرن الخامس عشر وأول القرن السادس عشر . فكان من أهـــم المـــيزات التى تمخض عنها هذا الوضع الجديد أن أصبحت الجزائر البريطانية وسط نصف الكرة اليابس المأهول (١) والمعروف حينئذ ، كما أصبحت تقع عنـــد مدخل العالم الجديد الى أوربا ، وهكذا لم تعد بريطانيا كما كانت « هـــذه الجزيرة التافهة الصغيرة بأرضها القليلة وطقسها الكريه »

ولكن موقع الجزائر البريطانية فى الفترة الاولى من تاريخنا ــ كان على عكس ذلك ــ لاتحسد عليه كثيرا اذ لم يكن مرغوبا فيه ، فقد ظلت لبضعة آلاف من السنـــوات تقع بعيدا عن أكثر حضارات ذلك العصر تقدما عند أطرافها ، اذ كانت تمثل طريقـــا مغلقا لا يفضى لشىء فى الطرف الغربى لكتلة اليـــابس الاوراسى ، شأنها فى ذلك شأن الجزائر اليابانية التى تقع فى طرفه الشرقى ، حقا لقد كان يمر بمياهها الاقليمية طريقان بحريان محليان ، كما كانت البحار الضيقة المحصورة بين بريطانيا وايرلندا تمثل أحد الطرق التى تمتد بين جنوب غرب أوربا واسكنديناوة وايسلندة ، ويضاف الى ذلك أن القنال الانجليزى كان طريقا مهما للسفن التى كانت تسير بين البحر المتوسط وبحر الشـــمال وبحر البلطيق ..

---

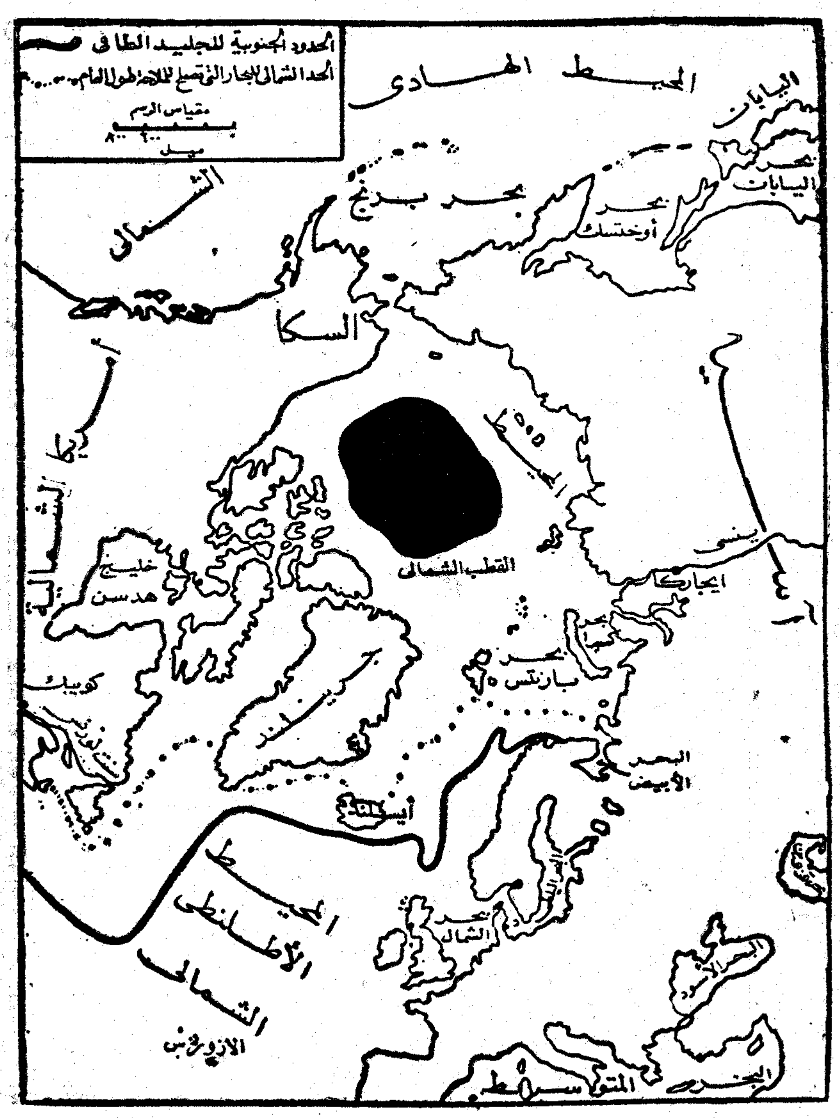
(١) انظر فى هذه الناحية كتاب H.J. Mackinder' « British and the British Seas » أى بريطانيا والبحار البريطانية ١٩٠٢ الفصل الثانى



شكل (٦)

الطرق الملاحية بين بريطانيا والشرق الاقصى (سيشار اليها فى الفصل الاخير)

ولكن المهم أن جزائرنا كانت تقع عند نهاية الطرق ، فالى الغرب كان يمتد المحيط الاطلسى الذى يخلو من المسالك ، اذ حتى بعد ان عبره الفيكنج Viking لاول مرة فى القرن العاشر فقد ظل كمنطقة حدود فاصلة حتى عصر كولمبس ، أما الى الشمال فى الجانب الآخر بين ايسلنده واسكنديناوه الغربية فكانت البحار التى تتجمد طول العام عدا الصيف تمثل طريقا مغلقا (أنظر شكل ٧) ، وقد أصبحت جرينلند الجنوبية وحدها ــ التى استعمرها

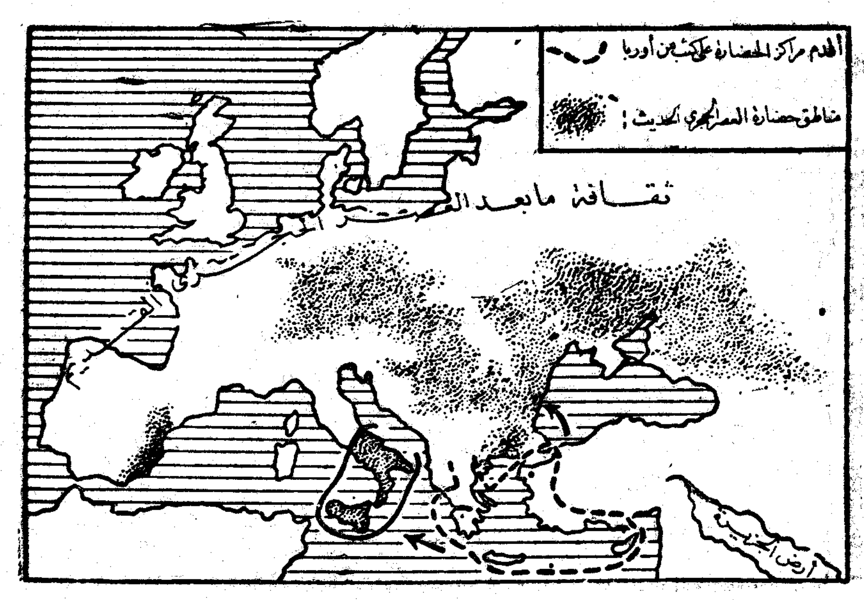


شكل (٧) : الجبهة الشمالية للعالمين القديم والجديد

الدانيمركيون منذ القرن الحادى عشر ـ مركزا نائيا للحضارة الاوربية تقع على حافة المحيط المتجمد . ولم تكن هناك مسالك معروفة تتجه نحو الشمال الشرقى أو الشمال الغربى لتصل الى الهند والصين بما كان فيهما من ثروات كانت حديث خرافة ، وذلك كما تخيلها علماء الكون ، وأخذ يبحث عنها الرواد والمكتشفون فى القرن السادس عشر ، بل أن الطريق القصير نسبيا الذى ينتهى الى البحر الابيض لم يستخدم سوى أثناء حكم الملكة اليصابات

فلو رجعنا القهقرى حتى بلغنا الالف سنة الثالثة قبل الميلاد ، لوجدنا أنه حين كانت طرق الحياة المتمدينة تنتشر ببطء فى أشباه جزر البحر المتوسط وأوربا الوسطى ، كانت الجزائر البريطانية وفرنسا الغربية وأوربا الشمالية من بين أكثر جهات العالم القديم تأخرا وجمودا فى ذلك الحين (أنظر شكل ٨) ، فقد وصلت الحضارات المتتالية أثناء العصرين الحجرى والبرونزى وأوائل عصر الحديد الى بريطانيا فى وقت متأخر ، وفى صور أصابها الوهن الى حد ما ، حقا استطاعت ايرلندا بفضل حسن استخدام مواردها من الذهب والنحاس أن تكون مهد حضارة زاهرة فى أوائل العصر البرونزى ، مما أفضى الى انقلاب اتجاه تيارات الحضارة رأسا على عقب ، تلك التيارات التى كانت تتدفق من الشرق الى الغرب حينا من الدهر ..

ولكن هذه الحقيقة لاتقوض الرأى الذى ذهبنا اليه فى أن الجزائر البريطانية



شكل (٨) : مراكز الثقافة فى أوربا حوالى ٢٥٠٠ ـ ٢٠٠٠ ق.م

كانت بوجه عام ــ رغم مميزاتها الحضارية الخاصة ــ تمثل فى الواقع مناطق متطرفة امتدت فيها الحضارات التى نضجت على أرض القارة . فعلى حين كانت الحضارة الاوربية تنهض أثناء العصر الحجرى الحديث وعصر البرونز معتمدة على انتشار الشعوب والافكار من مراكز الحضارة الاولى (١) مثل مصر والعراق والكويت ودول بحر ايجه ، كانت الجزائر البريطانية تشغل موقعا نائيا غير ملائم كما يبدو مما سبق .. فهى وان لم تكن تقع بعيدا اذا قدرنا البعد على ضوء المسافة الحقيقية فحسب ، الا أنه كان من الصعب الوصول اليها نسبيا اذا عرفنا طرق المواصلات التى كانت سائدة فى ذلك العصر

***

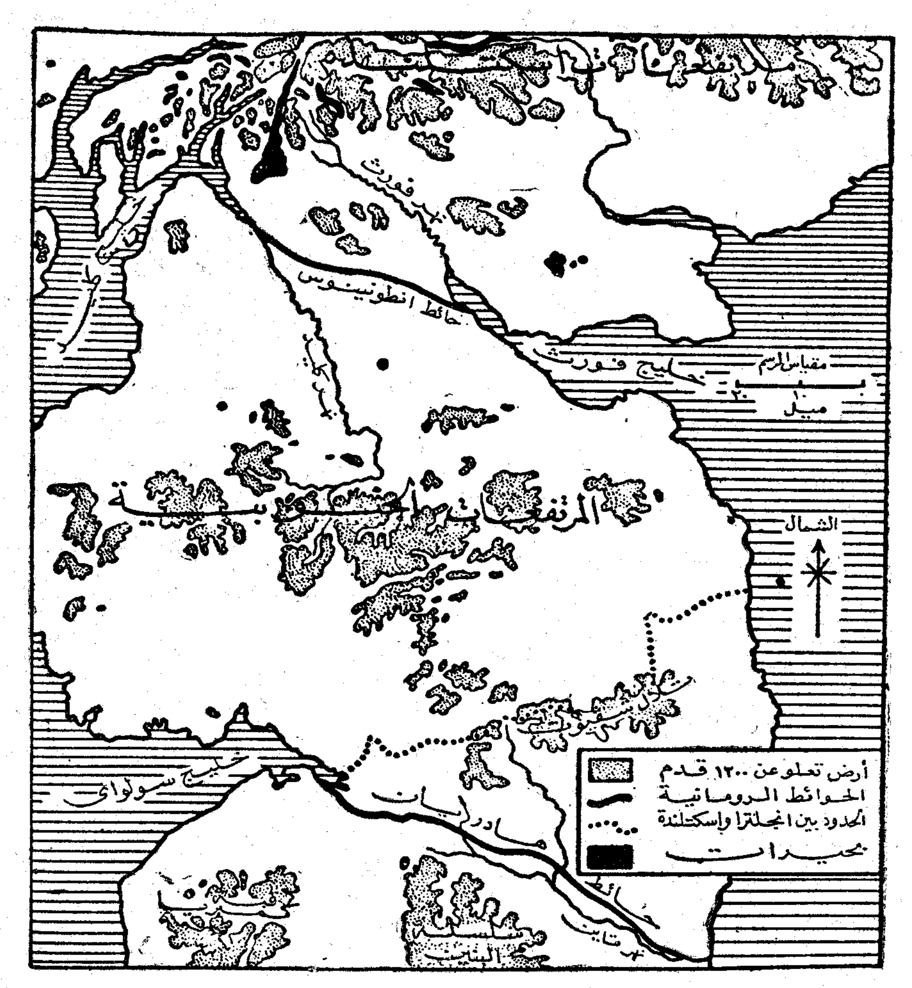
وعلى الرغم من أن انجلترا لم تكن أبعد عن مصر فى خط مستقيم ــ كما يطير الطائر ــ عن المرية Almeria فى جنوب شرق اسبانيا ، فقد وصلت حضارة العصر الحجرى الحديث الى المرية قبل أن تصل الى انجلترا بخمسمائة سنة أو نحو ذلك ، اذ ربما بلغت هذه الحضارة بلدة المرية عن طريق البحر المتوسط أو أراضى الاستبس المكشوفة فى شمال أفريقية ، أما بريطانيا فقد وصلت اليها هذه الحضارة عن طريق قارة أوربا التى كان اختراقها أكثر صعوبة لانتشار الغابات الفسيحة والمستنقعات والعقبات الجبلية

كما لم تكن تشغل الجزائر البريطانية الا موقعا متطرفا أثناء العصر الرومانى ، حين كان البحر المتوسط يمثل محور الحضارة الاغريقية الرومانية (أنظر شكل ٢) . فقد كان مركز الجذب فى الامبراطورية الرومانية سواء بالنسبة للسكان أو التجارة ، يقع فى ايطاليا نفسها وحوض البحر المتوسط الشرقى : فى مصر وسوريا وسواحل آسيا الصغرى . ولم يكن يستحق تجشم متاعب غزو بريطانيا فى نظر الاباطرة الرومان سوى جنوبيها وذلك الى جنوب وادى اسكتلنده الاوسط ــ على حين لم يتم غزو ايرلنده الذى تطلع اليه دون حرص كبير ، القائد الرومانى اجريكولا (٢) وكانت الاعتبارات الاستراتيجية التى أثرت فى غزو بريطانيا أقوى من الرغبة فى الحصول على ثروة حقيقية من وراء هذا الغزو ، لان بعض شعوب انجلترا الجنوبية شدت أزر أقربائهم من سكان غالة ضد روما . فشيدت الفرق الرومانية حائطين عبر (خصرى) انجلترا واسكتلنده ليصبحا خطى دفاع عن الحدود الشمالية الغربية للامبراطورية الرومانية ، حيث طرق الحياة المتأخرة كانت لاتزال سائدة فى تلك الجهات . (أنظر شكل ٩) ولابد ان كان العمل فى الفرق الرومانية لصد غارات البكت Picts والكلدونيين Caledonians وغيرهم من الاسكتلنديين تشبه الحياة

---

(١) انظر الفصل الثامن (٢) ظن هذا القائد أنه يمكن اخضاع ايرلنده اذا غزاها جيش قوامه سبعة أو ثمانية آلاف جندى فقط

التى يحياها الآن الجنود البريطانيين عند تخوم الهند الشمالية الغربية ، وهو نوع من النفى الحقيقى فى هذه الجهات الموحشة ، وعلى هذا النحو كانت تبدو بلاد الاغريق بعد ان انقضى عصر عظمتها بزمن طويل ــ للموظفين الذين كانوا يرسلون من القسطنطينية أى أنها (لا نفع فيها)



شكل (٩) الحوائط الرومانية والحدود الانجليزية الاسكتلندية

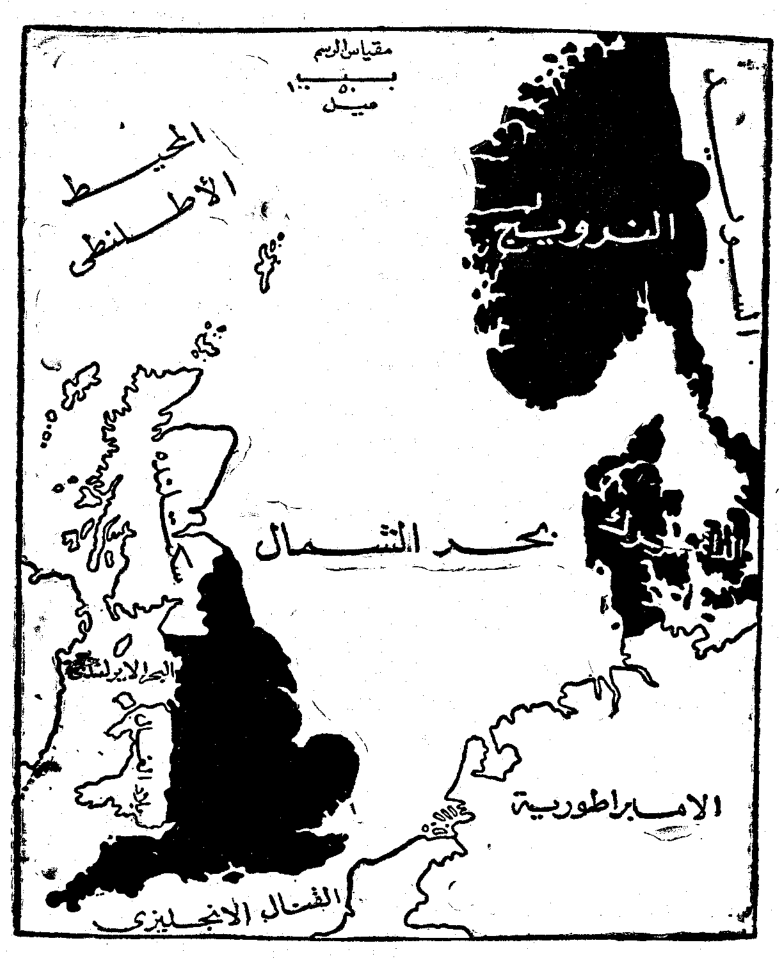
ومن الطريف أن موقع ايرلنده ــ اذا صدقنا ماذهب اليه تاكيتوس Tacitus كان أهم فى نظر الرومان من بريطانيا اذ قال : « لو غزيت ايرلنده فسوف تربط أقوى أجزاء الامبراطورية بفضل مزاياها العظيمة ، وموقعها فى مركز متوسط بين أسبانيا وبريطانيا .. الى جانب قربها من بحر الغالة ... فالتجار أكثر

الماما بمداخل ايرلنده وموانيها » ، ورغم ما قد يعوز هذا الكلام من دقة فان له دلالة جغرافية ، اذ أن شرق بريطانيا ـ ان لم يكن جنوبها ـ يواجه الجزء الشمالى من بلاد الغاله الاكثر تأخرا والعالم المتبربر أى غير الرومانى الذى يقع وراء الراين . فالرياح الجنوبية الغربية السائدة كانت تساعد فى الوصول الى ايرلنده الجنوبية والشرقية بتتبع سواحل البرتغال وأسبانيا وفرنسا ، أو عن طريق الرحلات البحرية القصيرة من بريتانى عن طريق كورنوول . وتدل الآثار على أن هذا الطريق أو شطرا منه على الاقل كان مطروقا لمدة تقرب من ألفى عام أو أكثر ، وذلك قبل قيام الامبراطورية الرومانية (أنظر شكل ٢١)

***

فقد ظلت بريطانيا زمنا طويلا تقع على أطراف أو عند حافة أوربا التى تلقت منها السكان واللغات والدين وبعض النظم السياسية على الاقل ، ولكن لم تفرض طبيعة بريطانيا وايرلنده الجزرية العزلة على أية حال ، كما أنها لم تؤد الى قيام الوحدة السياسية بينهما . ولم تكن بريطانيا فى أزمنة مختلفة متطرفة أو منعزلة حين كانت تمثل جزءا من وحدات سياسية أكبر ، ترتبط أجزاؤها بعضها بالبعض الآخر بالطرق البحرية التى كانت تعبر بحر الشمال أو القنال الانجليزى ، (أنظر شكلى ١٠ و ١١) كما ان طبيعة بريطانيا الجزرية لم تبعث فى السكان نزعة بحرية دفعة واحدة . فمن المبالغة أن نذهب الى ما ذهب اليه الكتاب الالمان من ان انجلترا ظلت بلدا يسكنه زراع يعيشون بمعزل عن البحر ، كما كانت تجارتها الخارجية كلها فى يد الاجانب وبخاصة جماعات الهنزا Hansards والبنادقة ، وان لم يخل هذا الرأى من النواحى الصائبة الكثيرة . فلم تكن طلائع البحارة فى العصور التاريخية على الاقل ، الذين يبدو أنهم قد ألفوا المياه المحلية الداخلية فى بحر الشمال والقنال وبحر ايرلنده ـ من البريطانيين ، ولكنهم كانوا أقواما أتت من شواطىء القارة ـ من الانجلو سكسون والفريزيين والفيكنج ، الذين وفد الواحد منهم أثر الآخر ..

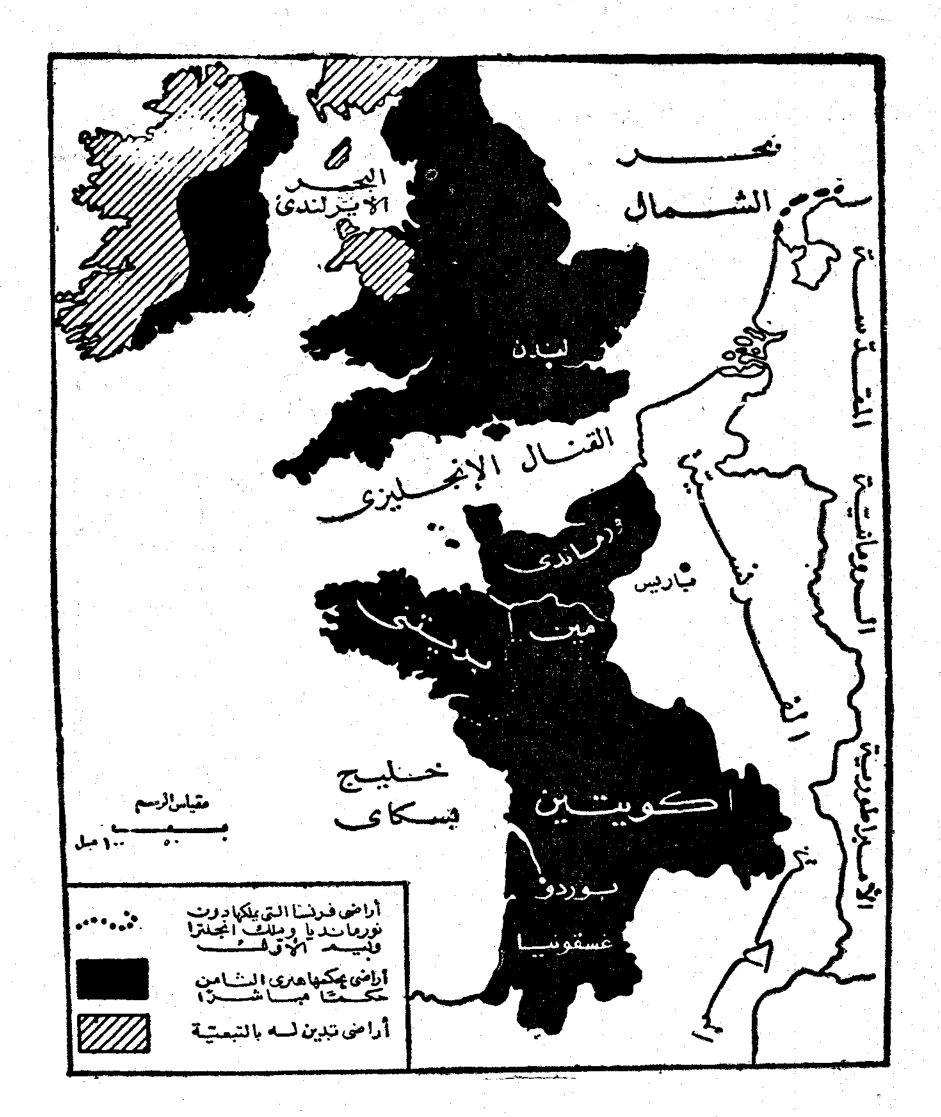
وقد أصبح ملوك انجلترا سادة القنال على الاقل أثناء شطر كبير من العصور الوسطى المتأخرة . كما كان صيادو السمك من الانجليز أثناء القرن الخامس عشر ـ أن لم يكن قبل ذلك ـ ينتقلون من بريستول الى أيسلند وكانت السفن الانجليزية تنقل التجارة لايرلندة وشبه جزيرة ايبريا وفرنسا وبلاد بحر البلطيق ، ولكن مع ذلك فان الانجليز كانوا متخلفين فى ميدان هذا النشاط عن البرتغاليين والاسبانيين أثناء العصر الاكبر للكشوف الجغرافية ، وان كانوا قد لعبوا دورهم أخيرا ، ولكن لم تصبح انجلترا دولة بحرية قوية الا بعد أن انتصرت على الارمادا سنة ١٥٨٨ ، اذ أصبحت على استعداد لاستغلال كل



شكل (١٠) مملكة كانوت من ١٠١٤ الى ١٠٣٥ ميلادية
(لاحظ علاقتها ببحر الشمال شبه المغلق)

ما تتيحه المسالك البحرية الجديدة فى المحيط من فرص

ولنتناول الآن مثلا يصور أهمية الموقع الجغرافى فى فجر التاريخ (أنظر شكل ٢١) . لا مراء فى أن كريت وجزائر سكلادس وطروادة Crete, Cyclades Troy Islands كانت المناطق التى ظهرت فيها الحضارة فى أول الامر على عتبة أوربا . فلو أن هذه الحضارة التى تتضمن الزراعة والرعى والكتابة وحياة المدن وصناعة المعادن والعمارة وغيرها من الفنون قد نبتت فى كريت من تلقاء نفسها ــ كما يرى البعض ــ لاصبح حقا من الصعب أن نعزو كثيرا من الاهمية



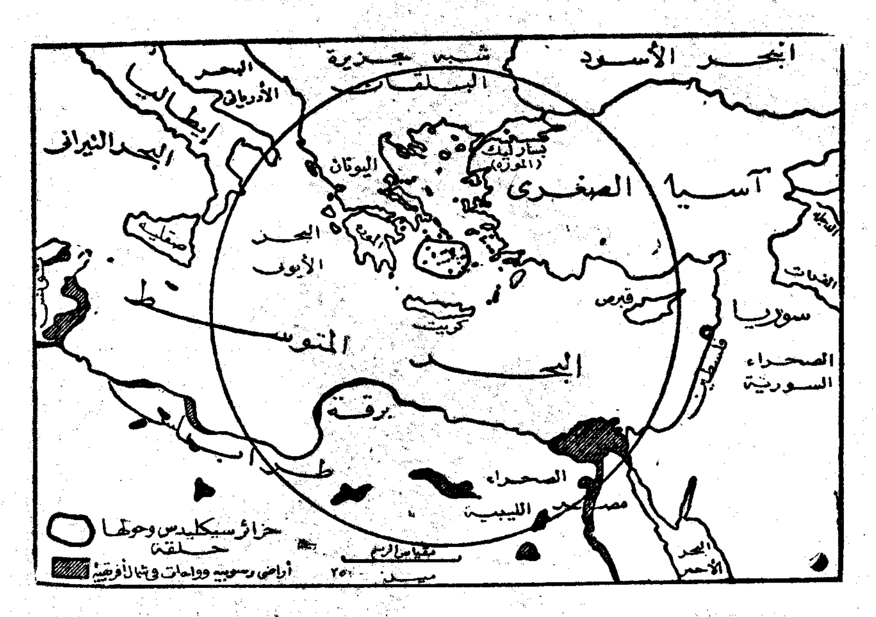
شكل (١١) مملكة هنرى الثانى فى أقصى اتساعها

(لاحظ علاقتها بالمسطحات المائية المحدودة فى البحر الايرلندى والقنال الانجليزى)

الى العوامل الجغرافية . فكما قال أحد الذين عرضوا حديثا لهذه النظرية وهو أ .ج توينبى A. J. Toynbee (أن كريت كبقية عالم بحر ايجه عارية من النبات مقفرة صخرية جبلية قد قطعها البحر المتغلغل فيها اربا) . وقد استطاع أن يفسر قيام حضارة بلاد بحر ايجـه فى وقت مبـكر ، على انهـا

استجابة سكان لظروف طبيعية على جانب كبير من الصعوبة ..

ولكن لا يعنينا هنا أن نبحث ما ينطوى عليه هذا التفسير من تقدير ما للعوامل الجغرافية من أهمية ، بيد أنه يجب أن نلاحظ أن كريت هى أكبر الجزائر الكثيرة الموجودة فى بحر ايجه وأكثرها غنى ، ولكننا لو أخذنا بالرأى



شكل (١٢) : موقع كريت وطروادة وجزائر سكليدس
(تبين الدائرة — ويبلغ قطرها خمسمائة ميل — ان مركزها فى كريت)

الاكثر شيوعا والذى لقى تأييدا من أحد الثقاة سير آرثر ايفنز Sir Arthur Evans ورجحنا أن كريت قد تلقت أول الحوافز من مصر ، فسيسترعى انتباهنا فورا أهمية عامل الموقع فى هذا الصدد ، اذ لا شك انه كان للحضارة التى ازدهرت وأينعت فى مصر وبلاد العراق (١) قبل ظهورها فى كريت تأثير فى الاراضى المجاورة ..

وهنالك أدلة على قيام علاقات تجارية فى وقت مبكر بين مصر وسوريا ، وبين مصر وجزيرة ناكسوس Naxos وهى احدى جزائر سكليدس Cyclades Group كما كان لبلاد العراق علاقة بسوريا وآسيا الصغرى ، حيث كانت تقوم مدينة برجامم Pergamum « طروادة » قريبا من شواطئها الشمالية الغربية ، كما أنه لو تذكرنا أن كريت — وهى قطعة من أوربا ولكنها

---

(١) انظر الفصل الثامن

منفصلة عنها ــ أقرب الى مصر من أى جزء آخر من أوربا وأن جزائر سكليدس Cyclades وغيرها من مجموعات الجزائر الاخرى كانت تمثل نقطا للوثوب بين آسيا الصغرى وكريت ، لاصبح هناك ما يدفعنا لان نستخلص أن موقع كريت وجزائر سكليدس الجغرافى كان عاملا له أهميته فى نشوء وتطور حضارة بحر ايجه

ولكن ما مر بكريت من أحداث بين سنة ٣٠٠٠ ، ١٩٠٠ ق . م يجلو لنا كيف أصاب التغير موقعها النسبى ، فعلى حين كانت فى أول الامر تقع على أطراف البلاد المتحضرة وهى مصر وسوريا وآسيا الصغرى ، أصبحت بعد ذلك ــ لما كان لها من قوة بحرية ونشاط تجارى ــ قطب الرحى فى حوض البحر المتوسط الشرقى (أنظر شكل ١٢) ، فامتدت صلاتها البحرية غربا الى صقلية وايطاليا الجنوبية ، وشرقا الى برجامم Pergamum وقبرص وسوريا ، وجنوبا بشرق الى مصر . ولكن فقدت كريت هذا الموقع المتوسط فى شرق البحر المتوسط ، اذ لم تلبث بلاد الاغريق أن انتزعته منها حين انتشرت الحضارة من كريت الى هذه البلاد الواقعة فى صلب اليابس الاوربى ، ولكن فقدت بلاد الاغريق بدورها هذا الموقع المتوسط فى ذلك البحر ، فانتزعته ايطاليا التى تبدو كأنما تحتل هذا الموقع بطبيعتها . ولكن موقع ايطاليا وصقلية قبل قيام الامبراطورية الرومانية كان متطرفا بالنسبة لاكثر البلاد المتمدينة فى ذلك العصر

***

وتعد صقلية أيضا مثلا جديرا بالعناية يبين كيف يؤدى حدوث تغيير فى الاهمية النسبية لمكان الى تغيير مجرى التاريخ (١) ، فقد كانت صقلية فى بادىء الامر تقع على هامش بلاد بحر ايجه المتحضرة ولكنها أصبحت ــ كما بقيت طويلا ــ تحتل مركزا متوسطا فى البحر المتوسط الذى قطع شوطا بعيدا فى سبيل الحضارة ، حتى فقد هذا البحر الداخلى موقعه المتوسط حين أخذت السفن تسلك الطرق البحرية الى الامريكتين والشرق الاقصى

وفى الختام يمكن أن نضرب مثلين آخرين لتوضيح الاهمية التاريخية التى ترتبط بفكرة الموقع الجغرافى . لماذا كانت البلاد المنخفضة الجنوبية أى بلجيكا الحديثة تخلو الى حد كبير من المدن ، كما كانت متخلفة نسبيا وهى تخضع لحكم الامبراطورية الرومانية ، على حين أصبحت فى القرون الاخيرة من العصور الوسطى أكثر جهات أوربا ازدحاما بالسكان ، واكتظاظا بالمدن وتقدما فى ميدان الصناعة ؟ لم يطرأ على موقعها النسبى فى العالم المعروف تغيير بين هذين

---

(١) انظر عن صقلية الفصل الرابع عشر Gordon East An Historical Geography of Europe

العهدين ، فقد كانت البلاد المنخفضة الجنوبية تواجه القنال الانجليزى ، وتقع على كثب من كل من بريطانيا وبلاد بحر البلطيق ، ولكن مع ذلك كانت هذه البلاد تقع أثناء قيام الامبراطورية الرومانية على أطرافها حين كان ينبض قلبها فى بلاد البحرالمتوسط ، وحين كان يمتد العالم غير الرومانى أو البربرى المتأخر نسبيا وراء نهر الرين ..

وقد امتد العمران وانتشرت الحضارة الى بلاد بحر البلطيق فى عصر متأخر على يد جماعات تنتمى الى شعوب بلاد الغال ، كما نشأت كثير من الموانى على سواحل بحر البلطيق ، فضلا عن أن بريطانيا أصبحت أكثر البلاد ازدحاما كما تضاعف انتاجها ، الى جانب أن تقدم فن الملاحة قد ربط الاراضى المنخفضة مباشرة عن طريق المحيط بمدن ايطاليا المزدهرة وبخاصة البندقية وجنوة . حقا ان أية اجابة شافية عن سؤالنا تتضمن اعتبارات أخرى كثيرة ، فاتخاذ الفرنجة الذين شيدوا امبراطورية قارية نائية عن البحر المتوسط .. منطقة الرين الادنى نقطة ارتكاز لهم من الناحية الجغرافية لا شك عامل له قيمته . ولكن الواضح ان موقع البلاد المنخفضة النسبى وسهولة الوصول اليها قد تحسن منذ العصور الرومانية ، ولذلك فان ما ينطوى عليه موقعها من مزايا للتقدم الصناعى والانتعاش التجارى التى كانت كامنة غير مستغلة من قبل أصبح من الممكن استغلالها حينئذ (١)

***

وأخيرا يمكن أن نلاحظ كيف ان نشأة احدى المدن الفرنسية الكبيرة (ليون) تعزى فى بعض نواحيها الى تغيرات طرأت على موقعها النسبى ، فلم يكن لهذه المدينة وجود فى بلاد الغال فى العهد الكلتى أى قبل الفتح الرومانى ، ولكن الرومان اختاروها عن قصد واتخذوها عاصمة لبلاد الغال ، ومركزا للطرق فى أنحاء البلاد . وهذه الحقيقة تدعو للدهشة أولا لان كثيرا من المدن فى بلاد الغال فى العهد الرومانى كمرسيليا وباريس وأورليان وبورج كانت قد نشأت قبل الغزو الرومانى ، وان كانت حينئذ فى صورة بدائية الى حد ما . وثانيا ان المكان الذى نشأت فيه ليون يبدو كأنما قد قيضته الطبيعة لان يتخذ موقعا لمدينة ، ومركزا لطرق المواصلات بفضل وقوعه عند ملتقى ثلاثة أنهار ملاحية هى الرون الاعلى والرون الادنى والساؤون ، بل انها لم تكن تقع عند ملتقى هذه الطرق الملاحية الثلاث التى يمتاز كل منها بظروفه الملاحية الخاصة فحسب ، ولكنها كانت تتحكم فى الطرق البرية التى تتبع وديان الرون والساؤون والتى تتجه شرقا لتصل الى ايطاليا مخترقة ممرات الالب الغربية

---

(١) انظر جوردون ايست الكتاب السابق صفحات ٣٣٠ — ٣٣٩ للاطلاع على دراسة مسهبة

كما ان عدم ظهور ليون كمدينة من مدن بلاد الغال قبل الغزو الرومانى انما يعزى الى موقعها النسبى فى ذلك الوقت ، اذ يبدو ان نهر الساؤون كان يمثل حـدا بين شعبين كلتيين همـا Allobroges, Aedui ، ولما كانت الحـروب مستعرة غالبا بين هذه الشعوب ، فلم يكن الموقع الذى قامت فيه مدينة ليون بعد ذلك صالحا لظهور مدينة تجارية ، فالتخوم التى تكون مثار احتكاك ليست خير بيئة ، يستطيع فيها مجتمع مدنى أن ينهض ويزدهر ، معتمدا فى ذلك على علاقات اقليمية واسعة

الفصل الثالث

المناخ والتاريخ

« ان امبراطورية المناخ هى أولى الامبراطوريات جميعا »
مونتسكييه ــ روح القوانين

يتناول عدد كبير من المؤلفات ، التى تتناقض تناقضا واضحا ، مشكلة المناخ فى الازمنة الغابرة ، ولن نجد مشقة فى العثور على دعاة يرون أن التغييرات المناخية كفيلة بتفسير ــ ولو تفسيرا جزئيا ــ نشأة الحضارات الاولى فى جهات معينة ، وهجرات الجماعات بل ونهوض الامبراطوريات وانهيارها ، فقد ذكر الزويرث هنتنجتن (١) (ان توافر المناخ الملائم شرط ضرورى لقيام حضارة متقدمة) ، كما ذهب أحد المتخصصين فى هذا الميدان وهو س.ا. بروكس (٢) الى انه (ربما كانت مواطن الحضارة الاولى تتمتع حينئذ بأكثر أنواع المناخ تنشيطا وادعاها للانتعاش فى نصف الكرة الشمالى) ، وعلى النقيض من ذلك يرى المؤرخ أ . ج توينبى (٣) انه (كلما كانت البيئة ذلولا كلما تضاءل الحافز على قيام الحضارة) . وسنتناول بالدراسة فى فصل تال أهمية هذه الآراء فى نشأة الحضارة فى مصر وبلاد العراق وشمال غرب الهند (٤) ، ولكن يمكن أن نذكر فى هذا الصدد اننا لم نهتد حتى الآن الى حل مرض للمشكلة التى تتناول الطريقة التى يؤثر بها المناخ على حياة الانسان ومظاهر نشاطه بطريق مباشر فى الوقت الحاضر ..

فمن الحقائق المألوفة ان اختلاف المناخ اختلافا اقليميا ليس مقصورا على التباين الافقى أى بين بقعة واحدة وأخرى تقعان على منسوب واحد ، بل يشمل كذلك الاختلاف الرأسى تبعا للارتفعات المختلفة . ولا يعنى الجغرافى بتوضيح أنواع المناخ الرئيسية التى تسود البقاع المختلفة فحسب ، بل يضع كذلك فى المقام الاول من العناية اختلافات المناخ المحلية داخل الاقليم المناخى الواحد ، حسب الارتفاعات والاتجاهات المختلفة وما الى ذلك . ولكن الى أى حد يمكن ان نقتفى أثر فلاسفة الاغريق ومونتسكييه الذين ذهبوا الى ان للمناخ تأثيرا مباشرا على تكوين الانسان الجسمى والعقلى والخلقى ؟

(١) Ellsworth Huntington (٢) C.E.P. Brooks (٣) A.J. Toynbee
(٤) انظر الفصل الثامن بعد ذلك

وقد زعم أحد الذين احسنوا عرض النظرية القائلة بأن للمناخ تأثيرا مباشرا على الانسان وعلى نواحى نشاطه التى تحفل بها سجلات تاريخه ـ ان بعض جهات معينة من العالم تتمتع الآن بنوع من المناخ يبعث فى الانسان القدرة على بذل أقصى مجهود جسمى وعقلى (١) ، فقد اعتبر أن وجود مدى حرارى فصلى معين ورطوبة نسبية معينة وتغيرات يومية فى الطقس خاصة ، تتضافر لتكوين نوع من المناخ يسمى مناخا « مثاليا » ، وهو الذى يسود غرب أوربا وجزءا كبيرا من الولايات المتحدة وبخاصة شمالها الغربى

ولكن اذا أخذنا بهذا الرأى فسوف نواجه طائفة من الصعوبات الخطيرة ، حتى لو وافقنا على ما ينجم عن حدوث فترات طويلة يسود فيها البرد القارص أو الحرارة المرتفعة ، وبخاصة اذا كانت مصحوبة برطوبة عالية ، من الآثار التى تصيب المجهود البشرى بالأضرار القاتلة . فاذا كان المناخ المثالى يوجد فى غرب أوربا وأمريكا الشمالية حقا ، فاننا سنواجه صعوبتين تاريخيتين على جانب كبير من الاهمية هما :

لماذا ظلت الشعوب الاوروبية التى كانت تعيش فى ظل ظروف مناخية، يغلب على الظن أنها لا تختلف بوجه عام عن الظروف التى تسود الآن ، أثناء المدة بين ٥٠٠٠ و ٣٠٠٠ ق.م ، من أكثر الشعوب التى كانت تعيش حينئذ تأخرا وتخلفا ؟

***

وكيف حدث أيضا أن الاوروبيين حين وصلوا الى أمريكا الشمالية والوسطى وجدوا سكانا من الهنود الحمر لم يتجاوزوا مرحلة الصيد بعد ، ولم يمارسوا الزراعة ، كما كانوا يجهلون استخدام الحديد ، ولا يملكون أى حيوان للحمل أو حيوان مستأنس عدا الكلب ؟

فاذا كان من الخطأ أن ننكر أن للمناخ تأثيرا مباشرا أو قويا على الانسان ، فاننا سنرتكب خطأ لايقل عن ذلك خطورة اذا زعمنا أنه يمكن أن ندلى فى ضوء معرفتنا الراهنة بآراء عامة موثوق بها فى هذا الموضوع الذى يتصل بمشاكل متشابكة ستكون موضع بحث فى المستقبل

ولكننا يمكن أن نتحدث ونحن أكثر ثقة عن الآثار غير المباشرة للمناخ على الانسان ، اذ يؤثر المناخ على الانسان بطريق غير مباشر وذلك بتأثيره فى النبات الطبيعى ، ومن ثم ينفذ هذا التأثير الى ظروف البيئة وامكانياتها الاقتصادية ، ولذلك فان المناخ يمثل الى جانب التربة والسطح أحد العوامل ـ وان كان يعتبر المناخ أهمها ـ التى تكيف طرق معيشة الانسان فى أية بقعة أو ما يسمى Modes de vie ، وهو تعبير مناسب يعنى به الجغرافيون من الفرنسيين

(١) انظر الزورث هنتنجتون فى كتابه « الحضارة والمناخ » Civilisation & Climate

(وسائلُ كسب الرزق) وهى أهم آصرة تربط الانسان ببيئته الطبيعية ، اذ توحى الظروف الطبيعية فى أية بقعة للانسان ــ وذلك داخل حدود تفاوتت مرونتها وأحكامها ــ باتباع طرق معينة لكسب الرزق وممارسة مظاهر خاصة للنشاط الاقتصادى ، ولنتناول مثلين واضحين :

ففى المناطق الواسعة المكشوفة من النطاق الافريقى الآسيوى من اقليم الاستبس الصحراوى يتعذر قيام الزراعة لجفافها الشديد ، ولكن انتشار حشائش المراعى فيها بين بقعة وأخرى ووجود عيون الماء أو الواحات فى بقاع متناثرة مما يوحى للانسان بل يكاد يملى عليه ان يتخذ من الرعى حرفة له . أما المثل الثانى فيقع فى منطقة أخرى فى خطوط العرض المعتدلة ــ اقليم البحر المتوسط مثلا ــ حيث تنمو مراعى الاراضى المنخفضة فى فصل الشتاء فحسب الى جانب المراعى المرتفعة التى تظهر فى فصل الصيف الحار فقط ، ففى مثل هذه المنطقة تكاد توحى الطبيعة للانسان بالانتقال وراء الحيوان انتقالا فصليا وهو ما عرف فى التاريخ باسم Transhumance أو النجعة (١) .. فالمناخ ــ ولنكرر ما قلناه ــ يمثل أهم العوامل الطبيعية التى تضع الحدود وترسم الطرق التى يتبعها الانسان لكسب رزقه ..

***

ويرجع ذلك الى ان النباتات جميعها لا يمكن ان تنمو الا فى ظل ظروف مناخية معينة فبعضها كالزيتون مثلا يستطيع ان يحتمل جفاف الصيف ، أما القمح فانه يحتاج الى فصل نمو معين خلو من الصقيع قد قصر ــ بفضل عناية الانسان فى استنباط النباتات ــ حتى بلغ تسعين يوما فحسب ، أما الارز والموالح فانها تحتاج الى قدر أكبر من الحرارة والرطوبة ، بل ان الحشائش التى يرعاها الحيوان لا تستطيع احتمال البرودة المتطرفة أو جفاف الصيف ، وقد أشرنا فيما سلف انه رغم ان الانسان لا يستطيع ان يغير المناخ الا انه يمكنه ان يفلت من قبضته وسيطرته الآسرة بطرق متعددة ــ فيلجأ للرى وأعمال الصرف واقامة مصدات الرياح واستنباط النباتات وتربيتها ..

وقد كان للمناخ تأثير دائم فى نشاط الانسان سواء كان هذا التأثير مصدر عون ضرورى له أو عاملا يتحداه ، فاختلافات المناخ الفصلية تعين الى حد كبير الاوقات التى يزاول فيها الزارع أعماله ، كما تحدد ظروف الحرارة والمطر المحلية نطاق انتاج الطعام والمواد الخام النباتية . كما أن توزيع النباتات الطبيعية يتفق أيضا وتوزيع نطاقات المناخ بوجه عام .. هذا الى أن الغابات بوجه خاص كانت فى العصور المتقدمة مناطق يتعذر اجتيازها ، مما كان يحدد حركات الانسان وتنقلاته

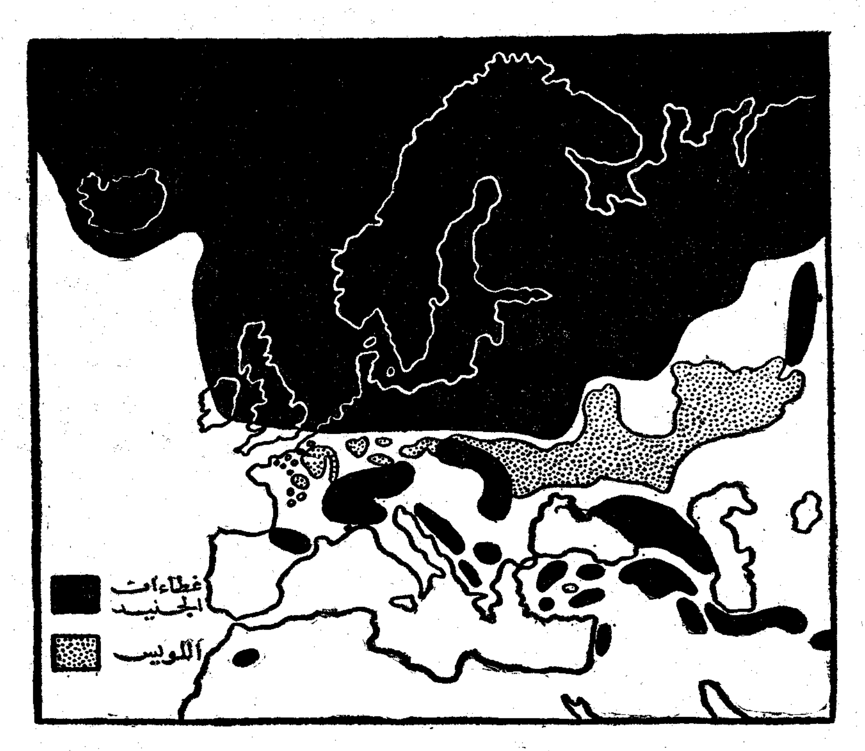
(١) انظر الفصل السابع

لقد أشرنا فيما سبق انه قد افترض حدوث تغيرات مناخية خلال التاريخ ، وهذه هى الناحية التى تعنينا الآن : هل يجب ان ننظم المناخ فى سلك العوامل الجغرافية المتغيرة ومن ثم يصبح من الخطأ أن نفترض ان أنواع المناخ الحالية كانت سائدة فى العصور الماضية ؟ وما هى الادلة التى يمكن ان تساق لتؤيد حدوث تغيرات مناخية فى الماضى ، وماهى طبيعة هذه التغيرات ؟ وهل يمكننا بعد أن نكون قد عرفنا هذه التغيرات ــ ان نربط بينها وبين فترات التاريخ وما قبل التاريخ ؟ وأخيرا هل لهذه التغيرات المناخية دلالة جغرافية أو أن أهميتها لا يعنى بها سوى عالم المناخ ؟ أو بعبارة أخرى هل حدثت هــذه التغيرات على نطاق من الاتساع بحيث تركت آثارا هامة فى النباتات الطبيعية ومبلغ صلاحية بقاع معينة للسكنى والعمران ، وبذلك يكون قد نجم عنها حدوث تغيرات فى رد فعل الانسان لها ؟

***

ليس هناك شيء جوهرى يدعونا لاستبعاد احتمال حدوث تغيرات مناخية أثناء عصور التاريخ كما يبدو من حقيقتين أولا : انه من المعروف ان التغيرات المناخية الكثيرة التى بلغت ذروتها فى العصر الجليدى الاخير ، قد حدثت أثناء العصور الجيولوجية السابقة . ثانيا : حدوث عدد من الذبذبات المنــاخية الدورية فى العصور الحديثة كما يدل على ذلك ماسجل من الارصاد الجوية . وتتفق حياة الانسان على سطح الارض التى يقدر طولها بـ ٥٠ ألف سنة مع الادوار الاخــيرة من العصر الجليدى الاخــير . ويقسم الجيولوجيون العصر الجليدى فى الزمن الرابع (أو الاخير) فى أوروبا وأمريكا الشمالية الى أربعة أدوار أو مراحل رئيسية ، اذ كان يعقب كل دور جليدى حين كانت الانهار الجليدية تمتد من اسكنديناوه جنوبا فى السهل الاوروبى الشــمالى (أنظر شكل ١٣) فترة طويلة تتخلل هذه الادوار يميل فيها المناخ للتحسن ، حتى قد يصبح الجو أكثر دفئا منه فى الوقت الحــالى والظروف ملائمة للحيــاة البشرية ..

وقد بدأ الدور الاخير من العصر الجليدى وهو الفرم Wurm منذ حوالى ٤٠ ألف سنة قبل الميلاد ، وظل سائدا فى السويد حتى حوالى ٦٥٠٠ قبل الميلاد ، ولكن عادت الانهار الجليدية تتقدم عدة مرات على نطاق ضيق فى الالف السادسة قبل الميلاد (٦٠٠٠ ــ ٥٠٠٠ قبل الميلاد) . ويرجع أقدم ماعثر عليه من الانواع البشرية التى كانت تختلف عن النوع المعروف بالانسان العاقل Homs Sapiens وهــو النــوع البشرى الذى لا يزال يعيش وحــــده حتى الآن ــ الى فترة الدفء التى سبقت دور الفرم على الاقل ، وقد أعقب اختفاء انهار الجليد بعد انقضاء دور الفرم عصور التاريخ الحديثة نسبيا وهى تقابل



شكل (١٣) : أوربا فى العصر الجليدى

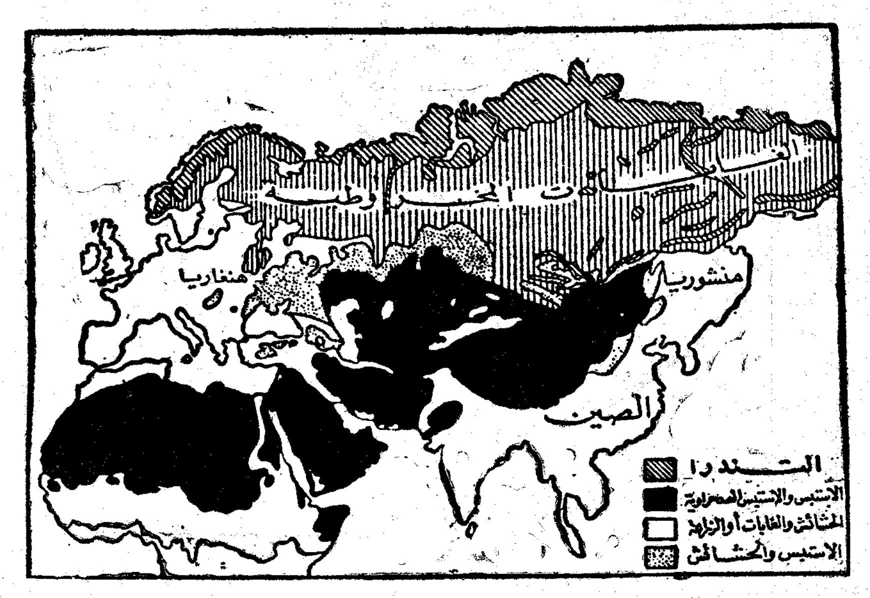
(لم تبين تكوينات اللويس فى حوض الدانوب ، أنظر شكل ٢٠ بعد ذلك)

فترة دفء أخرى نعيش فيها الآن . ولا نستطيع ان نتكهن بآلاف السنوات التى تنتظرنا قبل حدوث العصر الجليدى التالى ، ولكن احتمال حدوثه فى نهاية الامر لا يفتأ يذكرنا بأننا نعيش فى عالم يسوده مناخ متغير

وقد كان تنظيم نطاقات المناخ فى أوروبا أثناء آلاف السنوات التى انقضت بين ١٨٠٠٠ و ٨٠٠٠ قبل الميلاد حين كان الجليد يتراجع مختفيا من سهل أوروبا الشمالى — يختلف تماما عنه فى الوقت الحاضر ، فكانت منطقة الضغط المرتفع التى ترابط غالبا فوق المحيط المتجمد الشمالى الآن ، تمتد حينئذ بعيدا نحو الجنوب ، ولذلك كانت العواصف التى تهب من المحيط الاطلسى تنحرف جنوبا متنكبة مسالكها الحالية ، فتمر على البحر المتوسط وغرب آسيا فى طريقها نحو الشرق ، وكان لهذه العواصف المطرة تأثير واضح فى ارجاء الجزء الشمالى على الاقل من نطاق الصحراء والاستبس فى اليابس الافريقى الآسيوى ، (أنظر شكلى ١٤ و ١٥) ، فضلا عن امتداد تأثيرها أبعد من ذلك

نحو الشرق الى الجزيرة وبلوخستان ووادى نهر السند الادنى (١)

ولذلك كان هذا النطاق الذى يسوده الجفاف الآن يتلقى قدرا متوسطا من المطر الموزع توزيعا حسنا على مدار السنة ، وهكذا انتشرت فى هذا النطاق الحشائش أو بالاحرى السافانا التى تشبه ماينمو فى الاقليم الذى يقع عند الحافة الجنوبية للصحارى فى قارة أفريقيا ، وليس هناك ما يدعو الى الشك



شكل (١٤) خريطة عامة للنباتات فى العالم القديم

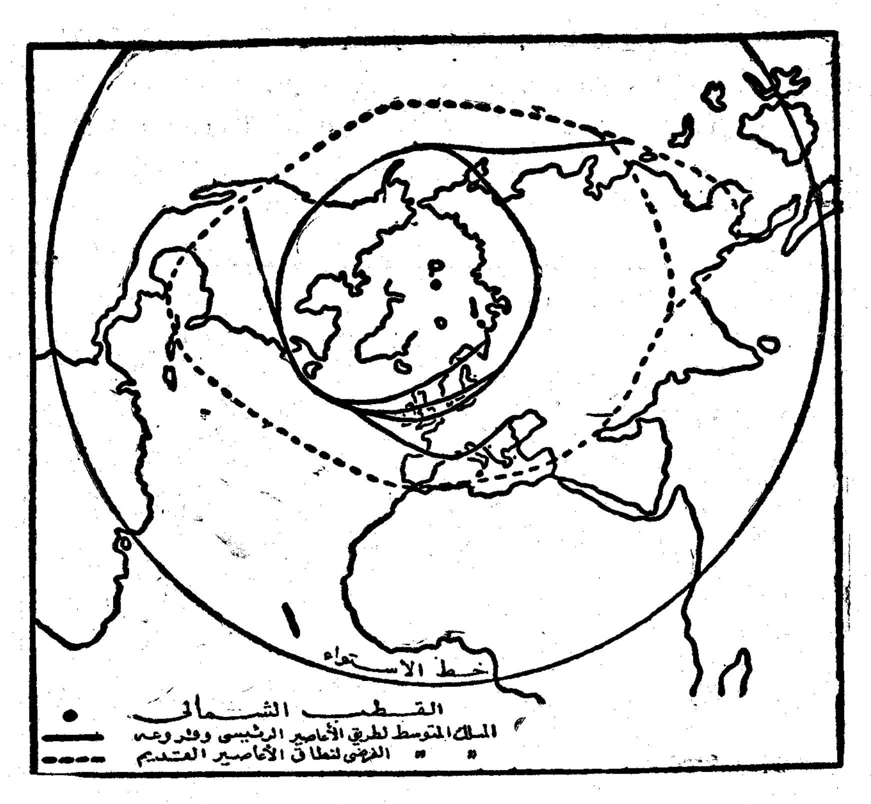
(لاحظ موقع نطاق الصحراء ــ الاستبس ،وكيف يفصل أوربا عن وسط أفريقية والاراضى الموسمية فى جنوب شرق آسيا)

فى حدوث هذه الظروف المناخية والنباتية السابقة لان ما عثر عليه من الآثار يؤيد ما استنتجه علماء المناخ ، اذ استطاع عالم الآثار ــ بعد ان عثر على رسوم الكهوف وعظام الحيوانات ــ أن يوضح كيف كانت منطقة الاستبس الافريقية الآسيوية مرتعا لفصائل متنوعة من الحيوانات التى لا تعيش الآن فى الجهات الجافة فى مناطق الحشائش ، كما استطاع ان يبين ان عددا من أنواع الاشجار كان ينمو فى هذه الجهات من قبل ، وانه من العبث أن نبحث عنها فى ظل ظروف المناخ السائدة الآن (٢) ، فضلا عن أنه لا يخالجنا شك فى أن ما ذهب اليه عالم الآثار ينطبق ــ ولو من بعض نواحيه على الاقل ــ على ما كان يسود أثناء الزمن الطويل الذى استغرقه تراجع الجليد فى المرة الاخيرة

---

(١) انظر الفصل الثامن

(٢) انظر الفصل الثامن



شكل (١٥) : مسالك الاعاصير القديمة والحالية (طبقـــا لهنتنجتن مع بعض التعديل)

هذا ويمكن أن نبين بايجاز تأثير هذه الظروف الجغرافية على ما كان يسود فى عصور ماقبل التاريخ فى النطاق الافريقى الآسيوى من اقليم الاستبس الصحراوى ، اذ كانت هناك جماعات تحترف الصيد قد بلغت دور العصر الحجرى القديم فى منطقة الحشائش أثناء العصر الرطب الذى سلفت الاشارة اليه ، وظلت وديان النيل والفرات والدجلة والسند التى أصبحت مهـدا للحضارات الاولى دون تعمير أثناء ذلك العصر ، فـكانت ملاذا تأوى اليه الحيوانات المتوحشة ، من الصعب اختراقها ، كما كانت منفرة للشعوب التى تمارس الصيد لما كان ينمو فى أرجائها من الادغال الكثيفة ، ولما انتشر بها من المستنقعات ولتربتها المشبعةبالرطوبة ـ تلك الشعوبالتى كانت تواجه صعوبة فى التنقل والحركة فى مناطق الحشائش التى تمثل بيئة صالحة لذلك

ثم طرأ على المناخ تغير على اثر تراجع الجليد من السويد الجنوبية والوسطى، فانتقلت نطاقات المناخ نحو الشمال الى مواقعها الحالية تقريبا ، وكانت هذه هى الظروف السائدة حوالى الالف سنة السادسة قبل الميلاد ، ولكن ما الآثار

الجغرافية والتاريخية التى ترتبت على هذا التغير البعيد المدى ؟ أولا — حدثت تغيرات تسترعى الانتباه فى غطاء النبات الطبيعى ، فتوغلت الاشجار من الانواع المخروطية والنفضية من جنوب شرق أوروبا وانتشرت على نطاق واسع فى جهات شاسعة من اليابس الاوروبى الذى شمل السهل الاوروبى الشمالى ونصف اسكنديناوة الجنوبى . ولم يترك تحسن المناخ تأثيرا واضحا على ثقافات الشعوب الاوروبية الجامدة ، التى ظلت أثناء الثلاث آلاف سنة التالية تعيش فى نفس مستوى حضارة العصر الحجرى القديم ، تمارس صيد البر والبحر وجمع الطعام ، بينما كانت تجهل الزراعة وصناعة الفخار والمعادن والفنون المدنية واستخدام الحيوانات المستأنسة ماعدا الكلب

وقد حرمت مناطق الحشائش فى أراضى اليابس الافريقى الآسيوى من أعاصير المحيط الاطلسى المطيرة حين انتقلت النطاقات المناخية شمالا ، فقاست هذه الجهات — نتيجة لذلك — جفافا تدريجيا وتغيرت ظروف البيئة مما انطوى على تحدى الانسان واستثارة همته فى هذه المناطق ، فحلت محل المراعى الغنية التى كانت تتناثر فيها الاشجار ، مناطق جافة تنتشر فيها الحشائش المبعثرة الفقيرة الجافة والواحات التى كانت تظهر بين الحين والحين ، فلجأت الحيوانات التى كانت تعيش فى مناطق الحشائش ازاء ظهور هذه الظروف الجديدة الى الهجرة على نطاق واسع ، فانتقلت من شمال افريقيا مثلا الى الجنوب ونحو الشمال فى قارة أوروبا ، ولم يكن تأثيرها على الانسان أقل أهمية ، اذ ربما يفسر هذا التغيير المناخى التحول الفجائى من نظام الاقتصاد البدائى الذى يقوم على الصيد الى نظام يقوم على انتاج الطعام وهو النظام الذى أتبعته شعوب المدنيات الاولى

***

وأكثر الآراء التى لاقت قبولا تتلخص فى أنه (١) : أتيح لسكان نطاق الصحراء والاستبس أن يتخيروا أحد أمور ثلاثة : فقد كانوا يستطيعون الهجرة بحثا وراء بيئة قد ألفوها اكثر ملائمة لحياتهم مقتفين اثر الحيوانات البرية التى كانوا يقتاتون منها ، كما كان يمكنهم ان لا يبرحوا موطنهم ومن ثم يصبح لزاما على كل الذين استطاعوا ان يحتملوا هذه الظروف القاسية منهم ان يغيروا طريقة معيشتهم ، وأخيرا كانوا يستطيعون أن يفكروا فى احتراف طريقة جديدة لكسب رزقهم بممارسة الزراعة وتربية الحيوان ، مما يمكنهم من الانصراف لاستغلال امكانيات وديان الانهار التى كان السكان غافلين عنها من قبل ، والواقع انه يبدو أن الجماعات المختلفة قد سلكت هذه الطرق جميعها ، وسنجتزىء

(١) انظر Gordon Childe فى كتابه The Most Ancient East ١٩٢٩ ، والفصل الثانى من كتابه « دراسة التاريخ » لمؤلفه و ا . ج . توينبى الجزء الاول ١٩٣٤ ص ٣٠٢ — ص ٣٠٥

بذكر نتيجتين تسترعيان الانتباه :

الاولى هى ظهور حضارة العصر الحجرى الحديث بين سكان القرى القائمة على أطراف وديان النيل والفرات والدجلة حيث مارسوا الزراعة واقتنوا الحيوانات المستأنسة وصنعوا الفخار وأبدوا براعة فى الفنون الاخرى ، وذلك لاول مرة حوالى ٥٠٠٠ قبل الميلاد (١) . أما النتيجة الثانية فقد تجلت فى ظهور حرفة الرعى كطريقة من طرق المعيشة فى نطاق الاستبس الصحراوى ونعنى بكلمة Nomadism (رعى الماشية) أو انتقال القطعان والانعام من بقعة لأخرى انتجاعا الكلأ القليل ، وهكذا يمكن أن نؤكد حدوث تغيرات مناخية من الممكن تقدير مدتها وقعت أثناء التاريخ البشرى ، وان كانت طبيعة هذه التغيرات التى نزعم حدوثها فى جهات معينة وفى أزمنة معينة لازالت مثار جدل كثير

وقد تباينت آراء الجغرافيين وعلماء الآثار والمؤرخين الذين لم تكن عنايتهم بهذه الامور بأقل من علماء المناخ ، عنى بها جميعهم ، ومن الواضح أن كثيرا من المشاكل نشأت نتيجة لمحاولة تقويم الادلة الجزئية المتناثرة التى استمدت من دراسات المختصين فى ميادين مختلفة للتوفيق بينها . وبذل بعض المختصين جهودا شاقة كلل بعضها بالنجاح ، ليثبتوا ان المناخ قد ظل دون أن يطرأ عليه تغيير منذ أقدم العصور التاريخية ، ولكن توخى البعض جانب الحيطة ، فقصر دراسته على محاولة اثبات أن المناخ قد ظل فى أساسه دون أن يصيبه تغيير فى زمن معين اذا قورنت ظروفه بالوقت الحالى ، ولكن يجب أن نذكر — فيما يتعلق بهذا الرأى الاخير — انه لايعنى عدم حدوث ذبذبات مناخية فى الفترة التى انقضت بين ذلك العصر الذى نعنيه وبين العصر الحاضر

وقد استطاع ج . و . جريجورى (٢) بعد أن قام بدراسة دقيقة للظروف المناخية التى يحتاج اليها نخيل البلح ، وتوزيعه فى الازمنة التى أشار اليها الانجيل والعصر الحاضر ، ان يبين ان متوسط الحرارة فى فلسطين لم يختلف فى هذين العصرين تقريبا ، ولكن دراسته لم تسفر عن استبعاد حدوث تغيير فى المطر . وعلى هذا النحو يمكن أن نتساءل هل كان نصيب الصحراء الكبرى وشمال افريقيا من الرطوبة فى الازمنة الرومانية أكثر منه الآن ؟ وهو سؤال كان موضع جدل كثير . فقد ذهب هنتنجتون الى أنه قد مرت فترة أكثر رطوبة من الوقت الحاضر بين ٢٠٠ قبل الميلاد و ٢٠٠ ميلادية ، وان المطر قد اخذ يتناقص تناقصا مضطردا أثناء القرنين التاليين حين أصاب الامبراطورية الرومانية الاضمحلال ، كما اقترح كذلك ان هذا التغير المناخى المزعوم بين ٢٠٠ و ٤٠٠ ميلادية كان من الاسباب التى ساعدت على حدوث اضطرابات فى النواحى

---

(١) انظر الفصل الثامن

(٢) J. W. Gregory

الزراعية والاجتماعية فى ايطاليا بل والتى أدت الى تداعى الامبراطورية الرومانية نفسها ..

ويجب أن نذكر أن بعض الاسانيد التى اعتمد عليها هذا الفرض قد فسرت تفسيرات متناقضة غير مقنعة أو قاطعة ، اذ لايمكن أن نطمئن دائما الى ان دمار المدن ، وهجر طرق القوافل ، واختفاء وانقراض الحيوانات التى ترتبط عادة بمناطق الحشائش الرطبة ، يدل على ان المطر قد هبط فى هذه الجهات شبه الجافة . فنحن نعرف مثلا أن الفيلة التى كانت منتشرة فى افريقيا الشمالية فى أول عصور التاريخ الرومانى ، لم تلبث أن اختفت تقريبا عقب سقوط روما مباشرة ، ولكن مع ذلك فانه يبدو أن انقراضها يعزى قبل كل شىء الى الرومان أنفسهم ، اذ كانوا يستخدمون عددا كبيرا منها فى الحروب ، فضلا على أن اختفاء المدن المزدهرة الذى يسترعى الانتباه مثل مدينة تمجاد Timgad فى تونس، وتدمر Palmyra فى سوريا الشرقية وكلاهما يقع الآن فى مناطق قاحلة ، انما يرجع الى حد ما الى عدم اقبال الانسان على مواصلة بذل الجهود الضرورية فى الكشف عن المياه وتوزيعها ، وهى شئون تفوق فيها الرومان بوجه خاص

***

ومن جهة أخرى فانه يمكن ان نجد فى ظروف المطر التى كانت سائدة فى كاليفورنيا والتى تتوافر لدينا الادلة عنها مثلا لما كان يسود اقليم البحر المتوسط كما يرى هنتنجتون ، لان كاليفورنيا الغربية يسودها الآن مناخ البحر المتوسط ، فلو صح هذا الزعم فقد تكون ظروف المطر فى شمال افريقيا قد طرأ عليها ماذكرناه من قبل فى الفترة بين ٢٠٠٠ قبل الميلاد و ٤٠٠ ميلادية

وقد اعتقد المؤرخ الفرنسى جزيل Gsell الذى توافر على دراسة شمال افريقيا باهتمام بالغ ، أن المناخ فى تلك الجهات اما لم يطرأ عليه تغيير البتة ، أو كانت رطوبته أكثر قليلا فى العصور الرومانية عنه فى الوقت الحاضر ، وصفوة القول أن الادلة تميل لترجيح ما انتهى اليه جزيل على غيره من الآراء ، فلو صح هذا فان من الخطأ ان نتلمس فى التغيرات المعاصرة فى المطر تفسيرا للمشاكل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية فى الامبراطورية الرومانية ، اذ يبدو واضحا ان الجفاف بين ٢٠٠ و ٤٠٠ ميلادية لم يبلغ حدا يكفى لاحداث آثار أو رد فعل واضح فى الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية فى روما

فبينما حاول البعض ان يسوق البراهين على ثبات المناخ واستقراره ، تمسك البعض الآخر برأى يقول ان بعض مناطق معينة قد أصابها جفاف تدريجى ، ولدينا ادلة واضحة كثيرة تؤيد هذا الرأى . فلا مجال للشك فى أن مايسقط من الامطار فى بعض جهات العالم الآن أقل مما كان يصيبها فى فترة مبكرة من التاريخ ، فالمناخ الحالى فى مصر وبلوخستان الجنوبية أكثر جفافا

مما كان عليه مثلا فى الالف سنة الثالثة قبل الميلاد (١)

ويشبه ذلك ما انتهت اليه دراسة دوجلاس (٢) الدقيقة عن أشجار sequoia (٣) فى كاليفورنيا التىأوضحتأنالمناخ هناك أصبح أكثر جفافا مماكان عليه فى القرن الاول الميلادى ، ويصدق هذا القول على البحر المتوسط الشرقى لو أخذنا بوجهة نظر هنتنجتون . فضلا عن انه من الممكن أن نذهب الى ان آسيا الوسطى أكثر جفافا فى الوقت الحاضر مما كانت عليه سنة ٥٠٠٠ قبل الميلاد مثلا ، والادلة على ذلك كثيرة جدا ، ولكن مشكوك فى صحتها

ومن ناحية اخرى فان القول بأن بعض الجهات قد أصبح الآن أكثر رطوبة مما كان عليه من قبل ليس أقل مثارا للشك ، اذ من الصعب أن نعتقد أن حضارة مايا Mayas التى استرعت الانتباه فى يوكاتان Yucatan فى امريكا الوسطى قد تمكنت من الازدهار — كما حدث لها فى الفترة بين ١٠٠ قبل الميلاد و ٣٥٠ ميلادية — فى ظل ظروف نباتية ومناخية تشبه مايسود تلك الجهات الآن ، اذ تقوم اطلال حضارة المايا شاخصة فى كثير من البقاع التى تسودها ظروف الحرارة والمطر وتنمو فيها الادغال التى تميز الجهات المدارية فى الوقت الحاضر ، وبذلك تنشأ فى أقل البيئات ملائمة من النواحى الصحية وأكثرها مشقة فى المنطقة كلها . واخيرا فان افتراض حدوث الجفاف المضطرد يتعارض مع الادلة المختلفة التى تشير الى وقوع تغيرات أو ذبذبات فى المطر طوال الازمنة التاريخية

***

ويجد الرأى القائل بأنه يجب أن نتخيل ان المناخ فى عصور التاريخ المختلفة قد تعرض لذبذبات ، فلم يكن مستقرا أو ثابتا كما أنهلم يطرأ عليهجفافمضطرد تدريجى — الادلة التى تؤيده ، لانتيجة لدراسة التغيرات الطويلة الامد فىالعصور الجيولوجية فحسب ، بل كذلك نتيجة لدراسة التغيرات القصيرة الاجل فى الوقتالحالى . وقد يكون ماعرف بالدورة الشمسية التى تستغرق احد عشر عاما والتى كشفت عنها دراسة ماسجل عن الاشعاع الشمسى كما يذهب هنتنجتون (يقابل الذبذبات التى تفوقها طولا والتى حدثت فى الماضى السحيق) اذ يتأثر الاشعاع الشمسى كل احد عشر عاما تقريبا بظهور عدد كبير من البقع الشمسية على سطح الشمس ، ولكن ليس من الواضح ماهية التغيرات التى تحدث حين تكثر البقع الشمسية ، وان كان من المؤكد ان الجزء الاكبر منسطح الارض يصبح أكثر برودة الى حد محدود ، فضلا عن كثرة حدوث العواصف وانحراف الاعاصير فى أوروبا وأمريكا الشمالية الى الشمال والجنوب عن

(١) انظر الفصل الثامن (٢) Douglas

(٣) أشجار مثمرة من نوع الكافور تظهر لهاحلقات متتالية من اللحاء كلعام تختلف فىشكلها ولونها باختلاف كمية المطر ، وكانت موضـــعدراسة فى كاليفورنيا (المترجم)

مسالكها المألوفة كما يرى هنتنجتون ..

وقد يؤدى ذلك بنا الى توقع انه اذا توافرت السجلات لازمنة طويلة كافية لاصبح من الممكن أن نكتشف حدوث دورات الكلف الشمسى فى فترات تمتد أكثر من احد عشر عاما ، ولو لقيت مزاعم هنتنجتون مايؤيدها ، لاصبح من الممكن ان نفسر تغيرات المناخ أثناء عصور التاريخ ، بالاختلافات فى بقع الكلف الشمسى — مهما كان سببها — تفسيرا جزئيا

وليس مما يدعو للدهشة ان تترك ذبذبات المناخ فى العصور التاريخية أكثر آثارها وتبدو أكثر أهمية فى الجهات الجافة وشبه الجافة حيث يفضى اختلاف يسير فى المطر الى نتائج يظهر أثرها على النبات الطبيعى ومن ثم على الحياة الحيوانية والانسان . وقد يكون من المفيد ان نشير باختصار الى أنواع الادلة التى لازالت قائمة حتى الآن فى هذه الجهات ، فالسواحل القديمة فى البحار الداخلية والبحيرات —وبخاصة بحر قزوين ، والبحر الاسود، ولوب نور فى آسيا الوسطى ، وبحيرة موريس فى مصر ، وبحيرة كونستانس فى سويسرا وعدد من بحيرات كاليفورنيا واريزونا — تدل على حدوث تغيرات فى مستوى المياه ، وبذلك فانها تمثل تغيرات مناخية يمكن غالبا تحديد أوقاتها ببعض التوكيد ..

***

وقد كانت بقايا جذوع الاشجار المعمرة المعروفة فى كاليفورنيا واريزونا باسم Sequoia موضع بحث ممحص أسفر عن عمل رسوم بيانية لتساقط المطر فى فترة من الزمن تعود بنا الى الوراء الفى عام بل ثلاثة آلاف ، لانه لامراء فى صحة الافتراض القائل بأن حلقات اللحاء السنوى التى تظهر فى بعض الاشجار فى الاقاليم الجافة ترتبط ارتباطا وثيقا بظروف المطر الذى يسقط فى السنوات القليلة السابقة لتكوينه ..

هذا الى أن ماحفظه الزمن من آثار وكتابات تبين كيف حدث فى الجهات الجافة وشبه الجافة ان نمت الحضارة واضمحلت ، وكيف هجرت المدن ، وطرق التجارة ، وكيف جفت الانهار والآبار ، وكيف اصاب الحيوانات والنباتات البرية التغير ، وأخيرا فان ما يقال عن حدوث ظروف مناخية شاذة من عواصف عنيفة وفيضانات ومن مواسم شاذة .. لايدل على وقوع تغيرات عادية فى الطقس بين عام وآخر فحسب ولكن فى صورة دورات طويلة من المناخ ذات مميزات واضحة أيضا

وقد ادعى كل من « بترسن » Petterson و «هنتنجتون» ان النصف الاول من القرن الرابع عشر يمدنا بمثل واضح جدا لعصر قد بلغ فيه شذوذ المناخ الذروة فى نصف الكرة الشمالى . فقد كان بحر الشمال وبحر البلطيق معرضين لهبوب العواصف بعنف شديد وقوة مدمرة ، كما غمرت مناطق السواحل فى انجلترا

وهولنده وفريزيا Frisia وجتلند Jutland عدة مرات ، فحدثت تغيرات فى الظروف الجغرافية الطبيعية والبشرية

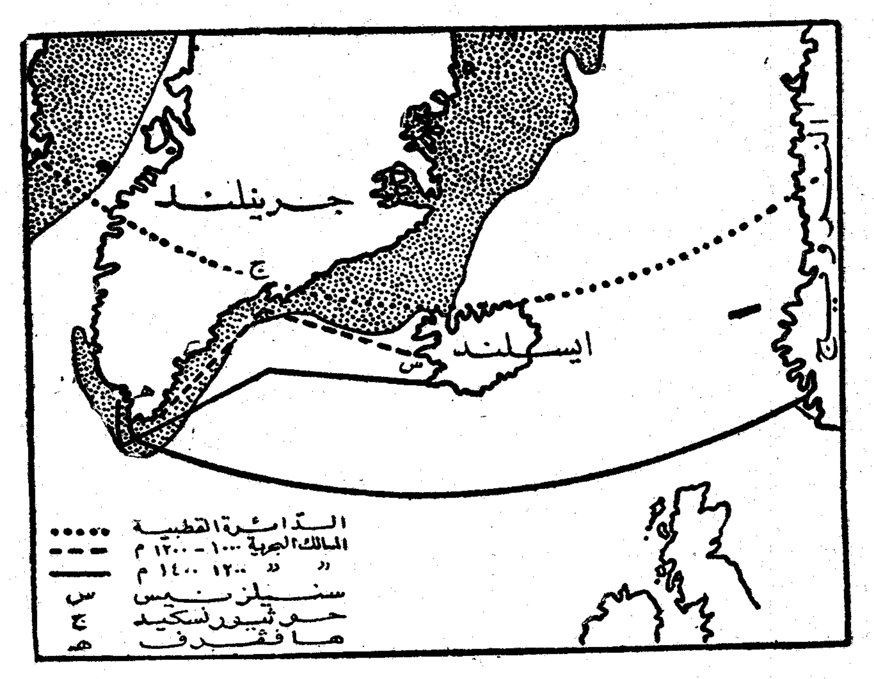
وقد اتخذت الجزائر الفريزية الواقعة على مقربة من سواحل هولندا شكلا جديدا فى ذلك الوقت ، كما اخذ بحر زويد رذى Zuiderzee شكله المألوف الآن وقد اكتسحت موجات المد القرى على سواحل هولدرنس Holderness ولنكولنشير Lincolnshire ورافنسر أود Ravenser Odd ، وتعد الاخيرة ميناء بحريا تقع بالقرب من نهر الهمبر فى انجلترا . وكان الشتاء حينئذ شديد البرودة غالبا فى أوروبا على حين كان الصيف يميل للبرودة والرطوبة فى أكثر الاحيان ، وكما كانت انهار أوروبا الكبرى التى تشمل التيمز والتى تتجمد لبضعة أسابيع بل لبضعة شهور متصلة عرضة للفياضانات الشاذة ، كانت تجف تماما أثناء الصيف لعدة سنوات . ويغلب الظن أن انهار الجليد قد امتدت فى ايسلنده فى النصف الاول فى ذلك القرن أكثر مما حدث لها منذ بدء التاريخ الميلادى ، وقد تأثرت جرينلند تأثرا سيئا ، كما أدى اخفاق المحصول فى النرويج الى زيادة اعتمادها على موارد الحبوب التى كانت تستمدها من السهل الالمانى ، وبذلك أفضت هذه التغيرات المناخية عن طريق آثارها الاقتصادية الى حدوث كثير من المتاعب السياسية التى ظهرت فى ذلك العصر . ومن المعروف أن (الرنجه) قد كفت حوالى سنة ١٤٣٠ ميلادية عن أن تذرع مياه بوغاز السوند Sound ، وهاجرت الى مضيق كاتجيت Kattegat لزيادة عذوبة المياه فى بوغاز السوند ، التى ترتبت على حدوث تغيرات فى حركة مياه المحيطات فى ذلك العصر ، واعترض الجليد المسالك الملاحية التى كانت تمتد فى عرض البحر بين النرويج وايسلندة وجرينلندة ، تلك المسالك التى كان يتبعها الفيكنج كثيرا فى رحلاتهم فى الفترة بين القرنين العاشر والثانى عشر . ولم يأت القرن الرابع عشر حتى كانت هذه المسالك قد اتجهت الى جنوب الطرق القديمة مضطرة (أنظر شكل ١٦)

***

ولم تكن هذه المظاهر الشاذة للمناخ مقصورة على أوروبا ، ففى كاليفورنيا غزر المطر عن العادة فى القرن الرابع عشر ، ويشبه ذلك ماحدث فى آسيا الوسطى كما يدل على ذلك مستوى المياه فى بحيرة لوب نور وبحر قزوين الذى يدل على سقوط المطر الغزير فى العقود الاولى من ذلك القرن على الاقل . أما فى الهند من ناحية أخرى فان الرياح الموسمية الجنوبية الغربية الممطرة كانت من الضعف بحيث قاست البلاد الجفاف والقحط نتيجة لذلك ، كما اختفى فى شمال غرب الهند أحد الانهار ــ وهو نهر مهران القوى الذى شارك نهر السند فترة طويلة فى حمل المياه من الهملايا وذلك حوالى سنة ١٣٥٠ م (انظر

شكل ٥٧) (١)

ويمكن أن نضيف الى ذلك أن هناك تفسيرا للتغير المناخى الذى حدث فى القرن الرابع عشر ، كما أن ماسجل من البقع الشمسية فى الصين يشير — رغم اننا نعترف أن قيمتها العلمية مشكوك فيها — الى أن عددها قد ازداد أثناء القرن الرابع عشر حتى بلغت الذروة حوالى سنة ١٣٧٢ م. أما بترسن الذى توافر على دراسة التغيرات فى وضع الشمس والقمر كل بالنسبة للآخر فقد ذهب الى أن القوة التى تنشأ من المد tide generating force قد انتقلت من أدناها حوالى سنة ٥٣٠ ميلادية الى قمتها سنة ١٤٣٤ ميلادية ، وطبقا لهذا الرأى الاخير فان زيادة التباين فى حركات المد فى القرن الرابع عشر قد ضاعف من حركة المياه فى المحيطات وأفضى الى زيادة نشاط الاعاصير



شكل (١٦) : مسالك الملاحة البحرية فى العصر الوسيط الى جرينلند

(طبقا لبترسن Petterson : المنطقة المنقطة تدل على مدى انتشار الجليد فى البحر عادة)

ويمكن أن نختم هذا العرض للتغيرات المناخية أثناء التاريخ بأن نسرد باختصار قصة سكنى الفيكنج الحافلة بالبطولة فى جرينلند الجنوبية ، اذ أنها

(١) انظر Sir John Marshall وغيره فى كتاب Mohenjo-Daro & the Indus Civilization سنة ١٩٣١ الجزء الاول صفحات ٥ — ٦

تعد مثلا جليا ليس من السهل دحضه أو رفض قبوله لحدوث تغير مناخي غير ملائم وتأثيره على سير التاريخ (١) ، ويجب أن نذكر أنه حتى حين كانت تتمتع جرينلند الجنوبية بمناخ ملائم نسبيا فى آخر القرن العاشر ، كانت تعتبر منطقة متطرفة من الناحية المناخية لقيام الحياة فى أوروبا المتحضرة التى تعتمد على انتاج الغذاء ، وقد أطلق هذا الاسم على هذه الجزيرة وتعنى الارض الخضراء على سبيل الدعاية ، اذ أطلقه أحد طريدى العدالة الذى هرب من أيسلند ويدعى ارك الاحمر Eric the Red لكى يجتذب المهاجرين اليها . ولكن استطاع مع ذلك عدد من المهاجرين من ايسلند أن يسكنوا الجهات الساحلية فى جرينلند الجنوبية فى أواخر القرن العاشر ، حيث تمكنوا أن يقيموا أودهم معتمدين بوجه خاص على رعى الماشية والاغنام فى الوديان وعند رؤوس الفيوردات وعلى طول حوافها حيث كانت تتوافر المراعى

وتدل مواقع المزارع القديمة على المدى الذى بلغته هذه الجهود الاستعمارية الجريئة ، وتقوم مقابر المستعمرين فى تربة تتجمد الآن طول العام ، وتحتوى على كتلة سميكة من جذور النبات الذى لابد أنه كان ينمو من قبل ، حين كانت الحرارة أقل تطرفا وقسوة عنها الآن . ويبدو جليا انه أثناء مراحل الاستعمار الاولى كانت حافة أنهار الجليد فى جرينلند تمتد الى الشمال أكثر مما هى عليه الآن ، كما كانت البحار التى تمتد بين ايسلند وشواطىء جرينلند الجنوبية طليقة

***

وقد أخذ المناخ يسوء منذ حوالى سنة ١٢٠٠ م بل أصبح أكثر قسوة فى القرن الرابع عشر ، وحينئذ أخذ هذا الاضمحلال البطىء الذى تعرضت له هذه المستعمرات يخطو بها سريعا نحو الانقراض الذى وقع فى القرن التالى . وقد انتقل الاسكيمو الذين كانوا يمارسون صيد سبع البحر بالقرب من حافة الجليد نحو الجنوب أثناء القرن الرابع عشر وهاجموا مستعمرات الفيكنج ، ويدل انتقالهم على هذا النحو الى الجنوب على انتشار الجليد فى هذا الاتجاه

ومن الواضح أن الفيكنج قاسوا من الآثار السيئة التى نجمت عن تزايد البرودة وما خلفته من آثار تضر بحياة النباتات الطبيعة ، مما قوض حرفة رعى الحيوان لديهم ، الى جانب تراخى ووهن العلاقات بينهم وبين ايسلند والنرويج التى كانت تربطهم بها رابطة السياسة . ومن الواضح أنهم كانوا عاجزين عن اتباع نظام يشبه نظام حياة الاسكيمو ، فرغم ثقافتهم المادية

---

(١) للحصول على دراسة مسهبة لهذا التعمير الذى اضطلع به هؤلاء الرواد وأخفاقه انظر كتاب Viking Settlers in Greenland تأليف Poul Norlund وترجمة W. F. Calvert سنة ١٩٣٦ ، وانظر فيما يتعلق بمشكلة تغير المناخ دراسة ممحصة قائمة على اسس وأسباب مذكورة فى المرجع نفسه صفحات ١٤٥ — ١٤٨

العالية لم يستطيعوا الذود عن حياتهم ، وتجلو لنا دراسة الهياكل العظمية لآخر من استطاع منهم البقاء قصتهم التى تستدر العطف والاسى ، فقد انحدر من نسل هؤلاء الرواد الشديدى المراس الاقوياء الشكيمة من الفيكنج « قوم أصابهم الركود يتألفون من أفراد قد استبد بهم السقم حتى أصبح جرمهم ضئيلا وشكلهم شائها »



الفصل الرابع

الطرق

« يمتد الطريق كأثر لا يمحى على أديم الارض ، وهو يلقى ببذور الحياة ...
المنازل والدساكر والقرى والمدائن »
(ب. فيدال دى لابلاش : مبادىء الجغرافيا البشرية ١٩٢٦)

يعنى بدراسة الطرق سواء البحرية أو المائية أو الجوية الجغرافى والمؤرخ على السواء ، فيعنى الاول منها انها تمثل طرق النقل المستخدمة الآن كما تبدو كمعالم قد تغلغلت فى البيئة ، فتفسيرها فى مقدمة مايعنيه . أما أهميتها للثانى فلأنها تمثل الوسائل الرئيسية التى تنتشر عن طريقها الجماعات والافكار ومظاهر النشاط فى التجارة والرحلة والحرب . ولسنا بحاجة الى أن نؤكد أن الطرق فى صورها المتباينة ــ مثل مسالك الصيادين وطريق الماشية ودرب البغال والطريق الذى يتبع حافة المرتفعات ، والطريق الذى يشيده المهندس فى عهد الرومان أو العصور الحديثة ــ قد لعب فى كل مكان طوال التاريخ دورا حيويا « كضرورة لاغناء للمجتمع المنظم عنها » (١)

وتعد السبل أو الطرق التى تحفل بها عصور التاريخ مثار كثير من المشاكل من وجهة نظر الجغرافيا .. الى أى مدى ــ هذا اذا صح القول ــ نستطيع أن نفترض وجود « طرق طبيعية » أى طرق اختارتها الطبيعة أو هيأتها ليستطيع الانسان أو الحيوان أن يسلكها ؟ هل هناك مايؤكد أن طرق الانسان الاولى كانت دروبا سلكتها الحيوانات المفترسة ؟ أو هل يجب علينا ــ على نقيض ذلك ــ أن نتصور الطرق كمظاهر قد صنعها الانسان وحده ورسمها أو خطها على أديم الارض ؟ وأخيرا هل كانت الطرق التى اتبعتها الناس قد حددتها ظروف الجغرافية الطبيعية وذلك بوجه عام ؟ أو هل شق الناس مسالكهم قسرا دون اعتبار لاى شىء (فى تكلف بحت) ؟

يبدو أننا على صواب اذا رأينا أن الطرق الطبيعية تمتد حيث توجد مناطق معينة من البلاد مكشوفة سهلة الاجتياز سواء بسبب طبيعة سطحها أو ظروفها النباتية والمناخية . مثل هذه الظروف التى تجعل الانتقال ميسورا تتوافر فى الجهات الخالية من الغابات الكثيفة والمستنقعات العميقة والعقبات الجبلية

---

(١) أنظر مقدمة The Road (١٩٣٤) تأليف Hillaire Belloc

وبخاصة فى أراضى الحشائش والاستبس ، كما أن الانهار رغم ماقد يمتاز به بعضها من خصائص معينة أو يعترضها من الصعوبات الطبيعية كجذوع الاشجار التى يحملها التيار وكتل الثلج وتغيرات المستوى والتيارات والجهات الضحلة والتجمد وتغير المجارى .. كانت غالبا تمثل لا سبلا فحسب وانما وسيلة متحركة للنقل كذلك ، وان كان ذلك مقصورا على هبوط مجرى النهر مع التيار ..

كما كانت البحار طرقا طبيعية بعد أن أتقن الانسان فن بناء السفن وفن الملاحة اتقانا كافيا ، فضلا على أن سهلا يغطيه الثلج كما فى روسيا يمد أمام الانسان طرقا لاعداد لها للانتقال مستقلا زلاقة ، رغم ظهور أراضى واسعة حين يذوب الثلج عند قدوم الربيع ، فتصبح مشبعة بالرطوبة مما يعيق النقل ، وأخيرا فلم تكن الثغرات التى تفصل بين المناطق الجبلية وما يتخللها من ممرات تمثل النقط التى لا يعترض الانسان مقاومة كبيرة أمامها فحسب ، ولكن كانت غالبا تمثل وحدها الطرق التى يمكن اتباعها قبل أن يعرف حفر الانفاق واستخدام الطائرات

***

وقد وفرت الطبيعة عن طريق الحيوانات والنباتات البرية فى البيئات الجغرافية المختلفة المواد التى استطاع الانسان أن يهتدى عن طريقها الى وسائل النقل التى تناسب الظروف المحلية الخاصة ، وقد حبت الطبيعة نطاق الاستبس والصحارى الشاسع فى العالم القديم (١) (أنظر شكل ١٤ و ٥٤) ـ حيث انتشرت حرفة الرعى جنبا الى جنب مع الزراعة فى الجهات الصالحة لذلك فى وقت مبكر ـ بالحيوانات الصالحة للاستئناس وبمساحات مستوية جافة مكشوفة ملائمة لاستخدام حيوانات الجر والحمل ، كما كانت العقبات الطبيعية التى تعترض النقل البرى كالغابات الكثيفة والجبال المرتفعة والمستنقعات قد بلغت أدناها فى هذا النطاق ، رغم انه كان يجب البحث عن وسيلة لاجتياز بقاع تغطيها الرمال الجرداء العميقة وسلاسل الجبال الالتوائية الحديثة كما فى وسط آسيا

وكثيرا ما شبهت الاراضى المكشوفة فى آسيا الوسطى ببحر عظيم ، وذلك لسهولة اجتيازها دون أن تفرض تغيير طرق النقل ، فأصبح كل من الجمل والحصان ـ وهما من حيوانات هذا الاقليم الاصلية ويمكن استئناسهما ـ « سفينة » الاول فى الصحراء والآخر فى الاستبس ، وقد زود كل منهما من الناحية الفسيولوجية بما يمكنه أن يجوب مناطق واسعة مستوية مكشوفة حيث يجد النبات الطبيعى والماء الضروريين لحياتهما منتشر فى نقط مبعثرة

---

(١) انظر الفصل الثامن

وقد حدث مايشبه ذلك فى جهات نائية أخرى من العالم تختلف ظروفها سطحها ومناخها ونباتها الطبيعى ، فاستأنست حيوانات أخرى من الحيوانات الاصلية فى هذه الجهات وروضت لتلائم ظروف البيئة ، وقد صادف ذلك قدرا متفاوتا من النجاح ، وهكذا كان الحمار فى مصر والعراق كما كان فى بلاد البحر المتوسط حيوانا مفيدا ، وان لم يكن يستطيع أن يحتمل برودة البلاد التى تقع الى الشمال من ذلك ، أما فى مرتفعات الانديز فى أمريكا الجنوبية فقد كانت اللاما llama وهى وحدها حيوان الحمل ، ولكن لم يستخدم سكان أمريكا الشمالية الاصليون أى حيوان للنقل لان الثور الوحشى والكاريبو لم يستأنسا قط

وقد أمكن ادخال حيوانات مفيدة فى جهات خارج الاوطان الاصلية لهذه الحيوانات ، بل ومختلفة عنها فى مناخها عن طريق اقلمتها أو انتخاب الصالح منها بالتربية ، وقد كان الحصان فى مقدمة الحيوانات التى أثبتت أنها تستطيع أن تعيش فى ظل أنواع مختلفة من المناخ ، كما أن البغل المهجن — وهو أكثر قوة من الحمار وأرسخ قدما من الحصان — قد أصبح أكثر حيوانات الحمل التى يمكن الاعتماد عليها فى النقل فى الجهات الوعرة الشديدة الانحدار ، اذ كان من الممكن أن يجد فى الجهات التى لايحتمل الحمار برودتها القارصة ظروفا ملائمة

***

ويحمل كثير من الابتكارات التى تسد حاجات النقل فى الجهات المختلفة بدرجات متفاوتة من التوفيق طابع البيئة أو ميسمها دون استثناء(١)، وينطبق هذا القول مثلا على كثير من أنواع السفن النهرية التى عرفت أثناء عصور التاريخ وما قبلها . فالزوارق والطوافات كانت تصنع من جلود الثيران التى ينفخ فيها وحزم الغاب وجذوع الاشجار المجوفة ، وجلود أسد البحر ، ولحاء أشجار الشربين ، وذلك تبعا لاختلاف مايتوافر من منتجات الحيوان أو النبات الطبيعى من مكان لآخر . ويصدق هذا القول أيضا على الكشوف الاخرى التى تعد أكثر أهمية مثل العجلة ، فقد اهتدى الانسان لهذا الاكتشاف العظيم — كما نتوقع على ضوء الاعتبارات الجغرافية — فى المناطق المنخفضة المستوية حيث تتوافر أكثر الظروف ملاءمة لاستخدامها فى الجر . فقد ثبت أن العجلة التى كانت تصنع فى أول الامر من الخشب — استخدمت فى أول العهد بها فى السهول النهرية فى مصر والجزيرة السفلى (٢)

وقد استخدمت العجلة أيضا فى أراضى الاستبس فى آسيا الوسطى ، حيث يغدو استخدامها ميسورا بفضل ظروف السطح الملائمة ، وقد أصبحت

(١) انظر Principles of Harvar Geography تأليف P. Vidal de la Blache ١٩٢٦ صفحة ٣٥١

(٢) انظر بعده الفصل الثامن

العربات الضخمة المغطاة التى تجرها الخيول كما هو الشأن فى تلك العربات التى كان يستخدمها الاسكيثيون Scythians والمغـــول بعـــد ذلك ــ من وسائل النقل التى امتازت بها الشعوب الرعوية فى آسيا الوسطى . فقد أتاحت الظروف الطبيعية لهذا النوع من أنواع النقل ، كما أتاحت لوسيلة أخرى أكثر سرعة ونعنى ركوب الخيـل فى مساحات شاسـعة ــ طرقا واسـعة ذات سطح صلب مستو يفوق كثيرا الطرق الكثيرة التى شقها الانسان فى أنحـاء الصين ــ الا حيث تنتشر الرمال العميقة والجبال المرتفعة . ومن هـــذا القبيل ماكتشفه الرومان من أن محراثا ذا عجل ثقيل اخترع فى سهول غالة الشمالية ، حيث كان يلائم ظروف السطح المحلية ــ لم يكن يصلح استخدامه فى الحقول الجبلية الصغيرة التى تميز بلاد البحر المتوسط

***

ولنحاول الآن أن نجد ردا لسؤالنا الاول : مامعنى وجود طرق طبيعية ، هذا اذا كانت هناك مثل هذه الطرق ؟ لقد رأينا فى بعض الاصقاع وبخاصة فى آسيا الوسطى أن الظروف الجغرافية قد أتاحت لنا أراض واسعة يمكن أن يتنقل الناس والسلع عبرها دون حاجة الى انشاء الطرق ، فضلا عن أنه يمكن أن نذهب الى أن الظروف الجغرافية ــ أى توزيع اليابس والماء ومظاهر السطح والانهار الملاحية والنبات الطبيعى ــ تحدد مسالك واسعة تمتد فى صورة نطاقات لانها أكثر صلاحية لاستخدامها فى الاتصال بين البيئات المنفصلة التى يسكنها الانسان ــ وان لم يكن من الضرورى أن تكون أقصر هذه الطرق . ولذلك فانه يمكن القول ان المسالك routes بهذا المعنى ، تمييزا لهـا عن الطرق ــ قد سبقت شق الناس لطرقهم الخاصة ، سواء أكان ذلك بتشييد الطرق أو بالوسيلة الاكثر شيوعا وهى ماتخلف من الآثار نتيجة للتردد بين أغراض معينة فى غدوهم ورواحهم

ومن بين الطرق التى «نمت» ، تمييزا لها عن تلك الطرق التى أنشأتها الفرق الرومانية أو المهندسون المحـدثون ، « الطرق الخضراء » المألوفة فى انجلترا أو مسالك انجلترا . وهى تمثل شبكة متصلة فى منخفضـاتنا ومناطق المرور moorlands (١) ، وهى مرتبطة من الناحية الجغرافية فى أغلب الاحيان بآثار سكنى الانسان فى عصور ماقبل التاريخ ، فقمم هضابنا الطباشيرية المموجة وحوافها الوعرة الانحدار تمثل أراضى ذات سطح صلب حسنة الصرف ، يمكن أن تمتد على طولهـا الآن مسالك لمسافات طويلة ، قد تـكون طرقا ثانوية أحيانا ، وقد لا تعدو أن تكون دروبا أو مسالك فحسب أحيانا اخرى ، ومن

---

(١) وهى بقع من الارض تترك لطبيعتهـا تنمو بها الحشائش الخشنة، وقد تنمو بعض حشائش تصلح للرعى فى بعض أنحائها ، قد يتخللها حفر تملؤها مستنقعات ، وهى غالبا مرتفعة ذات تربة سيئة الصرف غير مسامية ، وقد تترك فى جوار المدن للنزهة وتسمى Town Moor

الطريف وأن هذه المسالك التى تتبع المنخفضات، وتلك التى تسير متتبعة جروف أراضى المور Moorlands تبدو غير متأثرة بالقرى التى تمتد فى خطوط على طول السفوح السفلى لحواف الهضاب ومنحدراتها التى تنحدر فى اتجاه ميل طبقاتها. ومن الواضح انها أقدم من القرى فى نشأتها ، وانها ظهرت لتسد حاجة السكان الذين آثروا المرتفعات أكثر من الوديان مسرحا لنشاطهم

ومن المؤكد أن مسالك المناطق المنخفضة فى أراضينا تمثل شبكة مواصلات تسترعى الانتباه ، اذ تلتقى مسالك South Downs, North Downs فى Hampshire Downs ، ثم تمتد فى Salisbury Plains وتتجه من هذا الملتقى أو المركز متجهة نحو الجنوب الغربى عبر Dorset Downs لتصل الى البحر فى نقط ثلاث ، ثم صوب الشمال عن طريق Marlborough Downs, Wiltshire Norfolk هضبة Chilterns حيث يواصل أحدها امتداده ليصل الى شاطىء Norfolk عند Wash ، فضلا على أنه يمكن العثور على آثار عمران قديم موزعة على طول هذه المسالك مثل الحصون التى شيدت من التراب ، ومنازل السكنى التى تتبع خطوط الارتفاعات المتساوية contour camps ومقابر ما قبل التاريخ ومن الواضح أننا اذا استطعنا أن نهتدى الى الزمن الذى شيدت فيه المحلات التى نزل بها السكان والمقابر فى أول العهد بها — وقد ألقت دراسات الآثار على الطبيعة Field archeology على هذه الشئون ضوءا قويا — لامكننا قطعا أن نحدد مدى قدم هذه المسالك

***

والواقع أنه رغم وجود عدد كبير من أماكن الآثار لم تمتد اليها يد الحفر والتنقيب ، فانه من المحتمل أن هذه الحصون التى ألفنا رؤيتها فى البقاع المنخفضة أو محلات الاقامة أو المعسكرات Camps ، قد تم تشييدها فى باكورة عصر الحديد أو حوالى ٥٠٠ ق. م ، بيد أنه من الممكن أن يكون السكان قد أقاموا ولو فى بعض أجزائها فقط فى العصر الحجرى الحديث حين كانوا يمارسون تربية الحيوان كما حدث فى ميدن كاستل Maiden Castle حوالى الالف سنة الثانية قبل الميلاد (١) . وهناك من الاسباب مايحملنا على الاعتقاد بأن بعض المسالك — فى الجهات المنخفضة على الاقل — ليست أقل قدما ، لان الادلة التى استمدت من المقابر barrows والدوائر التى تتألف من الاحجار stone circles وأماكن الحفر ومحاجر الظران تشير الى أن المنخفضات ظلت عامرة منذ العصر الحجرى الحديث حتى الآن أى منذ حوالى ٢٠٠٠ ق.م. ولذلك قد يبدو أنه من المرجح أن طريق الحج Pilgrims Way عبر North Downs وطريق اكنيلد Icknield Way (انظر شكل ٣١) كانت مطروقة ومستخدمة فى عصر البرونز ، بل ربما فى

(١) انظر الفصل الخامس بعد ذلك

العصر الحجرى الحديث ، رغم أن هذه الطرق كما تبدو فى شكلها القائم تتألف من أجزاء قد شيدت أو أعيد تشييدها فى كثير من العهود التالية

وقد كان طريق بلجرمزواى Pilgrim's Way يمتد من موانى كنت صوب الغرب الى سهول سالزبرى Salisbury ، وربما كان متصلا بالطرق القديمة التى كانت تفضى الى كورنوال Cornwall فى الغرب اذ كانت على جانب من الاهمية فى العصر السابق للتاريخ كمصدر للقصدير . أما طريق اكنيلد فقد كان يمتد من واش Wash وهو أحد المنافذ الرئيسية لشرق انجلترا ــ متتبعا الحافة الطباشيرية ومتجها نحو الجنوب الغربى عن طريق شيلترن ، Chilterns ثم عبر التيمز الاعلى ليصل الى ايفبرى Avebury التى كانت ملتقى مسالك كثيرة فى الجهات المنخفضة . ولهذا الطريق أهمية خاصة أخرى كمثل يوضح كيف تصبح الطرق القديمة عوامل جغرافية ذات أثر دائم وكيف تؤثر على سير أحداث التاريخ

ومن المرجح أن السكسون الغربيين West Saxons التى كانت مناطق سكناهم فى حوض همبشير Hampshire Basin بمثابة نواة نمت حولها مملكة وسكس Wessex قد دخلوا انجلترا بطريق واش Wash ، واتجهوا نحو الجنوب الغربى متتبعين طريق ايكنيلد Icknield Way فضلا على أن وجود هذا الطريق وهو ايكنلدواى يساعد على تفسير اختيار مواقع معينة لعدد من المدن (أنظر شكل ٣١)

ولكن ما منشأ هذه المسالك القديمة ؟ ليس من نافلة القول فى هذا الصدد أن نذكر أن هذه المسالك ظهرت فى اصقاع تتيح للدخلاء فى عصر ما قبل التاريخ أكثر الظروف ملاءمة لكسب العيش دون نصب أو مشقة كما توفر طرق الاتصال الميسور بينهم ــ وذلك بفضل مايغطيها من نبات طبيعى وتربتها السفلية المسامية ونظام الصرف الطبيعى بها . وقد كان ينمو فى الجهات المنخفضة ــ وذلك اذا استثنينا الجهات التى يغطى الصلصال والطين الذى يصنع منه الاجر صخور الطباشير ــ غطاء نباتى من الحشائش التى تتخللها أشجار الزان والديش ash ، لانه قد تبين عدم صلاحية التربات ذات السمك الرقيق والتربات السفلية المسامية لنمو الاشجار والنباتات القصيرة الكثيفة التى تحلق فوقها أشجار الغابات

وقد كانت هذه الجهات المنخفضة ــ مثلها فى ذلك مثل البقاع التى تغطيها الرمال والحصى ومدرجات الانهار التى يغطى الحصى قيعانها ــ جذابة ، لان أراضى المستنقعات والاراضى الصلصالية التى تغطيها النباتات كانت منفرة بالنسبة لاناس تعوزهم الوسائل الفعالة للقيام بالاعمال الشاقة التى يقتضيها تطهير الغابات وتجفيف المستنقعات ، ومن ثم يصبح

من الواضح أن نتبين فى ضوء دراسة خرائط توزيع حضارات ماقبل التاريخ(١) الاسباب التى حدت بالسكان أن يؤثروا الاقامة المتصلة فى الاراضى المنخفضة التى يمكن الوصول اليها مباشرة من البحر فى دورست Dorset وسسكس Sussex وكنت Kent حيث وجدوا هناك المراعى لقطعانهم من الاغنام والماشية ، وحيث تتوافر الظروف الملائمة للزراعة البدائية . ولكن هل كانت هذه المسالك أو الدروب تدين للانسان بتوضيح معالمها ، أو كانت قد أصبحت واضحة للعيان من قبل لما تركته الحيوانات المفترسة فى تجوالها فيها من آثار ؟

لقد تناول بالعرض المستفيض ، الرأى القائل بأن هذه المسالك التى طرقها الانسان لاول مرة فى أوروبا وأمريكا الشمالية ، كانت تمثل الدروب التى صنعتها الحيوانات المتوحشة أثناء تنقلاتها بحثا وراء الماء والكلأ — نفر من الكتاب من بينهم Thorold Rogers ، فقد وصفوا كيف حدث فى انجلترا مثلا أن الحيوانات ذات الحافر قد حددت فى بادىء الامر الدروب التى تمتد من قمم التلال الى موارد المياه أو المخاضات ، وكيف أرشدت آثار الجاموس المزعومة فى برارى أمريكا الشمالية الى الدروب التى استخدمها الهنود الحمر وطلائع الامريكيين بل ومهندسو السكك الحديدية ، الفريق بعد الآخر ، ولم يعز بعض الرحالة الاوائل الى الجاموس bison بوجه خاص فطنة عظيمة فحسب مما مكنه من الاهتداء الى مواضع المخاضات وأكثر الوديان سهولة وأقلها انحدارا ، بل عادات التنقل والهجرة تسترعى الانتباه أيضا

***

والواقع أن ما دار من مساجلات ونقاش قد ألقى ظلالا من الشك على صحة النظرية التى تذهب الى أن الطرق الرئيسية التى سلكها الانسان قد نشأت كدروب من صنع أقدام حوافر الحيوان ، ومن المعروف أن الحيوانات فى الاراضى المستوية المكشوفة تنتشر فى كل قطر وكل اتجاه ، ولا تسلك مسالك محدودة ، ففى البرتا Alberta التى اختفى منها الجاموس حوالى ١٨٨٢ ، لم يعثر على آثار للدروب التى تعزى عادة اليه ، وليس هنا مايبعث على الظن أن الانسان قد طمس معالمها (٢) . كما أن الكثير من الحيوانات ان لم تكن جميعها من الانواع المفترسة التى يتيح لها حجمها أن تترك دروبا يمكن الافادة منها على أديم الارض — تتقن السباحة مما لم يكن يدعوها للبحث عن مخاضات الانهار . فالجاموس يجيد السباحة دون ريب ، بل ان الماشية المستأنسة كما

---

(١) انظر كتاب شخصية بريطانيا The Personality of Britain لمؤلفه Cyril Fox نشرة متحف ويلز National Museum of Wales كاردف (الطبعة الثالثة) ١٩٣٨

(٢) انظر فى هذه المشكلة كتاب
The Wild Animal Path Origin of Ancient Roads. F. G. Rol
ومجلة Antiquity الجزء الثالث (١٩٢٩) صفحات ٢٩٩ — ٣١١

قيل ــ كانت قد ألفت أن تسبح عبر مضيق منـــاى من جزيرة انجلس كما قيل فى معرض الجدل لتفنيد ذلك الرأى ، أن ماذكر عن هجرات الجاموس لاتعنى أكثر من بحثها عن مأوى لها فى الغابات والادغال فى الاوقات التى تشتد فيها قسوة فصل الشتاء ، هذا فضلا عن أنه يقال أن الجاموس كان فى الواقع من أكثر حيوانات العالم قاطبة جنوحا للشرود والضرب على غير هدى ، فلا يصلح للاعتماد عليه فى الهداية . .

ولكن مما يخالف هذا الرأى ماذكره أحد الكتاب المحدثين اذ يقول : « ان القطعان كانت تنتقل ببطء فى هجرتها ، فلم يتسع مجال تنقلاتها كثيرا ، وانما كانت حركاتها تسير على وتيرة واحدة مطردة دون تغيير ، ولما كانت على جانب كبير من قوة البأس وشدة الاحتمال فقد استطاعت أن تحتمل عواصف البرد القاسية دون عناء ، تلك العواصف التى تودى بالماشية المستأنسة ، وكانت هذه القطعان ذاتها ــ حين كانت أكثر تقاربا واحتشادا فى الشتاء ــ تسير على جانب منصرف الرياح فى الجبال سالكة نفس المسالك ، تنتجع الكلأ متنقلة بين المراعى ، حتى تعبد بفضل ماتتركه حوافرها من آثار مسالك كبرى لهجراتها المعتادة (١)

وأيا كان الرأى الصائب فى هذا الصدد أى بشأن الآثار المزعومة للجاموس وعلاقتها بتطور المسالك فى أمريكا الشمالية ، فانه من الصعب أن نصدق الرأى القائل بأن أقدم المسالك أو الدروب فى انجلترا قد تركت الماشـــية آثارها ، فلو تصورنا أن المســـالك فى أراضينا المنخفضة انمـــا هى دروب الماشية ، فانه يجدر أن نصف كثيرا منها أنها « لاتربط بين أية بقعة وبقعة أخرى » ، ولكننا اذا اعتبرناها من ناحية أخرى من صنع الانسان ، يبـــدو أنه يمكن تفسيرها تفسيرا منطقيا معقولا لانها مرتبطة بمناطق السكنى قبل التاريخ اذ كانت تصل بينها ، كما كانت تنتهى غالبا بنقط ملائمة لرسو السفن على طول شواطئنا

ومن الامور التى تسترعى الانتباه كيف تنتشر فى أرجاء انجلترا الآن شبكة متباينة من الطرق نسج الزمن خيوطها أثناء التاريخ الطويل ، وهذه الشبكة من الطرق يمكن تحليلها لعناصرها التى يمكن تمييزها وتحديد تاريخها (٢) شأنها فى ذلك شأن نطاقات الصخور التى تبدو على سطح الارض ، فلكل مرحلة كبرى من مراحل التاريخ بانجلترا وعصر ما قبل التاريخ فيها مسالكها الخاصة بها ، وهى اما مدت تبعا لتصميم أو خطة مدروسة أو تمت لتخدم

---

(١) انظر C. Daryll Forde, habitat, Economy & Society (١٩٣٤) صفحة ٥٦

(٢) انظر كتاب History in the Open Air تأليف H. J. Randall (١٩٣٦) الفصل الثانى لارشادخبير بطرق انجلترا فيما قبل التاريخ

حاجات كل عصر ، وقد ورثت كل حقبة شبكة من المسالك لتضيفها الى شبكتها الخاصة .

وقد ذهبنا من قبل الى أن بعض المسالك فى أراضى المور Moorland والأراضى المنخفضة فى بلادنا والتى تمتد على طول الحوافى وجوانب التلال ، وقد اتضحت معالمها لأن جماعات ماقبل التاريخ كانت تسلكها ، اذ وجدت فى الجهات المكشوفة فى هذه المرتفعات مجالا لسكناها ، قبل أن تنشأ مدننا وقرانا الحالية بزمن طويل ، وقد زودت بريطانيا الجنوبية أثناء القرون القليلة الاولى بعد الميلاد بشبكة من الطرق الرئيسية لأول مرة ، وكانت كلها تتجه نحو لندن التى كانت قد نشأت حديثا ، وظلت هذه الطرق الرومانية التى تنم عن براعة هندسية فائقة واضحة على سطح الأرض ، كما ظلت مستخدمة زمنا طويلا .

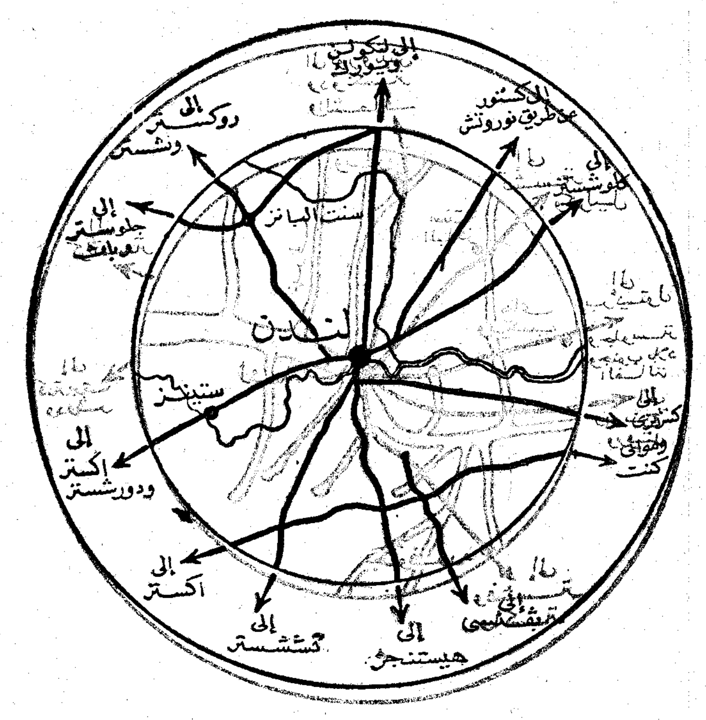
ويمكن أن نعزو انشاء بعض الطرق الكبيرة الملتوية التى تنتشر فى أرجاء الريف ، الى أجدادنا من الانجلو سكسون والاسكندينافيين الذين استخدموا الطرق التى كانت قائمة قبلهم أثناء استيطانهم لهذه الأصقاع . وتربط هذه الطرق التى « تتلوى وتتعرج » الحقول والمزارع والقرى ومدن الأسواق بعضها بالبعض الآخر . ولو أن هؤلاء الاقوام لم يسجلوا الا لماما مسالكهم المحلية ، فاننا نعرف أنهم أقبلوا كثيرا على سكنى الجهات المنخفضة ووديان الأنهار التى كان الناس يعرضون عن سكناها من قبل الى حد كبير .

وقد كان الصنف من الطرق الذى استخدموه فى حياتهم اليومية على أوسع نطاق ليس الطريق الحربى الرئيسى الذى خلفه الرومان ، ولكن المسالك المحلية الضيقة ، كتلك التى عناها G. K. Chesterton حين كتب يقول « ان السكير الانجليزي الذي يقذف بنفسه ليتعرج هو الذى أنشأ الطريق الانجليزى الذى يذهب هابطا صاعدا » . كما انه فى أوائل القرن الرابع عشر ، كما يبدو من خريطة ترجع الى ذلك العهد Gough map كانت شبكة المسالك التى كانت تتفق فى بعض نواحيها مع اتجاهات الطرق الرومانية ، تتضمن كذلك امتدادات جديدة ترتبط بحاجات العصر (١) .

ولذلك فرغم أن لندن ظلت تمثل بوضوح المركز الرئيسى للمسالك (انظر أشكال ١٧ و ١٨ و ١٩) فقد كانت هناك طرق مستقلة عن لندن ، مثل ذلك الطريق الذى كان يربط نورثامبتون Northampton بسوثامبتون Southampton مارا باكسفورد . ويمكن أن نواصل هذا العرض المختصر لشبكات الطرق

---

(١) انظر The Road System of Medieval England تأليف F. M. Stenton الجزء السابع (١٩٣٦) من Economic History Review صفحات [illegible]

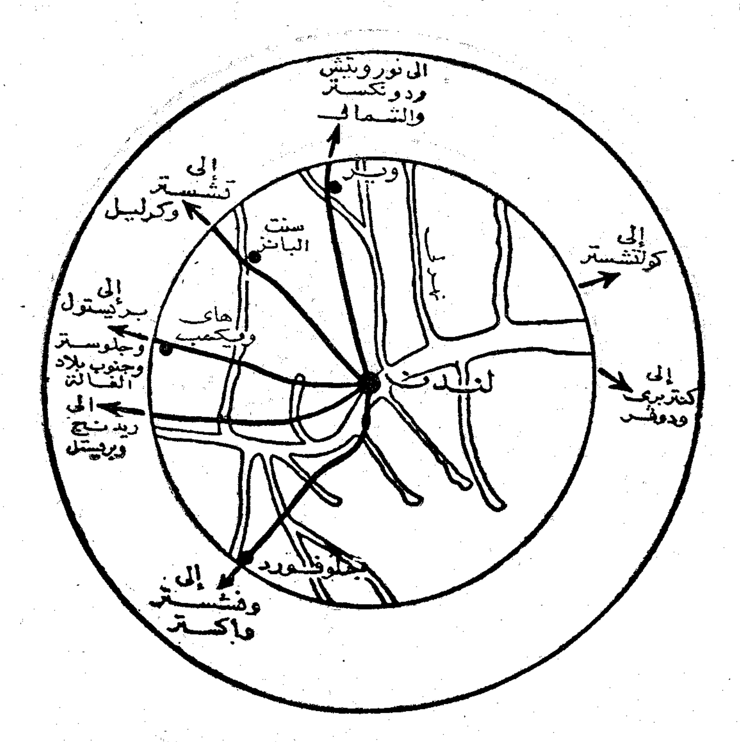


شكل (١٧) لندن ملتقى الطرق فى العهد الرومانى

فى كل عصر» بدراسة نظام الطرق فى القرن السابع عشر كما تظهر فى خريطة John Ogilby فى كتابه Britannia سنة ١٦٧٥ ، والطرق البرية والسكك الحديدية التى شيدها المهندسون فى القرن التاسع عشر وأخيرا طرق السيارات الحالية ، ولسنا بحاجة إلى أن نؤكد أن معرفتنا بالمسالك التى توجد فى عصور معينة لها أهميتها التاريخية ، وذلك فيما يتصل بمشاكل النقل والرحلة والتجارة والحرب.

وسنلقى على سبيل الايضاح الظروف الطبيعية التى تكتنف المسالك فى حالتين معينتين : وسوف نتناول : أولا المسالك الطبيعية التى تغلغلت الحياة المتحضرة عن طريقها فى أوربا القارية ، وثانيا بعض المسالك التاريخية فى انجلترا وفى ويلز بوجه خاص.

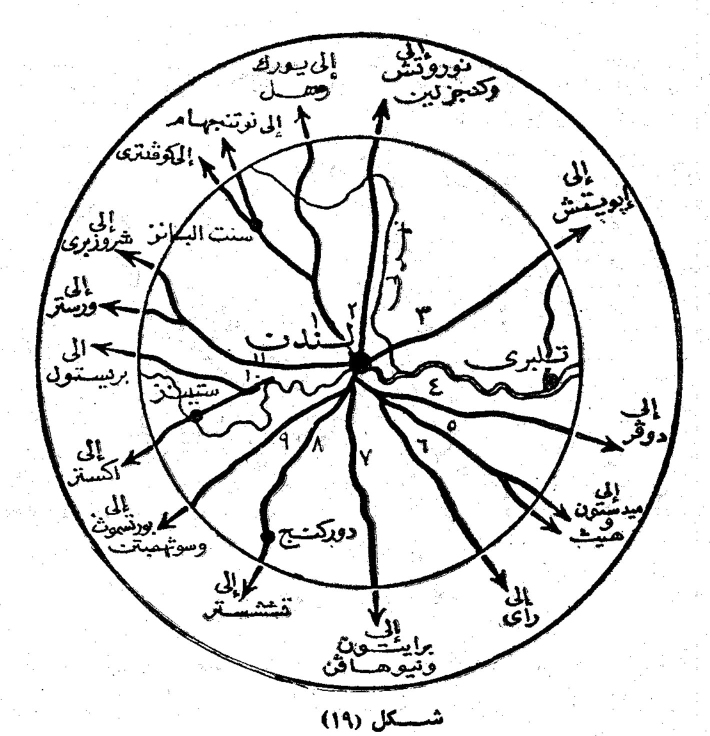
حين ظهرت حضارة العصر الحجرى الحديث لأول مرة فى أوربا القارية فى الألف الثالثة قبل الميلاد فى وقت متأخر» كانت على جانب من المعرفة والتقدم الفنى جرى باعتبارها متحضرة ، فالأقوام من الأوربيين الذين بلغوا دور حضارة



شكل (١٨) لندن ملتقى الطرق فى القرن الرابع عشر
(طبقا لخريطة Gough التى لم تبين كل الطرق الحالية التى تلتقى عند لندن)

العصر الحجرى الحديث ، لم يعودوا من جامعى الطعام فقط بل من منتجيه أيضا ، اذ مارسوا الزراعة وتربية الحيوان ، فضلا على انه رغم ما امتازت به حضارة العصر الحجرى الحديث فى أوربا القارية من أصالة وطابع مميز فى مناطقها المختلفة ، فليس من التعسف أن نحاول تفسير قيامها فى أول أمرها على ضوء الحوافز والدوافع التى وفدت من الخارج . أى بدخول الشعوب والافكار من مراكز الحضارة السابقة ، ويأتى فى مقدمة هـذه المراكز مصر والجزيرة وآسيا الصغرى وكريت ، وبعض جهات منطقة بحر ايجه الاخرى

علينا أن نتصور أوربا وقد اكتست حلة من الغابات الكثيفة التى انتشرت فى أرجائها أثناء الالف الثالثة قبل الميلاد ، وان لم تكن حياتها النباتية مقصورة على الغابات فحسب ، وقد كان العصر الحجرى الحديث فى أوربا مصحوبا بانتشار ظروف مناخية اكثر دفئا ورطوبة منها اليوم ، وكان من نتائج ذلك أن أصبحت بعض البقاع التى تمتاز بأن تربتها السطحية والسفلى مسامية ذات أهمية خاصة



شكل (١٩)

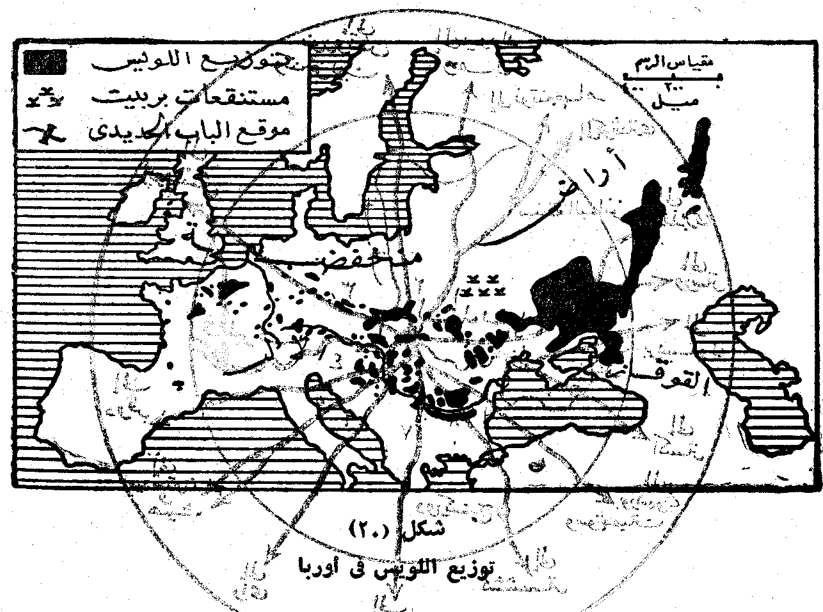
لندن ملتقى الطرق فى القرن السابع عشر

(بعض هذه الطرق مثل ٢،٣،٢، ٤ـ تتفق تقريبا مع اتجاه الطرق الرومانية . انظر شكل ١٧ السابق)

وكانت أنواع التربة المشتقة من اللويس (انظر شكل ٢٠) ومن الصخور الجيرية الواقعة أسفله ومن الرمال والحصى ينمو بها غطاء طبيعى من نباتات الاستبس Steppe-heath flora وذلك أثناء هذه الفترة الدفيئة الرطبة ، على حين كانت تخلو من الاشجار والنباتات القصيرة وكانت الجهات التى تسود فيها هذه التربة تمثل أدغال الخليج المكشوفة الجافة dry open heath (١) أو أراضى تغطيها الحشائش وسط مساحات تحيط بها تغطيها الغابات والمستنقعات والجبال ، ولذلك فقد كانت تمتاز بأن الاتصال فيها ميسور وبخاصة أنها كانت تتكون من سهول أو هضاب مستوية ، فضلا على أن أنواع التربة كانت تعد أكثرها صلاحية للزراعة تبعا لما كان متبعا من أساليب الاستغلال البدائية

ولنا أن نتوقع فى ضوء الحقائق الطبيعية أن المسالك الكبرى فى أوروبا فى

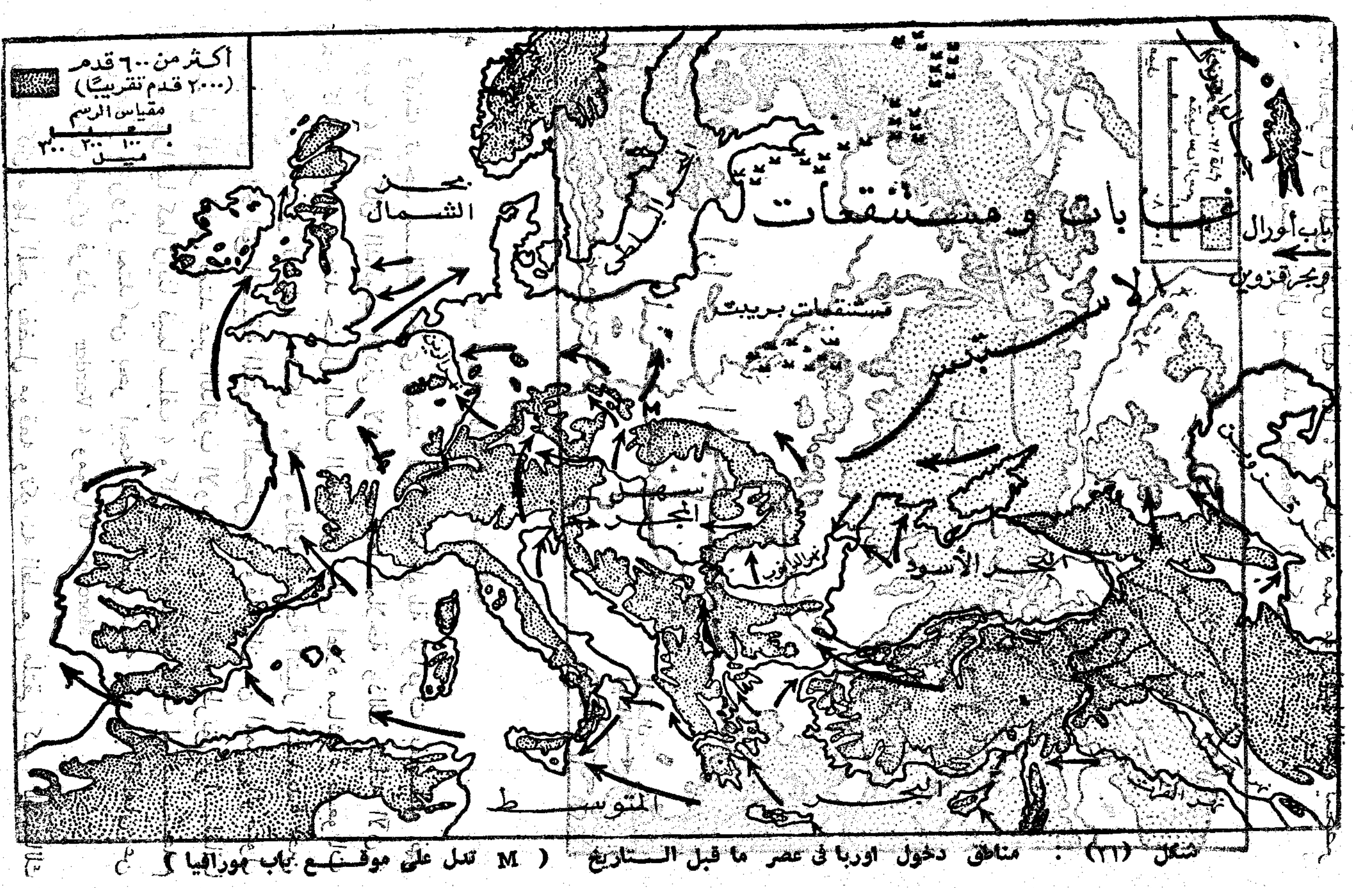
(١) يقصد بكلمة heath أرضا مستوية متروكة بورا لتنمو فيها شجيرات من نوع Erica وبعض الشجيرات الاخرى من نوع الشليك



شكل (٢٠)
توزيع اللويس فى أوربا

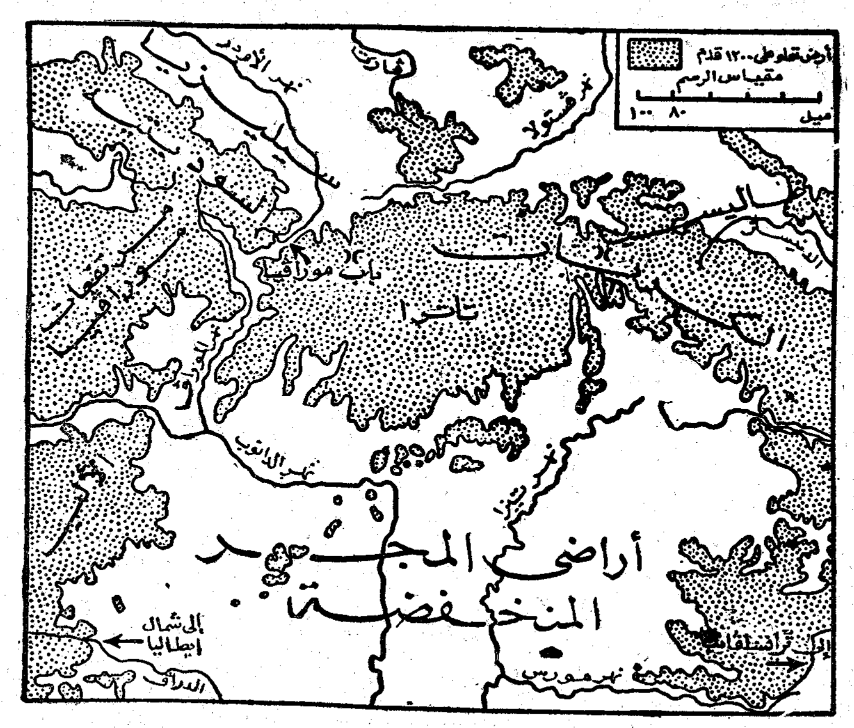
العصر الحجرى الحديث كانت تتبع الأراضى الجافة المكشوفة ، متجنبة العقبات التى تنشأ عن الجبال والغابات والمستنقعات ، ويجب علينا أيضا أن نتوقع أن هذه المسالك الطبيعية كانت مناطق متسعة إلا حيث تكون الانتقالات والحركات محصورة فى حدود ثغرات ضيقة وممرات ، ويتفق توزيع ما عثر عليه من آثار يمكن أن تنتمى لذلك العصر مع هذا الرأى

كان أحد المسالك الكبرى يتجه منحرفا عبر أوروبا ممتدا من حافة الاستبس فى هذه القارة فى الجنوب الشرقى صوب بلجيكا الجنوبية ، وذلك متتبعا طريق رصيف غاليسيا ومنطقة السفوح السفلى فى التلال الوسطى التى تقع دون نظام السلاسل الجبلية الوسطى فى أوروبا والسهل الأوربى الشمالى (شكل ٢١) ، ويحدده بقدر معين انتشار رواسب اللويس (شكل ٢٠) وهو لا يقع خارج نطاق المنطقة الجبلية التى يمتد على حافتها فحسب ، ولكنه يتنكب مستنقعات نهر بريبت Pripet أيضا وقد كان هذا المسلك فى نهايته الجنوبية الشرقية يتصل بالاستبس المتسعة فى آسيا الوسطى عن طريق باب اورال ، بحر قزوين ، كما كان متصلا بجنوب غرب آسيا بمسالك كانت تحف أو تعبر جبال القوقاز ، كما كانت هناك مسالك أخرى بدلا عنها تمتد من شواطىء البحر الاسود الشمالية لتفضى الى الغرب دون صعوبة ، يتجه أحدها الى سهل ولاشيا وهضبة بلغاريا اللتين تقعان الى شمال الدانوب الادنى وجنوبه على التوالى ، كما كان آخر يفضى الى حوض ترانسلفانيا المرتفع بعد اجتياز ممرات الكربات ، وقد كان من اليسير الهبوط من ترانسلفانيا الى



شكل (٢١) : مناطق دخول اوربا فى عصر ما قبل التاريخ (M تدل على موقع باب موراقيا)

سهل المجر ، كما كان من الممكن الوصول الى هنغاريا عن طريق المسلك الذى يمتد بانحراف والذى أشرنا اليه آنفا ، عن طريق ممر مورافيا الذى ينحصر بين جبال السوديت وجبال بسكيد Beskid (شكل ٢٢)



شكل (٢٢)
باب مورافيا والطرق الموصلة اليه

وكانت توجد مسالك أخرى تمتد لمسافات طويلة توافرت بفضل نهر الدانوب ، اذ كان الدانوب الادنى لاشك صالحا للملاحة وذلك شأنه الآن ، ولكن كانت تعترضه عند جندل الباب الحديدى والى أعلاه مباشرة صعوبات طبيعية من المتعذر تذليلها (شكل ٢٠) وذلك لسرعة التيار الشديدة حين يندفع خلال الخوانق الضيقة الملتوية الصخرية ، وقد كان من الممكن الوصول الى سهل المجر الذى يمتد عبر الدانوب الاوسط .. اما عن طريق ترانسلفانيا أو باب مورافيا كما رأينا فيما سلف ، وكان هناك مسلك ثالث لم يستخدم حتى عصر البرونز يمتد من بحر ايجه شمالا عبر شبه جزيرة البلقان عن طريق وادى نهرى فردار Vardar ، ومورافا Morava

ولهذا كان سهل المجر بفضل موقعه وتكوينه الطبيعى ملتقى كبيرا للمسالك

ومركزا من مراكز حضارة العصر الحجرى الحديث ، وقد كان وجود رواسب اللويس والرمال التى تغطى مساحات واسعة مكشوفة تقع بعيدا عن المستنقعات المتسعة التى تحف بالدانوب ، مما ييسر أسباب الانتقال ، فضلا عن توفر أراضى المراعى والاراضى الزراعية ، لقد لاحظنا فيما سلف كيف يمكن دخول هنغاريا من الشرق ومن ثم لم يعد مما يثير الدهشة من وجهة النظر الجغرافية أن استفز زراع العصر الحجرى الحديث الاوائل فى وسط أوربا فى هضبة مورافيا التى تغطيها رواسب اللويس، التى تسربوا منها موغلين فى سهل المجر القريب ، وكان هناك طريقان من هنغاريا يتجه أحدهما غربا والآخر شمالا ، تستطيع أن تسلكهما طرق الحياة المتحضرة فى انتشارها ، يتبع أحدهما وادى الدانوب متجها نحو منابعه الى بفاريا حيث يمكن الوصول الى سهول الرين الاوسط فى الالزاس وبادن ، أما الطريق الآخر فقد كان يمر خلال باب مورافيا ثم ينحرف صوب الغرب فى اتجاه مائل نحو الرين الادنى

ونستطيع أن نختتم عرضنا للمسالك الطبيعية فى أوروبا بأن نذكر انه كان من الممكن دخول هذه القارة عبر أشباه جزر البحر المتوسط فى نقط قليلة مختارة . ومما يلفت النظر كيف كانت جبال البرانس والالب والالب الدينارية والبلقان وهى سلاسل جبلية حديثة تمثل نطاقا متصلا تقريبا يحف بالجانب الشمالى من حوض البحر المتوسط ، وهكذا كان الانتقال نحو الشمال مقصورا على عدد من الابواب والثغرات أو الممرات (انظر شكل ٢١) . فكان الباب البحرى أو المنفذ المائى الذى يمثله الدردنيل وبحر مرمرة والبوسفور يفضى من بحر ايجه الى دلتا الدانوب واستبس جنوب روسيا ، اما الى غرب ذلك فقد كان يفضى طريق الموراف الفردار الى بلغراد الواقعة على الدانوب ، كما كانت تتخلل جبال الالب الشرقية الممرات المنخفضة — وان كانت رغم ذلك وعرة — التى تمثل طريقا قصيرا بين رأس الادرياتيك والدانوب الاوسط . كما كان من الممكن دخول فرنسا عن طريق وادى الرون أو بواسطة ذلك الطريق الذى يتبع برزخا تمتد فيه وديان أود Aude والجارون . واخيرا كانت هناك مسالك تمر بجانبى البرانس أو تخترقها ، كما كانت هناك ممرات جبلية عالية فى جبال الالب استخدمت بمضى الزمن

وقد ظلت المسالك التى المعنا اليها آنفا ، والتى سلكتها مظاهر التأثير الحضارى فى العصر الحجرى الحديث وعصر البرونز تستخدم استخداما متصلا خلال عصور التاريخ ، فتدفقت موجات متتابعة من الفرسان والرعاة وافدين من آسيا الوسطى مجتازين باب أورال — بحر قزوين Ural-Caspian Gate متجهين غربا ، فسلكوا طريقا واحدا أو أكثر سواء بقصد السلب والتخريب كما فعل الهون Huns أو بغية الغزو والفتح كما حدث على يد المغول ، أو للاستقرار كما آثر المجريون والبلغار

وقد أخذت الشعوب شيئاً فشيئاً تعنى بتعيين المسالك وتخطيطها وتحسينها كلما تقدمت حضارتهم المادية وذلك ليخدموا حاجاتهم المتغيرة . ومما يسترعى الانتباه الى اى حد كانت تتأثر هذه المسالك بطبيعة الارض وتوزيع معالمها ، والسبل التى يلقى فيها الانسان اقل مقاومة — ورغم انه يجب الا ندعى متورطين فى الخطأ أن الناس فى عصر ماقبل التاريخ واوائل العصر التاريخى كان لهم من الدراية ما لدينا الآن من دراية ومعرفة تكاد تكون تامة بالبلاد ، فمن الواضح ان الكثير منهم — شأنهم فى ذلك شأن أجدادنا من الانجلو سكسون — كان لديهم نظرة ثاقبة فاحصة للبلاد ..

وربما كانت هذه النظرة نوعا من الحاسة الجغرافية التى ربما كانت تميز هؤلاء الذين يعيشون مشدودين برباط وثيق بالارض ، وان كان حقا أن الطرق تنشأ الآن دون أن تلقى بالا للظروف الطبيعية ، فان من الواضح أنه ربما يؤدى هذا الاغفال وعدم المبالاة الى ارتفاع تكاليف الانشاء . وقد كان مد الطرق فى العصور التاريخية فى اتجاه لا يتفق والظروف الطبيعية نوعا من الاستثناء كما حدث حين مد خط سنت بطرسبرج — موسكو ، فقد يسرت طبيعة السهل الروسى تنفيذ نزوة القيصر فى هذا الصدد — اى انشاء خط للسكك الحديدية ليربط المدينتين فى خط مستقيم

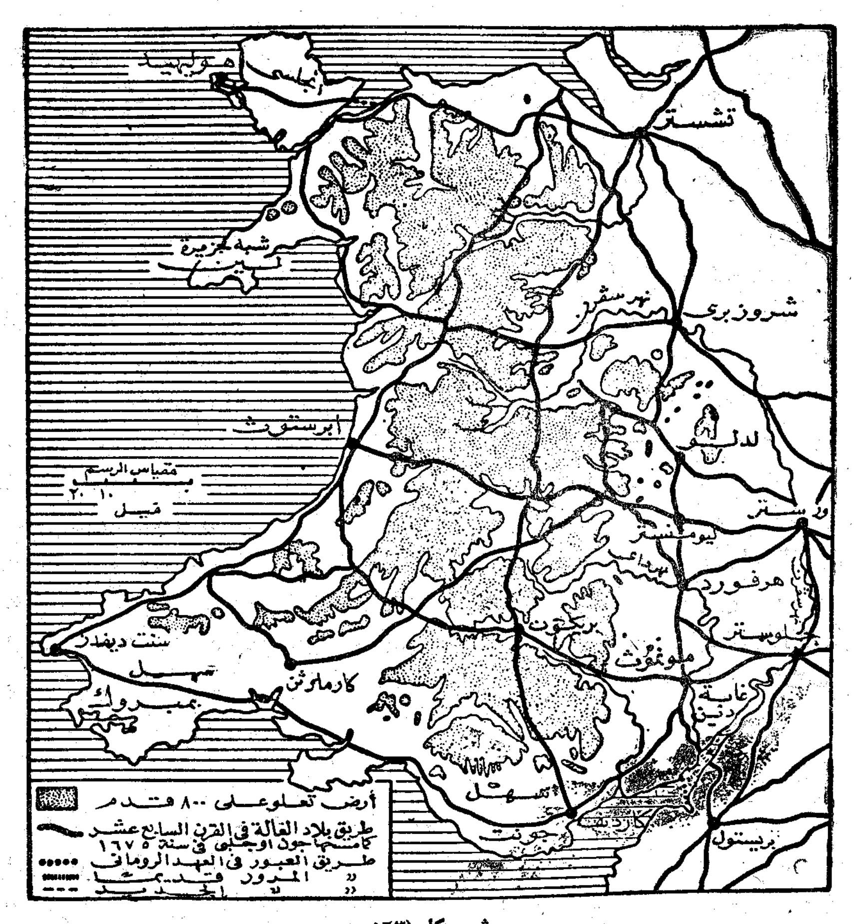
ولكن مثل هذا التخطيط الهندسى للطريق غير ميسور فى البلاد التى تتنوع فيها الظروف الطبيعية ، وان كانت تبدو الطرق الرومانية كأنما تغفل مظاهر السطح والارتفاع المحلية ، الا أنها فى الواقع تتلمس غالبا أكثر المواضع يسرا وسهولة بتنكبها الاراضى المنخفضة التى تتعرض للفيضان ، وقد وقفت الطرق الرومانية — التى تعبر « أراضى المؤن المرتفعة فى جبال البنين » فى انجلترا — شأن الطرق التى انشئت فى العصور التالية — فى الافادة من الانحدارات الاكثر سهولة التى تنتشر فى وديان الانهار ، ومن المناطق الضيقة المنخفضة Saddles من الجبال التى تتجنب الجهات المتسعة المرتفعة ، ولم يتمكن مهندسو الطرق من أن يتحدوا البيئة الطبيعية الا فى عصر متأخر حين استطاعوا أن يحملوا القنوات فى الانفاق بين جوانب البنين المختلفة ، ولسنا بحاجة الى توكيد أن السكك الحديدية عادة تتبع أقل الجهات انحدارا فى هذه البقاع شأنها فى ذلك شأن غيرها .

ويكفى لتوضيح ان الطرق عادة كانت تتكيف بما يسود السطح من ظروف ان نذكر لمحة قصيرة عن الطرق التى كانت تتجه من منطقة الحدود فى ويلز الى داخل البلاد . وقد ظلت مرتفعات ويلز موحشة جدباء منعزلة ينفر منها الجميع عدا نفر من الرحالة شديدى الاحتمال ، النزاعين للمخاطرة . ولم يتصل شمال ويلز وجنوبها بانجلترا بالعربات سوى فى العقدين الاخيرين من

القرن الثامن عشر ، بل ان دانيل ديفو Daniel Defoe قد وجد فى هذين العقدين من القرن الثامن عشر ان الطرق فى ويلز مرهقة بل ومخيفة الى حد ما ، ولكنه قد تصدى للحديث فى الجغرافيا دون حق حين قارن جبال ويلز التى لا تمثل سوى بقية من نظام جبلى قديم بالالب والانديز التى تمثل جبالا التوائية تعمل فيها عوامل التعرية بنشاط .

وقد كانت الطرق الكبرى لاتجد مندوحة تقريبا من تتبع — كلما استطاعت الى ذلك سبيلا — المنحدرات الاكثر سهولة التى تتيحها الوديان والثغرات والاراضى المنخفضة الواقعة عند الاطراف . أما فى داخل ويلز ، فلم تكن أراضى المور العقبة الكبرى التى تعترض المواصلات الداخلية بقدر ما كانت الهضبة ، لان مستوياتها المختلفة كانت تغطيها فى بعض أجزائها مستنقعات اللبد النباتى التى لاتبعث على الاطمئنان ، ويبين (شكل ٢٣) مدى اتساع البقاع التى كان يعلو سطحها عن ٨٠٠ قدم فى ويلز وكيف كانت الجهات المنخفضة نسبيا محدودة ، كما توضح كذلك الاتجاه نحو الشرق الذى يميز نظام الصرف الطبيعى وبخاصة فى انهار دى Dee وسفرن Severn وواى Wye و اوسك Usk ، فقد كان لها تأثير مهم على المواصلات ، ونعنى — أن الاتصال بين انجلترا المنخفضة ومرتفعات ويلز ، كان أكثر يسرا وسهولة من الاتصال بين الجهات المختلفة فى ويلز .

ويمكن أن نتعرف على نحو ستة « مسالك طبيعية » كانت تتجه من الحدود الى داخل ويلز ، ومن المناسب ان نوضحها فى علاقتها بمدن الحدود التى كان يخرج منها الرحالة أو الجيوش أثناء العصور الوسطى ، ثم حتى العصور الوسطى المتأخرة بعد ذلك . فقد كان هناك مسلكان يتبع أحدهما النطاق المنخفض الضيق الذى تنتشر فيه التلال فى شمال ويلز ، أو يسير صاعدا من أعالى نهر دى Dee وهو يعرف باسم وادى لنجولن Llangollen كما أنه يمكن أن نتبع مسلكا ثالثا يمتد اما من شروزبرى Shrewsbury أو لادلو Ludlow عن طريق سفرن الاعلى أى خلال وادى بويس Powis كما كان هناك مسلك رابع يخرج من هرفورد Hereford ليذهب صاعدا فى وادى واى Wye ، أما من مدينة مونموث Monmouth فقد كان أعالى أوسك Usk يمثل المسلك الخامس الذى كان يتابع سيره خلال وادى توى Towy حتى يصل الى كارمرثن Carmarthen ، وأخيرا كان الطريق من جلوستر Gloucester يجد السبيل مفتوحا نحو الغرب خلال الاراضى المنخفضة التى تحف بخليج السفرن ، ومنها كان يخترق الاراضى المنخفضة الساحلية من مونموث Monmouth وجلامورجان Glamorgan ، كما كان من بين طرق الدخول فى جنوب ويلز الزوارق التى كان من الممكن استخدامها



شكل (٢٣)

ويلز ومنطقة الحدود : الطرق فى القرن السابع عشر

(الطرق كما تظهر على خريطة مصلحة المساحة البريطانية وويلز فى القرن السابع عشر ، منشورة باذن من مدير المساحة العام)

لعبور مياه خليج السفرن التى يصل اليها تأثير موجات المد (انظر شكل ٢٣) ويبين شكل ٢٤ الاجزاء التى نعرفها من الطرق الرومانية فى ويلز ، والتى ظلت مستخدمة خلال العصور الوسطى تسلكها الجيوش والمستعمرون من انجلترا ؛ ومما يسترعى الانتباه أن هذه الطرق أقل استقامة بكثير من طرق انجلترا المنخفضة ، وقد انحرفت هذه الطرق متتبعة السبل التى تواجه فيها أقل الصعوبات ، فمرت على حافات الكثير من العقبات التى ظهرت بحكم طبيعة ويلز . واذا رجعنا الى شكل ٢٣ لتبينا ان المسالك الطبيعية التى سلف سردها كانت تتبعها الطرق الرومانية فى كل حالة تقريبا . ومما يجب ملاحظته أن

الطرق الرومانية فى ويلز كانت تتوخى تنكب قيعان الاودية الرطبة التى تغطيها النباتات مؤثرة عليها منحدرات الاودية التى تمتاز بجفافها

وقد بقيت النقط التى تبدأ منهـا الرحلات فى حالتى شـسـتر Chester وجلوستر Gloucester الى ويلز فى العهد الرومانى فى العصـور التالية ، ولكن كانت المدينتان اللتان حل محلهما فيما بعد شروزبرى Shrewsbury وهرفورد Hereford هما روكستر Wroxeter وكنشستر Kenchester على التوالى . وأخيرا يجب الا نستنتج أن ويلز كانت تعوزها الطرق المحلية التى تختلف عن الطرق الرئيسية التى كانت تتجه نحو الحدود ، فقد كان



شكل (٢٤)

ويلز ومنطقة الحدود : حدود امتداد صخور الزمن الاول والطرق الرومانية (الطرق كما تظهر على خريطـة مصلحة المساحة البريطانية لبريطانيا تحت الحكم الرومانى — بعد الحصول على اذن من مدير المساحة العام)

سكان ويلز أثناء تنقلاتهم الموسمية مع ماشيتهم الي مراعي الجبال المرتفعة أو حين يسوقون ماشيتهم الى الأسواق يستخدمون الطرق المتعددة التى تتبع حافات المرتفعات أو الدروب الجبلية الأخرى . ولذلك كانت المسالك التقليدية فى هضبة جلامورجانشير Glamorganshire تتبع حواف المرتفعات التى تقع بين الوديان الضيقة العميقة التى حفرت فيها حفرا عميقا ، ولم تظهر هذه الوديان من غاباتها ولم تجفف ويمتد فيها العمران الا بعد استثمار موارد الفحم فى المنطقة ، فامتدت على طول هذه الوديان الطرق والقنوات أو خطوط السكك الحديدية (١) .



(١) يلقى كتاب Dr. W. Rees ويلسى Handbook and Maps of South Wales and The Border in the 14th Century. (١٩٣٣) ضوءاقويا على الطرق القديمة فى جنوب ويلز ، كما ان بحوث D.W. من Offa's Dyke فى Archaeologia Cambrensis Phillips and Sir Cyril Fox فى ١٩٢٦ — ١٩٣١) تبين مسالك المرتفعات فى ويلز أثناء العصور الوسطى

الفصل الخامس

المدن

« يقوم الانسان بتنظيم البقعة التى أعدتها الطبيعة،
لتمكينها من ســد حاجاته وتحقيق رغبــاته »

فيدال دى لابلاش

لم توضح كشوف علماء الآثار التى تثير الدهشة فى مصر والعراق وشمال غرب الهند قدم ظاهرة سكنى المدن فحسب ، بل أماطت اللثام كذلك عن دور المدن المهم فى تطور الحضارة ، إذ أتاحت الحياة فى البيئة الاجتماعية التى استطاعت الثقافة البشرية فى كنفها ان تبلغ أقصى مابلغته من أصالة وتطور ، فلا غرو اذن ان اشتقت كلمتا (مدينة) و (مدنية) من أصل واحد ، فنشأت أقدم المدن المعروفة فى وديان الانهار فى وادى النيل الادنى ، وادنى أنهار الفرات والدجلة والسند حوالى ٣٠٠٠ ق . م أو بعد ذلك بقليل .. فاعتبرت نشأتها حينئذ كنوع من أنواع العمران الذي يختلف عن القرية ، احد المظاهر الرئيسية الجديدة التى امتازت بها ثورة حضارية كبرى

وقد ذهب هــذا المذهب بعض المحدثين ، فرأى جوردون تشيلد (١) Gordon Childe ان تاريخ الانسان الطويل تضــمن ثلاث ثورات حضــارية كبرى ، كانت وديان الانهار موطنا لاثنتين منها بين ٦٠٠٠ – ٣٠٠٠ ق . م ، وذلك أثناء الفترة التى عرفت باسم ثقافة العصر الحجرى الحديث (٢) وقد امتازت الثورة الاولى التى وقعت فى الالف الخامسة قبل الميلاد – بأن جماعات من سكان القرى اكتشفوا الزراعة واستأنسوا الحيوان واهتدوا الى كثير من الفنون المفيدة كالنسيج ، أما الثورة الثانية التى حدثت فى الالف الثالثة قبل الميلاد فقد اقترنت بظهور المدنية وكثير من الاختراعات والفنون الجديدة مثل صناعة المعادن وفن المعمار باستخدام الآجر والاحجار والتجارة والكتابة واتباع التقويم الزمنى . وبعد ان عرضنا لنشأة وتطور الحياة المتمدينة عرضا أخاذا لم يبق من شىء يتناول الاسس المادية للحضارة بالتغير العنيف سوى الثورة الصناعية فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بعد الميلاد

هذا ويمكن أن نعلل نشأة المدن فى أنحاء العالم القديم على الاقل ، بأنه جاء

---

(١) انظر V. G. Childe فى Man Makes Himself (١٩٣٦)

(٢) انظر الفصل الثامن

نتيجة لانتشار الافكار عن حياة المدن ومظاهرها من مناطق الحضارات الثلاثة الاولى أو المبكرة التى أسلفنا الاشارة اليها . ولكن من الصعب ــ رغم ذلك ــ أن نقبل رأى أصحاب النظرية المتطرفة لانتشار الحضارة ، تلك النظرية التى تذهب الى أن الكشوف والاختراعات قد ظهرت وانتشرت من مكان واحد كمصر مثلا ، لانه يبدو أن نوعا من المدن كان معروفا فى أمريكا الوسطى حين وصل اليها كولمبس ، ويلوح أن هذه المدن قد نشأت نشأة مستقلة عن تأثير العالم القديم ، فقد يبدو مقبولا ان نرى ان تيارات الثقافة الوافدة من مصر وأرض العراق تفسر ظهور المدن فى كريت وآسيا الصغرى وسوريا وفلسطين ، ثم كان ظهور المدن الفينيقية على طول الساحل السورى والمدن الاغريقية التى تلقت حوافز من كريت التى تقع على كثب منها . . السبب فى نشأة عدد كبير من المدن على طول سواحل حوضى البحر المتوسط والبحر الاســود ، على حين قام الاتروسكيون Etruscans بانشاء المدن فى الداخل وعلى السواحل فى توسكانيا Tuscany والجهات التى تمتد وراء الابنين Apennines

كما أنشأت الامبراطورية الرومانية ــ أثناء توسعها ــ مدنا تقع وراء حدود حوض البحر المتوسط ، انتشرت بين بريطانيا الجنوبية فى الغرب ووادى الرين والدانوب فى الشرق والشمال ، ولا تزال هناك مدن تقوم الآن فى مواقع المدن الرومانية القديمة ، ولكن فى بعض الاحيان لم تقم المدن فى العهود التالية للعصر الرومانى فى مواقع المدن الرومانية وان كانت قد نشأت قريبا منها ، كما فى سنت البـــانز St. Albans التى نمت على كثب من مدينة فيرولاميوم الرومانية Roman Verulamium . كما انه ليس من الجلى دائما ان المدن التى نشأت فى مواقع المدن الرومانية ، أو على مقربة منها ، قد ظلت قائمة بصفة متصلة خلال التاريخ . وقد نشأت كثير من المدن أثناء العصـــور الوسطى سواء فى الجهات الواقعة وراء نهرى الرين والدانوب ، أو فى نطاق المنطقة التى خضعت لحكم روما من قبل

ويمكن أن نتبع طرقا متعددة فى تقسيم المدن ، لانها تمثل وحدات معقدة كما أن دراستها تشمل وضعها من نواح عديدة ، فاذا تحدثنا عن مدن الاسواق والموانى البحرية والعواصم والمدن الريفية أو المدن الصناعية ، فانما نميز بينها تبعا لتباين وظيفتها ، كما يمكن أن نقسمها على أساس التباين فى عدد السكان ، فضلا على أن اختلاف المدن فى وضعها القانونى يمكن أن يتخذ أساسا لنوع من التقسيم . ولكن أيا كانت طريقة التقسيم ، فالمدن تمثل عادة معالم يمكن التعرف عليها وتمييزها على سطح الارض ، بخلاف مراكز العمران فى الريف

ويمارس عدد كبير ــ نسبيا ــ من سكان بقعة معينة أو مدينة القيام بوظائف معينة مثل التجارة والصناعة والدفاع والادارة والتنظيم السياسى والدينى ،

ويبدو تأثير ذلك منعكسا فى أسواقها ومصانعها وموانيها ودور محاكمها وحصونها وكنائسها الجامعة ، وتعد مثل هذه الوظائف عادة حضرية وأن لم تكن حضرية بحتة ، أما الزراعة فقد كانت عادة ترتبط بأنواع العمران الريفى مثل القرى والدساكر والمزارع المتفرقة ، وان لم تكن وقفا على هذا النوع من العمران

وأخيرا فان موقع المدينة عادة عند ملتقى الطرق Nodality يعد من الظواهر الجغرافية المميزة لها ، اذ تصبح المدينة عادة مركزا للمسالك التى تساعد على قيام علاقات أقليمية واسعة بل ودولية ، وهى تبز القرية فى سهولة اتصالها بفضل المجهود البشرى ، وان كان مما يسترعى الانتباه أن الموقع الجغرافى للمدن ، ووضعها بالنسبة لما يحيط بها .. كثيرا مايجعل منها ملتقى طبيعيا للمسالك

***

أما المشكلة التى نحن بصددها الآن فهى كيف تلقى الجغرافيا ضوءا على تاريخ المدن ؟ ويمكن أن نذكر جوابا مختصرا لذلك السؤال ، اذ أنه اذا درست المدن كعناصر متميزة فى ربوع الريف لامكن للجغرافى قبل كل شىء ان يوضح طبيعة البقاع التى نشأت فيها المدن وموقعها فى المنطقة المحيطة بها ، وهو فى قيامه بهذا العمل يستطيع أن يزودنا بما يرشدنا لا لنشأتها وتوزيعها فحسب ، بل لوظائفها وما تتابع عليها من أحداث كذلك

وتدل دراسة بعض المدن دراسة ممحصة ان اختيار المواضع التى نشأت فيها لم يكن محض مصادفة قط ، بل تبدو انها اتخذت كذلك بعد تفكير وتقدير .. فالانسان يختار البقعة التى اعدتها الطبيعة ليفيد منها بعد ذلك ، والحقيقة ان حاجات الانسان وأغراضه كانت دائمة التغيير ، ففى بعض الاحيان — وكان يحدث هذا غالبا — كانت حاجته الاولى التى يتوخاها هى أن تكون البقعة خصبة بطبيعتها ، تحميها المستنقعات أو المياه أو طبيعة سطح الارض . كما حدث فى بعض العصور ان السكان المستعمرين من الاغريق القدماء كانوا يراعون توافر الظروف الملائمة للزراعة ، وان لم يغفلوا سهولة الدفاع وممارسة التجارة البحرية ..

وقد يكون الغرض من قيام المدينة سياسيا فى بعض الاحيان ، فقد أختير موقع واشنجتن كعاصمة أتحادية بحيث يتسنى لممثلى الولايات الثلاث عشر التى كان يتألف منها الاتحاد الوصول اليها بسهولة ، ولكن سواء أنشئت المدن بوصفها مدنا منذ أول الامر ، كما فى لندن فى عهد الرومان ، أو نشأت نتيجة لنمو بعض القرى الصغيرة المتواضعة نموا تلقائيا كما حدث لباريس وروما ، فان للبقعة التى نشأت فيها المدينة أهمية . ويمكن أن تميز ناحيتان فى تكوين

المدن ، أولا الجماعة البشرية التى قد تنشىء قلعة ، أو ديرا أو بيوتا أو ميناء ، وثانيا : العنصر الطبيعي ونقصد البقعة التى نهضت فوقها المدينة وهى التى قد تكون عونا للمدينة لكى تظل باقية على الدهر نامية مزدهرة ، وذلك اذا ماحالف التوفيق اختيارها لما تمتاز به من مزايا محلية أو اقليمية

وقد كانت مزايا البقاع التى نشأت فيها المدن كامنة أحيانا أى خافية على الذين اقاموا بها وسكنوها فى أول الامر ، فقد وصف المهاجرون من الاغريق الذين نزحوا من شبه جزيرة كالسيدس Chalcidice بالغفلة أو (العمى) لانهم آثروا أن يقيموا فى كالكدون Chalcedon على بيزنطة Byzantium التى كانت تقع على الجانب الآخر من مضيق البسفور قبالتها مباشرة — والحقيقة أنهم كانوا من الزراع ولم يكونوا تجارا أو صيادى أسماك ، وقد وجدوا أرضا خصبة تصلح للزراعة التى خبروها من قبل وذلك بالقرب من كلكدون . فلم يقدر الاغريق الذين وفدوا من ميجارا Megara واتخذوا بيزنطة (القسطنطينية) حوالى ٦٥٧ ق .م اولى مواطنهم — الامكانيات العظيمة لهذه البقعة التى لا نظير لها ، لانهم كانوا من الزراع فى المقام الاول ، ولم يعنوا باستغلال موارد القرن الذهبى الغنى بأسماكه وما تدره تجارة البحر الاسود وبحر ايجه من أرباح الا بعد ذلك ، حين تبينوا أن ممارسة الزراعة صعبة بسبب الهجوم الذى تعرضت له من جهة البر

***

ومن الواضح ايضا أن بعض اماكن السكنى التى رغب منشئوها ان يجعلوا منها مدنا لم تتطور ، لان البقاع التى قامت فيها لم تكن صالحة ولا مواقعها ملائمة ، فواجهت بعض ما أسسه الملك ادوارد من أماكن السكنى التى لم يعن باختيارها جيدا ، هذا المصير . ومن المهم أيضا أن نذكر أن المدن مثلها كمثل الكائنات العضوية ، تجتاز نوعا من الانتخاب الطبيعي ، ولذلك تشمل المدن القائمة الان تلك التى أثبتت انها أجدرها بالبقاء ، ولا شك أن للعوامل الجغرافية كالبقعة والموقع مكانة بين العوامل التى تقرر صلاحية المدينة للبقاء . .

ويبدو أن بعض نواحى نشاط المدن — على الاقل — قد أوحت بها وأدت اليها المميزات الطبيعية لبعض المواقع والظروف الجغرافية فى مجالها الاكثر اتساعا ، كما قد يلقى موقع المدينة فى علاقتها بالموارد المعدنية المحلية ، وامكانياتها الزراعية وسهولة المواصلات والنقل سواء عن طريق البر أو الماء . . بعض الضوء على أهميتها ونواحى نشاطها الاقتصادى

هذا فضلا على أن الدراسة الجغرافية قد تشير الى بعض نواحى عامة مهمة تتناول توزيع بعض المدن وأسباب قيامها . وتقوم المدن عادة عند ملتقى المناطق التى تختلف ظروفها الطبيعية ، مما قد يغرينا باستنتاج ان السبب

الذى أدى الى قيام مثل هذه المدن انما تفسره هذه الحقيقة الجغرافية . فقد يبدو من المحتمل انه اذا بلغ السكان مبلغا كافيا من النظام ، تقتضى الحاجة ظهور نقط تقع فى مواقع ملائمة لتبادل المنتجات المختلفة والمتكاملة فى البيئات المتجاورة ، وذلك فضلا عن تغيير وسائل النقل التى تلائم كل اقليم . ولذلك تعد منطقة السواحل خير مثل يوضح منطقة التباين التى أشرنا اليها ، حيث يصبح تغيير وسائل النقل من السفن التى تمخر عباب البحار الى النقل البرى أو بالسفن النهرية ضروريا ، وحيث تلتقى غلات البر بمنتجات البحر (الاسماك ... الخ .) مع تلك التى تأتى من وراء البحار . ويمكن أن نتوقع ظهور المدن ـ تبعا لذلك الرأى ـ عند التقاء الجبل والسهل ، أو الاستبس وجهات الزراعة

وقد أدلى بعض الكتاب برأى ، غير مقنع كثيراً ، يقول : ان انتشار المدن وتطورها يبدو أكثر وضوحا فى مناطق مناخية معينة ، ولكن اذا تقصينا تأثير المناخ من حيث أنه يمكن أن يفسر توزيع المدن ، فسنجد أن تأثيره غير مباشر فقط ، ويمكن أن نلمسه عن طريق تأثيره على النبات الطبيعى وطرق المعيشة

***

لقد ذهبنا فيما سلف الى رأى يقول انه فى بعض الاحيان على الاقل تؤثر العوامل الجغرافية المتغيرة فيما يصيب المدينة من تقلبات ، فلم تعد كثير من الموانى تتصل اتصالا مجديا بالبحر لتراكم راسب الطمى سواء من أصل بحرى أو نهرى ، أو بتكوين أرصفة من الحصى ، حتى أغلقت مداخل المياه واصبحت ضحلة ، كما اغرقت المدن مياه المد فى بعض الاحيان ، أو فيضانات الانهار ، أو الثورات البركانية ، كما حدث أحيانا أن اختفت بعض المدن كنتيجة لما تتعرض له السواحل من نحت . كما تنجم التغيرات فى مصائر المدن نتيجة حدوث تغيرات اقتصادية وسياسية فى أسواقها فى الداخل والخارج . وفى مثل تلك الظروف يصبح العامل المهم جغرافيا ، بطريق غير مباشر فحسب ، فلا يتصل اتصالا مباشرا بالظروف الطبيعية بقدر اتصاله بما يطرأ على طرق استخدام هذه الظروف والاستفادة منها من تغيرات

ولنتناول الآن بعض المدن كأمثلة أو عينات لندعم ونوضح ما أسلفنا فى هذا العرض العام . لقد ذهبنا الى أن اختيار الاماكن التى نشأت فيها المدن لم يكن محض مصادفة ، ولكن كان رائده التفكير والمفاضلة بين الاماكن التى كانت تصلح فى أية منطقة ، ويمكن دون شك ان نعثر على أمثلة تبدو فى ظاهرها أو حقيقتها شذوذا يخرج على هذه القاعدة ، فهناك بعض المدن التى أقيمت كأنما تتحدى الظروف الجغرافية تحديا سافرا ، فقد أنشئت الهافر فى منتصف القرن السابع عشر وسط مستنقعات خليج السين ، كما ظلت يوكوهاما قائمة فى بقعة معرضة لحدوث الزلازل بين الحين والحين ، كما أنشأ العرب القيروان

(وتعنى الخيمة) واتخذوها عاصمة تونس فى القرن السابع الميلادى لاسباب استراتيجية مقبولة ، وان كانت قد قامت وسط منطقة استبس جرداء ، كما قيل ان أى مكان يقع بالقرب من ميلان ليس دون البقعة التى قامت فيها هذه المدينة صلاحية ليكون مركزا تلتقى فيه المسالك التى تعبر ممرات جبال الالب الوسطى الى سهل لمبارديا

وربما كان من الاصوب أن نذكر ان الظروف الطبيعية التى تسود البقعة أو الموضع الذى يقع عليه الاختيار ينطوى على مزايا ونقائص ترجح الاولى الثانية فى أكثر الاحيان ، ولذلك فان مدينة هل Hull التى مكنها مرفؤها الطبيعى أن تنهض كميناء من موانىء العصور الوسطى ، كان عوزها توافر موارد المياه الكافية للشرب ، كما كانت تقوم على تربة ملحية منخفضة معرضة لفيضانات الهمبر Humber الذى يتعرض للمد ، وذلك بين الحين والحين (شكل ٢٥)



شكل (٢٥) ميناء هل حوالى ١٨٣٠ م
(الاحواض التى اشير اليها بأرقام ١،٢،٣ والتى شيدت بين ١٧٧٨ و ١٨٢٩ تمتد على طول أسوار وخنادق العصور الوسطى)

ويمكن أن نميز عدة أنماط للبقاع او المواضع التى تنهض فيها الموانى البحرية ، ومن أكثر هذه الانواع شيوعا فى بريطانيا شأنها فى ذلك شأن مناطق

السواحل الاخرى التى تتعرض لحركات المد والجزر ، البقعة التى تصلح لاقامة كوبرى وميناء بالقرب من رؤوس الخلجان التى تصب بها الانهار ، ومن هذا النوع كثير من موانينا الكبرى فى الماضى والحاضر وبخاصة لندن وبريستل وتشستر Chester ، وكذلك عدد كبير من الموانى ذات الاهمية المحلية بوجه خاص مثل كولشستر Colchester ووارنجتون Warrington وبرستون Preston ، وبريدجووتر Bridgewater

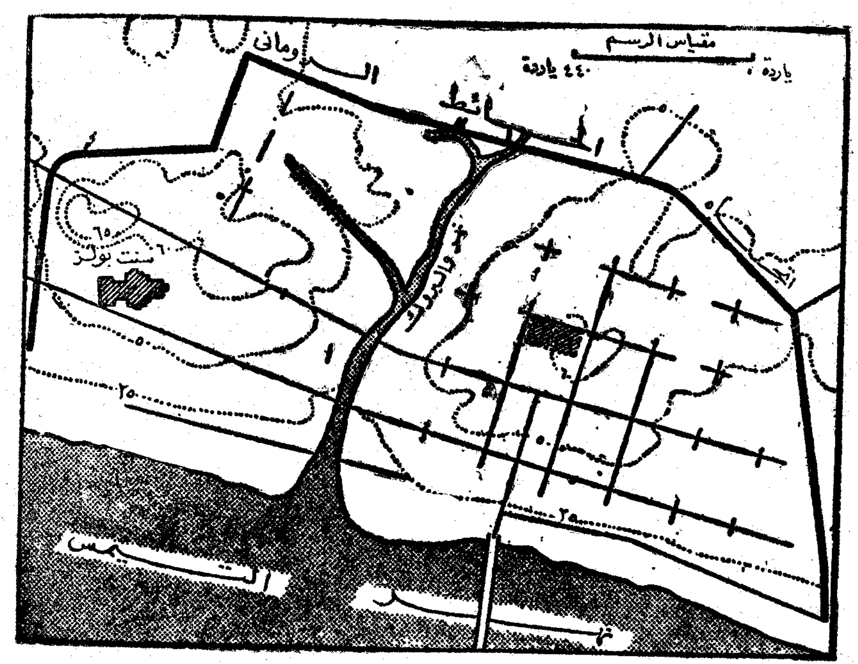
لقد كانت لندن التى ظهرت لاول مرة حين أسسها الرومان فى القرن الاول الميلادى تمتد فوق تلين يتوج قمتيهما الحصى ويفصلهما نهر ولبروك Wallbrook وتقع بالقرب من راس خليج التيمز الذى يجنح نحو الضيق ، حيث أمكن لاول مرة تشييد كوبرى (انظر شكلى ٢٦ ، ٢٧) وقد نبحث دون جدوى هابطين نهر التيمز من لندن للعثور على بقعة يمكن أن تقارن بلندن ، تكون فى مأمن من الفيضان والغزو كما تتيح الظروف الملائمة لتشييد قنطرة ، فيحف بالخليج ــ اذا اتجهنا من لندن نحو المصب ــ المسطحات الرسوبية فى فى كل مكان تقريبا ، وهى تتعرض للغرق أثناء المد ، بل انه حين توجد الصخور الصلبة على ضفاف النهر كما فى جرينتش Greenwich وبرفليت Purfleet لا توجد بقعة جافة مناظرة لها على الضفة المقابلة ، فضلا عن أن اتساع مجرى النهر كان من شأنهفىهذه الازمنة القديمة أن يجعل تشييد قنطرة يكاد يكون أمرا متعذرا

***

وقد كانت السفن التى تصعد النهر الى لندن تجد فى المد عونا لها ، كما كانت مياه الجزر تجعل هبوط السفن فيه متجهة نحو البحر أمرا ميسورا ، فضلا على ان موارد المياه كانت موفورة عند البقعة التى قامت فيها لندن ، اذ كانت الجداول الصغيرة التى طمرت الآن متوفرة ، فقد كانت تنبثق من أسفل رواسب الحصى التى تغطى التلال التى تتكون من طبقات من صلصال لندن غير المسامى

وان تشابهت الظاهرات التى تميز الموقع الذى نشأت فيه كل من تشستر Chester وبريستول Bristol فقد كانت هناك اختلافات محلية ، وكانت تحيط بالهضبة الصغيرة المكونة من الحجر الرملى والتى قامت عليها ميناء بريستول فى العصور الوسطى مياه المد فى مصب نهر أفون Avon من أحد الجانبين ، كما كانت مياه فروم Frome أحد الانهار الفرعية تحف بها من جانبين معا ، ولذلك لم تحرم من حماية المياه لها الا فى أحد جوانبها فقط حيث شيدت قلعة ترجع للعصور الوسطى

ولما كان قنال بريستول Bristol Channel يتعرض لموجات من المد والجزر واسعة المدى ، فقد توافرت المياه ــ وان كان ذلك أثناء فترة المد



شكل (٢٦) البقعة التى نشأت فيها لندن

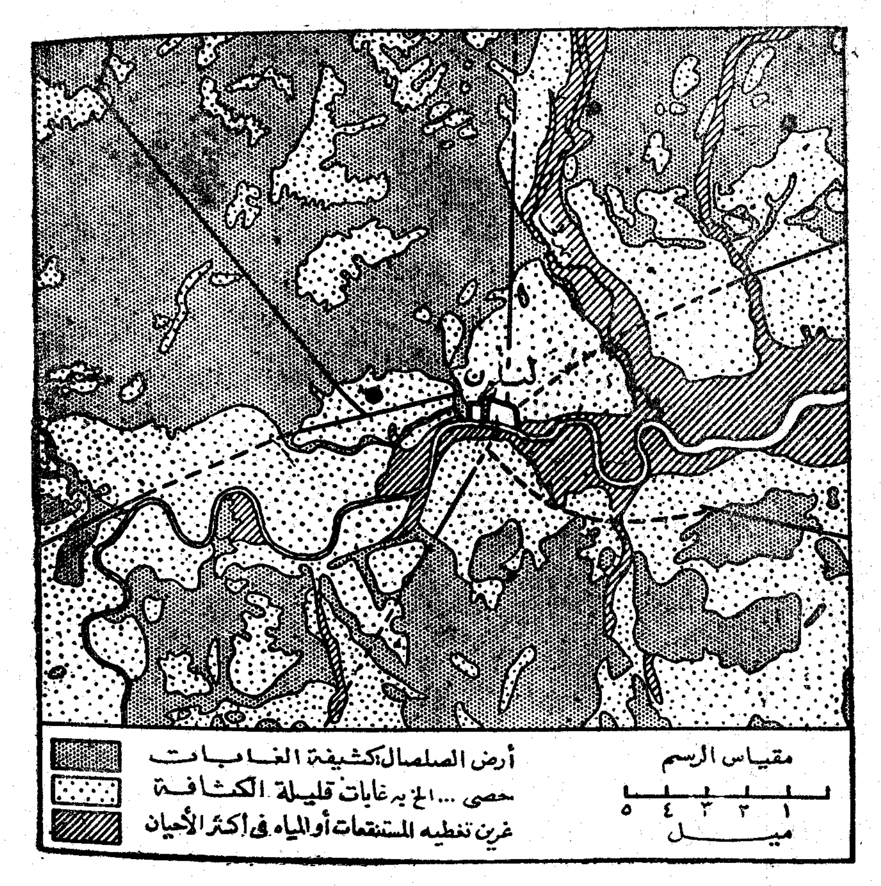
(تدل الارقام على خطوط الارتفاع المتساوية التقريبية نقلا عن اورمزبى H. Ormsby فى كتابه London on the Thames خريطة رقم ١٤ ، وتظهر الطرق الرومانية والقنطرة وان لم يكن قد روعى فيها مقياس الرسم)

فقط ـ لتستطيع ان تقترب السفن من المدينة أو تبارحها . هذا فضلا على انه على كثب من موقع بريستول صوب المنبع كان نهر أفون Avon غير صالح للملاحة لتغيير فى انحدار قاع النهر ، وربما كان لهذه الظاهرة الطبيعية اثر فى ان وقع الاختيار على هذه البقعة ، واخيرا فقد قامت تشستر Chester وهى مدينة ذات أصل رومانى شأن لندن ، اذ كانت احدى قلاع ثلاثة « Castra » على رأس خليج دى Dee فوق تل

وهناك ضرب آخر من ضروب المواقع التى تنهض فيها الموانى يمثله موانى لازالت مزدهرة مثل كنسجتون Kinsgton - Upon Hull ولفربول Liverpool وقد قامت المدينة الاولى التى نشأت فى شكل مدينة عقب عملية المسح أو الحصر التى تعرف باسم Domesday Survey (١٠٨٦) (١) ومنحها

---

(١) وهو كتاب يحتوى على بيانات عملية حصر الاراضى وكبار ملاكها ومساحة أملاكهم وتقدير قيمتها وعدد المستأجرين والحيوانات وغيرها فى كل أنحاء انجلترا حين صادر وليم الفاتح ١٠٨٦ ، اراضى انجلترا عند غزوها .. وهذا الاسم الذى شاع اطلاقه على هذا الكتاب يعنى «يوم القيامة» أى أنه يمثل الحقائق النهائية التى صدرت من السلطات العليا « المترجم »

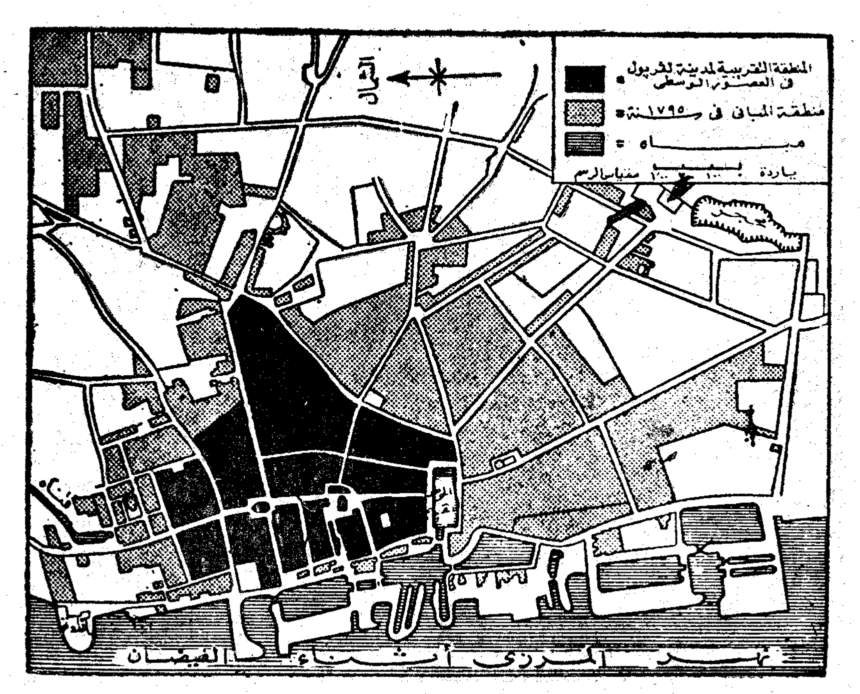


شكل (٢٧) لندن تحت الحكم الرومانى فى بيئتها الجغرافية
(نقلا عن R. M. Wheeler مع بعض التعديل .. تظهر بالخريطة الطرق الرومانية)

الملك ادوارد الاول ميثاق حقوقها Charter (١) — عند مصب نهر كان يصب فى خليج الهمبر المتسع الكثير العواصف (انظر شكل ٢٥) ، وقد كان مصب نهر هل Hull يكفل الحماية ويتسع لنشاط ملاحى محدود المدى حتى أواخر القرن الثامن عشر ، فضلا على أن عمق المياه فى الهمبر حتى ميناء هل كان كافيا ، لان المجرى العميق كان يصل فعلا الى الشاطىء عند موضع هل نفسها

وكانت لفربول أيضا التى منحت ميثاقها على يد الملك جون والتى ظهرت

(١) كان الملك يمنح الشركات والمدن ميثاقا يعترف فيه بحق قيامها من الناحية القانونية ، ويذكر فيه حقوقها

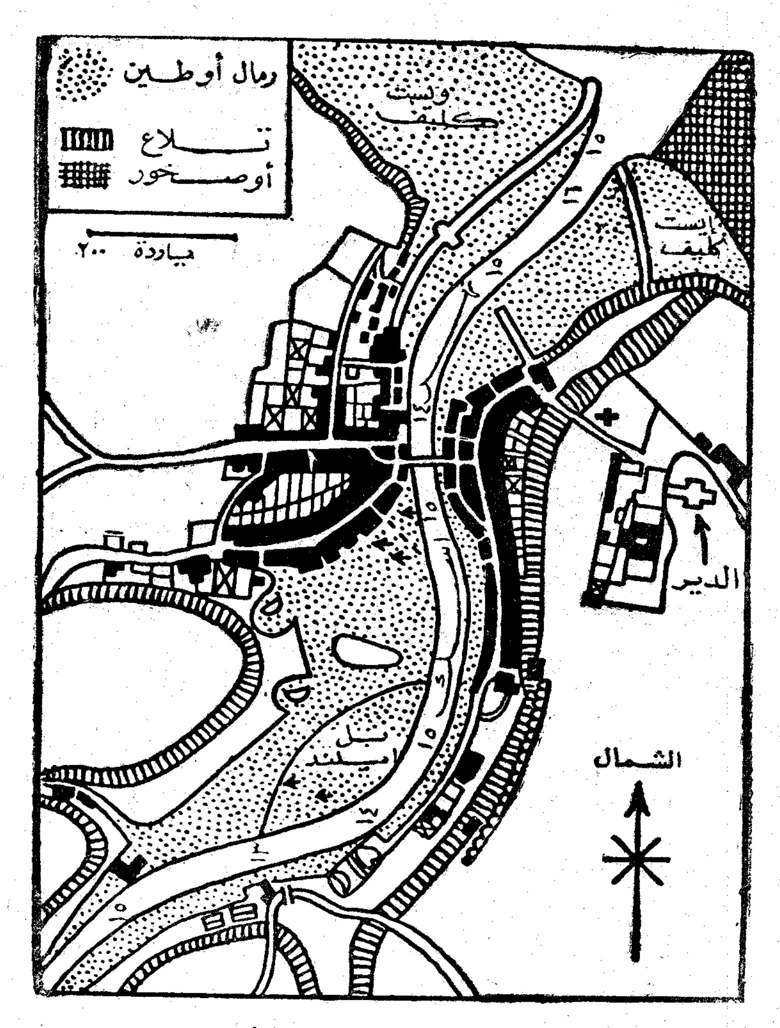


شكل (٢٨) لفربول ١٧٩٥ م (يشغل الحوض القديم المستنقع)

على خريطة Gough (حوالى ١٣٥٠) (١) — تقوم فى بقعة مشابهة ، وان كانت أهميتها احدث بكثير من هل Hull من الناحية التاريخية . وكانت تقوم لفربول عند مصب نهر يدعى ليفر Lever الذى كان يمثل خليجا تصل اليه موجات المد ولكنه يتمتع بالحماية ويسمى Bool وهو يربطها بمصب الميرزى Mersey المتسع (انظر شكل ٢٨) وكانت تختلف عن هل فى انها تمتعت بمزايا بقعة جافة مرتفعة توافرت بفضل وجود هضبة صغيرة من الحجر الرملى ، وقد كان من العوامل الطبيعية التى ساعدت على نمو ميناء ليفربول ان خليج الميرزى يضيق من لفربول صوب المصب ، مما كان يضاعف من تأثير حركات المد فى تعميق المجرى ومن ثم فى توافر المياه العميقة . وقد اصبح من الضرورى فى كل من هل ولفربول تشييد الاحواض لتتسع لتجارتها السريعة النمو فى القرن الثامن عشر

ويمكن ان نشير باختصار الى نوعين آخرين من انواع بقاع قيام الموانى يمثلهما بوضوح ميناء (ويتبى) Whitby الصغير الذى كان حافلا بالنشاط من قبل ، وميناء مرسيليا التاريخى (انظر شكل ٢٩ و ٣٠) . فكانت Whitby

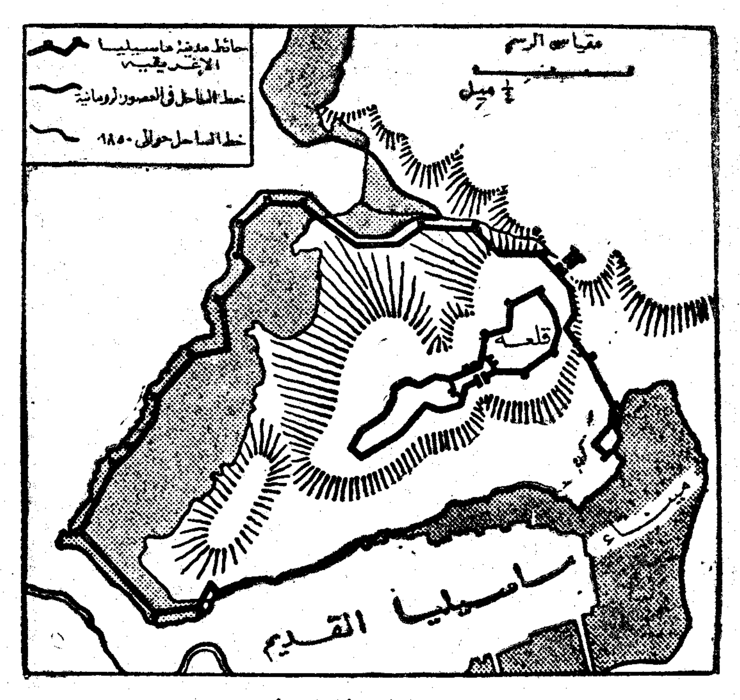
(١) انظر الفصل الرابع السابق



شكل (٢٩) مدينة هويتبى وميناؤها فى ١٧٤٠ م
(تدل الارقام على عمق المياه بالاقدام عند الحد العالى،
أما الاسهم فتشير الى مواضع رسو السفن)

تقع عند مصب نهر تدخله موجات المد ويدعى ايسك Esk فى منطقة ساحلية قليلة الخيرات تعوزها الخلجان الطبيعية ، وكان هذا النهر مهما سواء لصناعة بناء السفن التى قامت فيها أو بالنسبة لوظيفتها كميناء تفىء اليه السفن ، ولذلك وجدت فى البحر أيسر السبل لتسلكها للاتصال ، اذ كانت تطوقها من ناحية اليابس أراضى المور Moor المرتفعة الجدباء ..

كما كانت مسيليا Massilia (مرسيليا) التى انشأها المستعمرون من



شكل (٣٠)

البقعة التى نشأت فيها ماسيليا (مرسيليا) فى العصور القديمة
(نقلا عن ديجاردن Desjardins مع التبسيط)

الاغريق حوالى ٦٥٠ ق . م فى زمن مبكر ، تمثل موضعا لميناء يشيع وجوده فى البحر المتوسط البعيد عن تاثير حركات المد القوية ، وهذا الميناء يتألف من جزيرة ذات حواف منحدرة جدا يمتد دونها حوض صغير يتمتع بالحماية ويكفى عمقه واتساعه لنشاط حركة شحن السفن فى العصور السالفة ، بيد ان تراكم الطمى به قد جعله قليل الجدوى فى العصور الحديثة ، مما دعا الى ضرورة اقامة أحواض صناعية

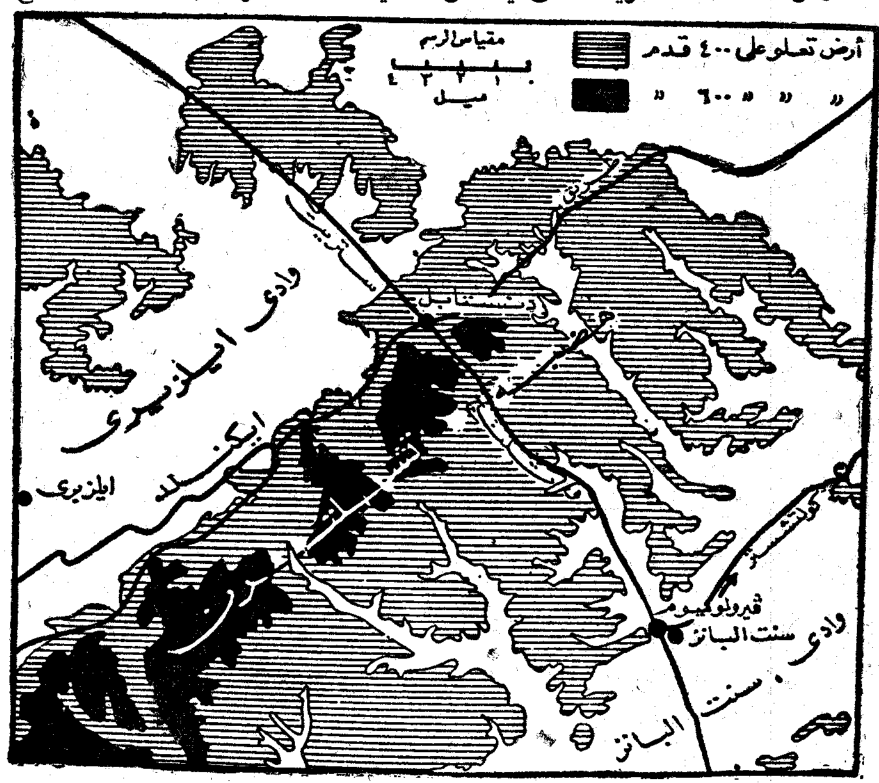
ومما هو جدير بالذكر أن نضيف ان مرسيليا كغيرها من موانى البحر المتوسط الكبرى ، تقع على قيد مسافة قصيرة من مصب نهر كبير (الرون) ، لان اختفاء حركات المد قد مكن الانهار من تكوين دالات تنتشر فى أرجائها المستنقعات . هذا فضلا على انها تقع الى الشرق من دلتا الرون الذى تحمل رواسبه التيارات البحرية التى تتجه صوب الغرب فى اتجاه مضاد لحركة عقارب الساعة ، ذلك الاتجاه الذى يميز تيارات البحر المتوسط

وليست جغرافية البقعة أو المكان Site-geography مقصورة على المدن

البحرية بل تشمل المدن الداخلية ايضا . فقد نشأت مجموعة من المدن تتمثل خير تمثيل فى مناطق الحافات فى انجلترا الجنوبية ووادى اسكتلندة الاوسط ـ فى مواضع تقع فى الممرات الطبيعية التى تمتد من الفتحات أو الثغرات أو على كثب منها ، تلك الثغرات التى تتخلل مناطق الهضاب ، ومن الأمثلة لتلك المدن دنستابل Dunstable (انظر شكل ٣١) التى تقع عند فرجة نحتتها المياه ولكنها جافة الآن تخترق حافة هضبة شلترن Chiltern Plateau وهى تمثل مسلكا مدرجا سهلا يمتد فى وادى ايلسبرى Aylesbury كما يمثل ونستابل بالقرب من وادى نهر فير Ver نحو الجنوب من وادى سانت ألبان St. Albans ، مسلكا يقطع شلترن Chilterns متجها نحو وادى سنت البان Vale of St. Albans

ونستطيع أن نذكر فى هذا الصدد مدنا كثيرة مشابهة يمكن أن تسمى مدن المنافذ والثغرات Gap-Towns تقع فى نورث وسوث دونز North & South Downs مثل دوركنج Dorking وجلدفورد Guildford وأروندل Arundel ، ولويس Lewes

ومن النقاط الطريفة التى يمكن أن يضاف ذكرها بصدد المواضع



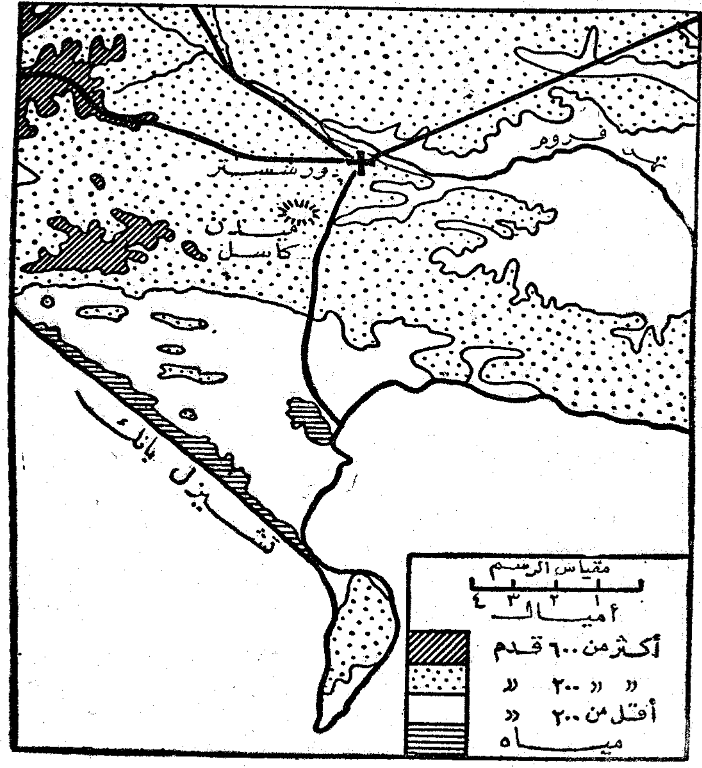
شكل (٣١) دنستابل وفيروليوم وسنت البانز

التى نشأت فيها هذه المدن قديما علاقتها بتقاطع الطرق القديمة التى نشأت قبل ظهور هذه المدن ، تلك الطرق التى كانت عونا على تحديد مواقع أو أماكن قيام المدن . وهكذا ظهرت ونمت دنستابل Dunstable التى أضحت مدينة فى العهد الانجلو سكسونى فقط حيث كان يتقاطع طريق واتلنج Watling street الرومانى مع طريق أكنيلد Icknield Way الذى سبق انشاؤه فى العهد الرومانى ، كما ظهرت مدينة (فيروليوم Verulamium) الرومانية التى نشأت بجوارها مدينة سنت البان St. Albans السكسونية فيما بعد — بالقرب من مركز قبيلة كلتية عند التقاء طريق واتلنج Watling Street بدرب يرجع الى عهد سابق للرومان يتجه شرقا نحو كولتشستر Cholchester (انظر شكل ٣١) وعلى هذا النحو كانت دوركنج Dorking وجيلدفورد Guildford مراكز للعمران الانجلو سكسونى اقيمت عند أو بالقرب من نقط تقاطع الطرق الرومانية التى كانت تربط لندن وساحل سسكس Sussex وطريق الحج Pilgrims way الذى يرجع لعصر ما قبل التاريخ ، والذى كان يمتد على طول حافة North Downs من الشرق الى الغرب . وربما كان الوادى الذى قامت فيه مدينة دورشستر Dorchester التى أسسها الرومان فحلت محل مدينة ميدن Maiden Castle (١) التى أنشئت فوق قمة تل فى زمن أقدم ، يمثل كذلك بقعة كان يعبر فيها طريق دورست دونز القديم Dorset Downs نهر فروم Frome (انظر شكل ٣٢) وربما كانت المسالك التى تمتد على طول حواف المرتفعات من الشرق الى الغرب فى أوائل العصور الوسطى — كما كانت بدون شك فى العصور السابقة للتاريخ — اكثر أهمية من المسالك التى تمتد من الشمال للجنوب ، ولكن هذه المسألة تحتاج للبحث

كما أن هناك ضربا آخر من مواضع قيام المدن لا يعد نادرا فى أراضى انجلترا المنخفضة يمكن ان يطلق عليه (البقاع الجافة dry-point site) وهو اسم مناسب لان أهم مظاهرها انها كانت بمنجاة من طغيان الفيضانات ومن الممكن ان نعثر على مثل هذه المواضع فى الاراضى التى تأخذ فى الارتفاع داخل (سمرست Somerset Levels) أو عند حوافها أو أطرافها ، داخل نطاق هذه الرقعة الشاسعة من المستنقعات التى كانت من قبل تمتد فى بعض اصقاع كمبردج Cambridgeshire ونورفولك Norfolk وهنتجنتون Huntingdon ولنكولن Lincoln ويوركشير الوسطى ، وتتفق حدود المنطقة الاخيرة مع منطقة كانت تغطيها بحيرة واسعة كانت تسمى بحيرة الهمبر أثناء العصر الجليدى (انظر شكل ٣٣)

---

(١) أنظر الفصل الرابع

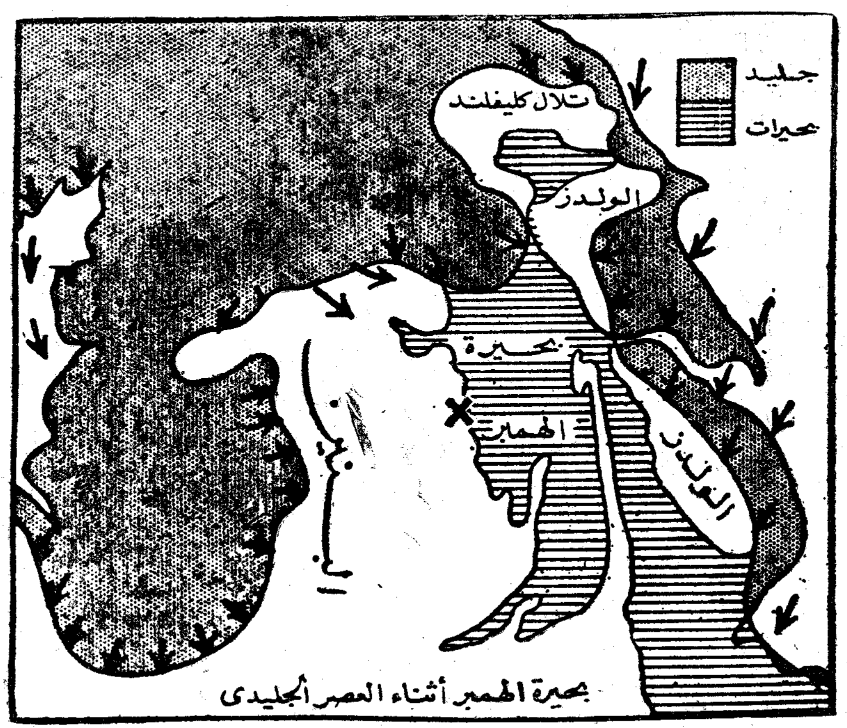


شكل (٣٢) دورشستر وميدن كاسل (تظهر الطرق الرومانية .. كان الطريق الذى يتبع سفوح الجبال قائما قبل الحكم الرومانى)

وكانت هناك مدينتان تشغلان مثل هذه المواضع هما دونكستر Doncester والى Ely وكانت المدينة الثانية تقوم على تكوينات ظاهرة للعيان مما يسمى بالرمال الخضراء Greensand تتوج ذراها الصلصال والجلاميد (تكوينات ركامية من أثر الجليد) Boulder Clay التى كانت تظهر فى شكل تل يشرف على المناطق السهلة المحيطة التى تتكون من اللبد النباتى والتى كانت دائما عرضة للغرق وبخاصة اذا اتفق هبوب العواصف الشمالية الشرقية مع أوقات المد العالى وهطول المطر الغزير

أما المدينة الاولى فقد نشأت على أرض مرتفعة فوق جسور الدون فى بقعة تبعد عن المنطقة المنخفضة المعرضة للفيضان والتى تقع الى الشرق بعدا كافيا .

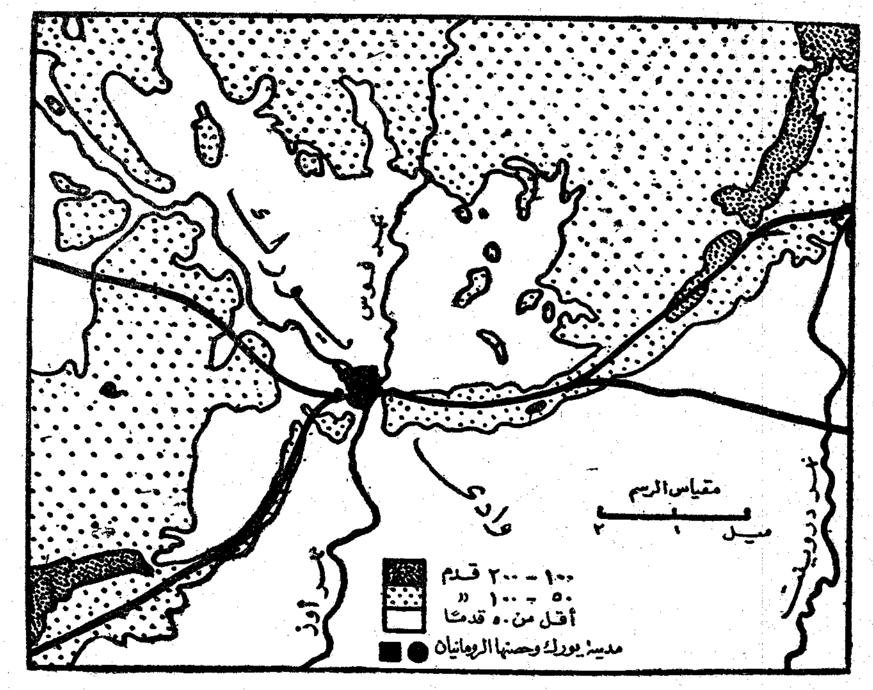
وقد قامت دونكستر فى أول أمرها على طريق الشمال العظيم Ermine Street كمدينة رومانية ، مثلها فى ذلك مثل كمبردج فى موضع يتيح للمسالك التى تمتد بين الشمال والجنوب الظروف المناسبة لتحف بالسهول التى تنتشر بها المستنقعات



شكل (٣٣) بحيرة الهمبر أثناء العصر الجليدى
(الصليب يبين موقع بلدة دونكستر)

وتقوم مدينة يورك التاريخية فى بقعة تسترعى الانتباه ، اذ تنهض المدينة على نطاق ضيق من التلال يمتد معترضا وادى يورك Vale of York المنخفض (انظر شكل ٣٤) ، ويمثل هذا النطاق ركاما جليديا Moraine أى تكون من تراكم فتات الصخور التى أرسبتها الانهار الجليدية أثناء العصر الجليدى . وكانت هذه التلال الركامية تمثل أكثر المسالك ملاءمة لعبور الوادى بين Yorkshire Wolds فى الشرق وتلال بينين Pennine فى الغرب . فالى شمالها حيث كان يغطى الركام من الجلاميد والصلصال معظم الوادى كانت تنتشر الغابات التى تشمل غابة جالترز Galtres ، أما الى الجنوب حيث كان الطمى من رواسب البحيرة يغطى قاع السهل فقد كان يعوق اختراقه مساحات من المستنقعات

وقد كان هناك فى الواقع طريق قد نشأ قبل العهد التاريخى يمتد على طول تلال الركام الجليدى من Wolds التى كانت تمثل منطقة مهمة للعمران والسكنى فى عصور ماقبل التاريخ ، وقد اختار الرومان الذين كانوا — دون ريب — يستخدمون هذا الطريق البقعة التى يخترق عندها نهر أوز Ouse



شكل (٣٤) : البقعة التى نشأت فيها يورك
(الطريق الذى يتتبع تلال الركام الجليدية بين الطرق الرومانية يتفق مع مسلك كان مستخدماً فى عصر ما قبل التاريخ)

تل الركام كما يتلقى رافده نهر فوس Foss لتشييد حصن بها ، وتشبه يورك دونكستر من حيث أن السفن المحيطة الصغيرة تستطيع أن تصعد فى النهر لتصل اليها عن طريق الهمبر والاوز Ouse ، وقد أضحت بعد قيامها ملتقى مهما للمسالك . فقد كانت تمتلك حتى التسعينات من القرن الثامن عشر أول قنطرة عبر نهر أوز Ouse (١) ، اذ كان لا مندوحة لمن يرغب فى عبور النهر نحو المصب من موقع يورك من ان يستخدم مركبا

ولا نستطيع ان نمضى أكثر من ذلك فى سرد كل أنواع البقع أو المواضع التى تقوم فيها المدن الداخلية ، ولكن مما يسترعى الانتباه فى انجلترا علاقتها الوثيقة بالانهار ، فبعض هذه الاماكن تمثل نقطا طبيعية لخوض مياه الانهار مثل ولنجفورد Wallingford وقد أسسها الانجلو سكسون على نهر

(١) أقيم فى التسعينات من القرن الثامن عشر قنطرة خشبية Leaf-bridge كانت تفتح لمرور السفن عبر نهر أوز Ouse نحو المصب عند بلدة Selby من يورك ، فاذا أراد راكب السيارة الآن أن يعبر الاوز أسفل يورك ، فعليه اما أن يدفع رسما عند سلبى او يعبر عند Cawood او Goole

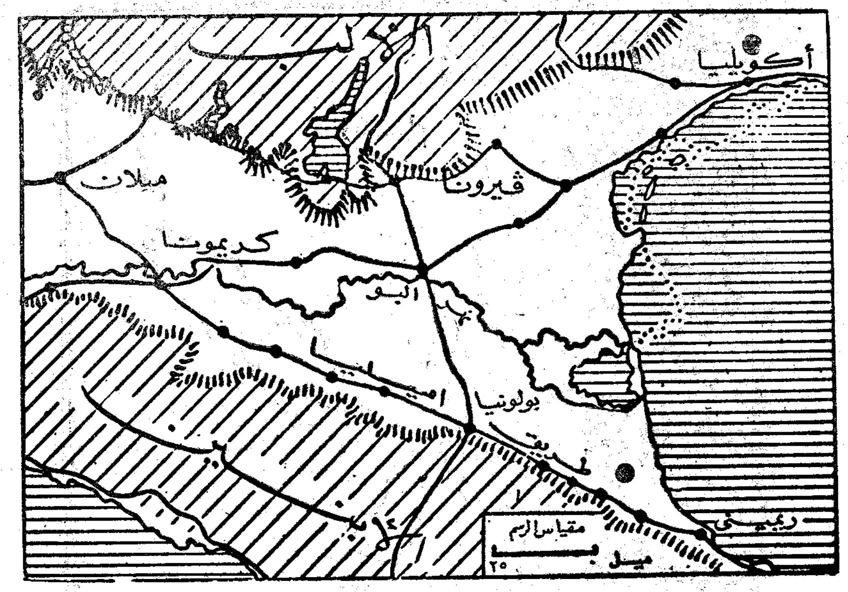
التيمز (١) ، والبعض الآخر كشفيلد تقع عند نقطة التقاء الانهار (٢) ، كما ان البعض الثالث مثـــل نورويتش Norwich وكنتربرى Canterbury تشغل أرضا مرتفعة صلبة عند نقط بدء الملاحة أو بالقرب منها ، سواء أكانت ملاحة السفن الصغيرة التى تعبر المحيط أو السفن النهرية . ولكن رغم تباين الظروف الخاصة بشكل سطح الارض أو المناخ تنأى المدن ــ رغم ذلك ــ عن الانهار التى لاتصلح للملاحة والتى تتعرض للفيضانات العنيفة ، وينطبق ذلك على كثير من أراضى البحر المتوسط

وقد ذهبنا فيما سلف الى أنه يمكن ان نتتبع مدنا تنتظم صفوفا تمتد على طول منطقة التقاء بيئات طبيعية متباينة ، ويمكن ان نشير على سبيل الايضاح الى بعض أمثلة خاصة تظهر فى شكلى ٣٥ و ٣٦ ، فكثير من مدن السهل الشمالى فى ايطاليا تمتد متراصة فى صفوف على طول مناطق تتجه من الشرق الى الغرب فى محاذاة محاور الالتواء الالبى والابنين فقد أنشأ الرومان على طول النطاق من الاراضى الصالحة للزراعة والتى تتوافر فيهـــا موارد المياه الواقعة عند سفوح الابنين السفلى ــ طريق Aemilia كما أسسوا مدنا كثيرة (انظر شكل ٣٥)

وقد قامت هذه المدن على ضفاف الانهار التى تهبط من الجبال صوب السهل اذ تمتعت بمواقع بديعة لتصبح أسواقا لقاطنى الجبل والسهل على السواء . ومما له دلالته ندرة المدن التى نشأت على ضفتى نهر البو الذى يذهب متعرجا ببطء فى وسط سهل فيضى مترامى الجوانب كثير المستنقعات . كما يبدو قيام المدن على شكل نطاقات تمتد على حافة سهل اسكتلندة الاوسط حيث تحف بأراضى المور فى مرتفعات اسكتلندة الشمالية واسكتلندة الجنوبية ، كمـــا يمكن ان نلحظ امتداد المدن فى خطوط عند حـدود ويلز بالقـــرب من التقاء هضـــبة ويلز بما فيها من مراتع الاغنـــام ومراعى الماشية من جانب ، والمنخفضات التى تختلط فيها حرفة الرعى والزراعة من جانب آخر ، وتعد أوزوسترى Oswestry وركسهام Wrexham من أمثلة تلك المدن (انظر شكل ٣٦)

ونستطيع أن نذكر فى هذا الصدد كثيرا من المدن التى تقع عند السفوح السفلى للتلال ومدن الاســـواق التى تحيط بهضبة دارتمور Dartmoor المرتفعة وبحافتى جبال البنين التى تضم فيما تضمه ليدز Leeds وويكفيلد Wakefield ومنشستر Manchester (انظر شكل ٣٧) ، ورغم ان الانهار التى تقع بالقرب منها هذه المدن الثلاثة غير صالحة للملاحة ، فقد

(١) أنظر هلير بلوك Hilaire Belloc فى الـكتاب المسمى Historic Thames (١٩٠٩)
(٢) وقد كان للانهار التى تلتقى عند شفيلد أهمية لا باعتبارها طرقا ملاحية ولـكن بوصفها مصادر للقوة المحركة

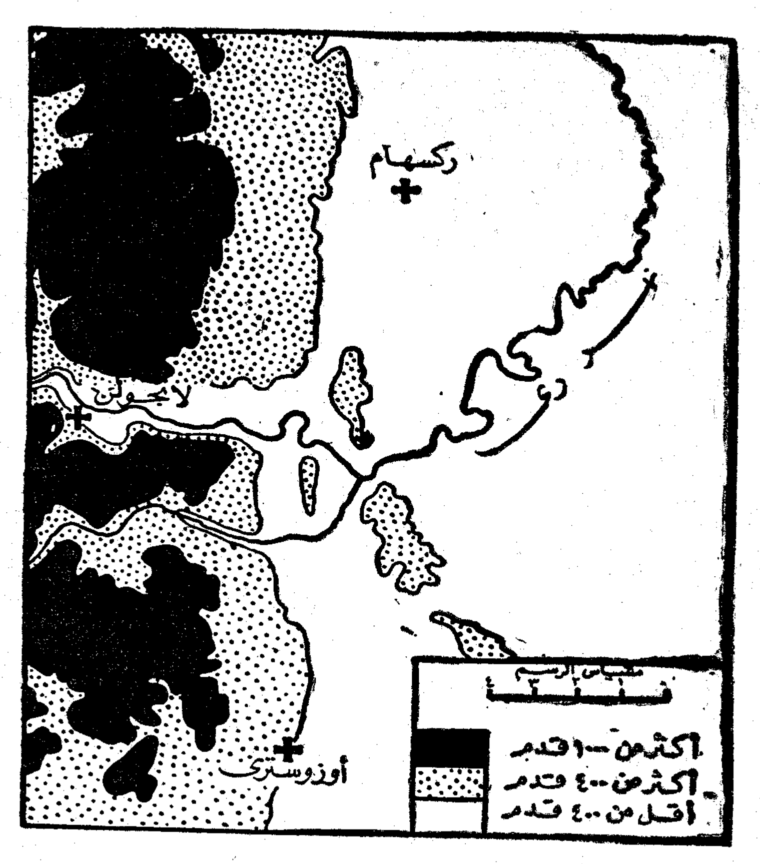


شكل (٣٥) يبين توزيع المدن الرومانية فى سهل ايطاليا الشمالى . (الخط المؤلف من النقط يمثل خط الساحل الحالى ، لان الارض قد تكونت من رواسب البو وغيره من الانهار)

أفادت فى تحديد المسالك التى تصعد الهضبة فى انحدار منتظم

وأخيرا اذا تطلعنا الى البيئات الطبيعية التى لاتتمثل فى أوروبا ، فيمكن أن نلحظ مثلا المدن التى تمتد عند التقاء الجبال والصحراء ، وهكذا قامت مدن حوض تاريم Tarim Basin فى آسيا الوسطى وهى قشغر Kashgar ويرقند Yorkand وخوتان Khotan وتشرشن Cherchen وأكسو Aksu على منطقة هضبية Piedmont Zone من الحصى عند المنحدرات السفلى للجبال فى بلاد يكاد يسودها الجفاف تمتد فى صحراء تكلامكان Taklamakan (انظر شكل ٦١) وقد أصبح من الممكن ممارسة الزراعة فى البقاع المحيطة بالمدن بفضل انبثاق الينابيع التى تنتشر على طول نطاق الهضبة الى جانب المجارى المائية التى تهبط من الجبال فى الربيع

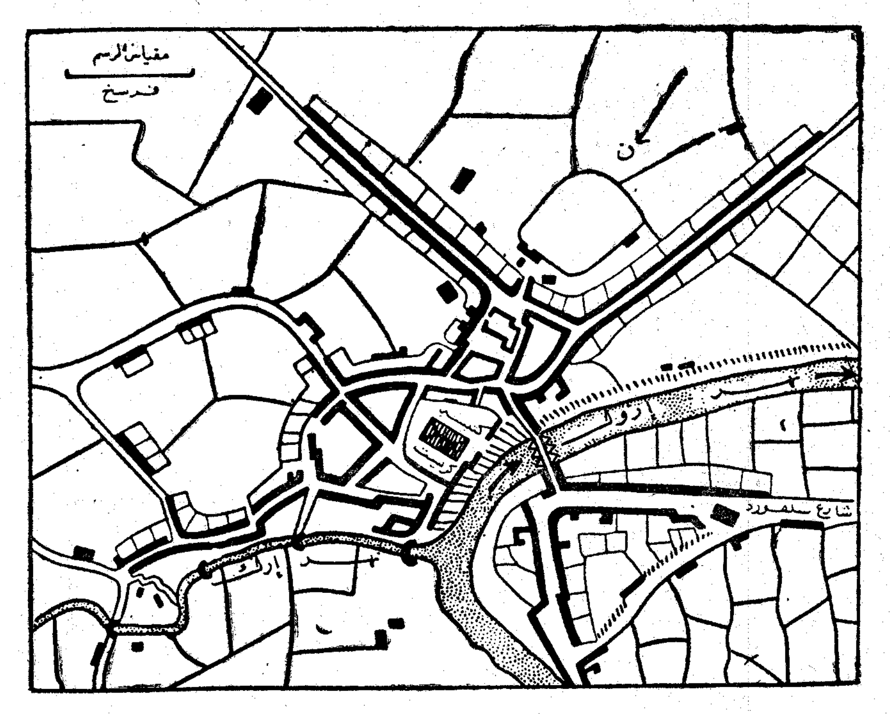
لقد ذهبنا من قبل الى أن اختيار الاماكن التى تقوم فيها المدن ومواقعها يدل ضمنيا على بعض الوظائف ـ على الاقل ـ التى تقوم بها هذه المدن ، اذ يبدو انه كان من الضرورى أن تظهر مدينة فى البقعة التى نشأت فيها مدينة طروادة أو قريبا منها فى الازمنة القديمة حين كان بحارة بحر ايجة يغامرون باقتحام البحر الاسود عن طريق عبور مضايق الدردنيل وبحر مرمرة والبوسفور التى تنتشر بها الالتواءات وتتناثر فيها الصخور ، وكانت هذه المخاطرة تعد عملا تكتنفه المشقة ، فقد كان هناك تيار مندفع فى سرعة على



شكل (٣٦) موقع مدن لانجولن وركسهام وأوزوستري

سطح المياه خلال المضايق من البحر الاسود الى بحر ايجة ، كما كانت الرياح السائدة هى الشمالية والشمالية الشرقية فيما عدا فصل الصيف ، وقد كانت السفن تجد عند مصب النهر الذى كانت تقع مدينة طروادة عليه الامن والحماية ، كما كانت تنتظر حتى تهب الرياح الملائمة وتتزود بالماء وتحصل على المؤن

ولكن هل كان لابد للندن ـ بحكم البقعة التى نشأت فيها وموقعها ـ ان تصبح عاصمة لانجلترا ؟ حقا انه بفضل تقدير الرومان لمزاياها الجغرافية أصبحت المركز الرئيسى لالتقاء المسالك فى جنوب بريطانيا ، حين وضع لها الرومان لاول مرة نظاما يجعل من هذه المنطقة وحدة سياسية ، ورغم ذلك فلم تكن لندن بل يورك عاصمة بريطانيا تحت الحكم الرومانى لانها كانت أقرب الى الاسوار الرومانية ، ولم تصبح لندن أو بالاحرى وستمنستر Westminster



شكل (٣٧) منشستر وسالفورد حوالى ١٦٥٠ م

(طبقا لايكن Aikin .. فقد كانت نواة منشستر فى العصر الرومانى تقع على أرض مرتفعة بين نهرى Irwell, Irk ، يلاحظ بداية ظهور العمران فى شكل مناطق ضيقة أو أشرطة وظهور الحقول التى تحيط بمراكز السكنى كما تتخللها)

عاصمة للبلاد الا فى القرن الثانى عشر حين أصبحت المقر الدائم تقريبا للحكومة والمحاكم . ففضلا عن مزاياها كملتقى للطرق (١) وكميناء فقد كانت لندن تمتاز بنشأتها فى منطقة منخفضة تعد بفضل ماتوافر فيها من ظروف التربة والمناخ والسطح أكثر مناطق بريطانيا سكانا وانتاجا سواء من حيث أحوالها القائمة أو امكانياتها ، وذلك فى العصور الوسطى حين كانت الزراعة تمثل أساس نظام هذه البلاد الاقتصادى (انظر شكل ٣٨) . ومما يسترعى الانتباه انه فى المدة التى مرت بين عهد Domesday Book (١٠٨٦ م) حتى حوالى ١٧٥٠ حين أخذت الثورة الصناعية تغير من نظام توزيع السكان ، ظل نصف انجلترا الجنوبى الشرقى اكثف أصقاعها سكانا (٢)

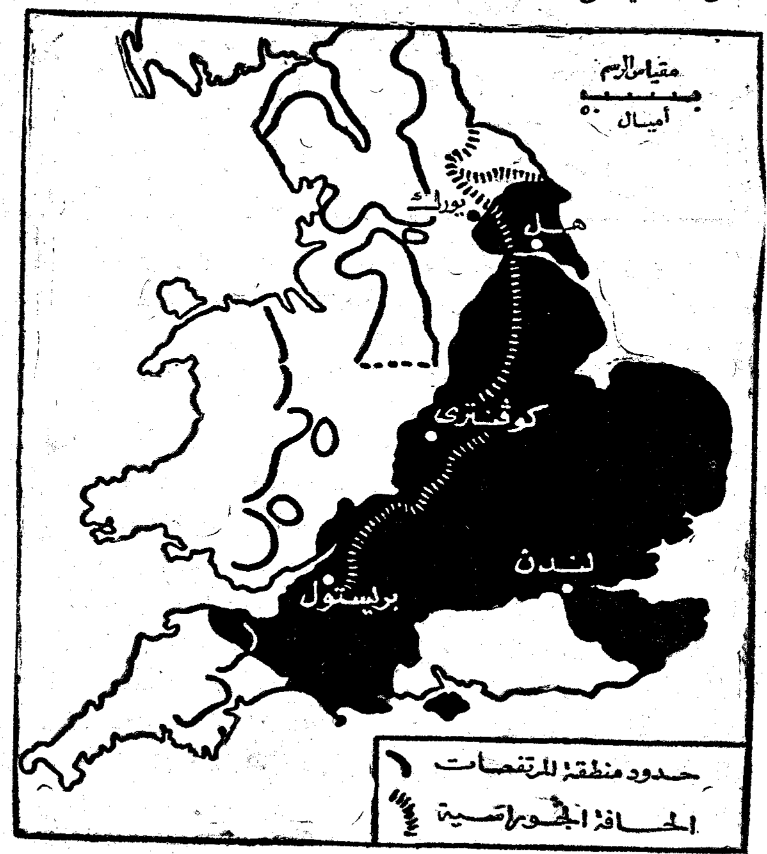
(١) أنظر أشكال ١٧ ، ١٨ ، ١٩ السالفة

(٢) أنظر خرائط السكان فى كتاب An Historical Geography of England before 1800 (١٩٣٦) الذى صدر باشراف H. C. Darby

وقد ذكر كامدن Camden الاثرى الانجليزى ان « المدن والحواضر لا تقل فيما تلقاه من اضطراب وعدم استقرار عما يكتنف ظروف حياة النـاس وسعادتهم منها » ويمكن ان نسوق كثيرا من الامثلة لنجلو كيف تؤدى التغيرات الطبيعية الى اضمحلال أو اختفاء مدن كانت مزدهرة وهى فى ذلك لا تقل فى أهميتها عن التقلبات التى تحدث لاسباب تتصل بالكائنات البشرية

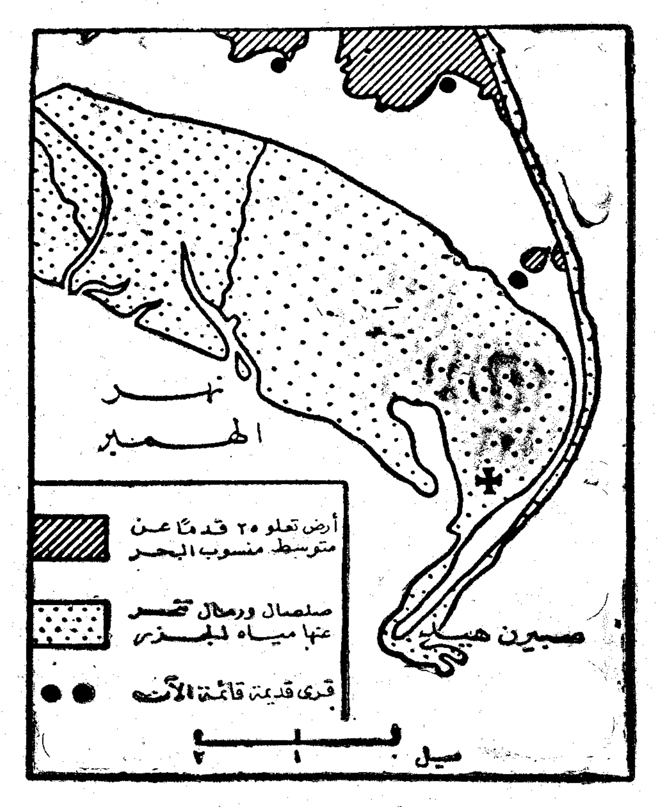
« مدن اندثرت وكانت قائمة من قبل بجانب تل أصبح يخيم عليه السكون أو خليج زايله النشاط والحركة »

فمدينـــة بروج Bruges التى أصبحت الآن مدينة صغيرة الشأن كانت تحتل مكانة مرموقة بين مدن شمال غرب أوروبا من قبل ، فقد أكرهت على أن تتنازل عن مكانتها لانتورب التىانتزعت منها قصب السبق ، لان الطريق المائى الذى كان يفضى اليها قد طمره الطمى فأخذت السفن تبحث عن مياه



شكل (٣٨) يبين اكثف جهات بريطانيا الجنوبية سكانا (حوالى ١٤٠٠م)
(طبقا لـ R.A. Pelkam بعد تعليتها)

الشلد الامينة العميقة ، كمـــا أن مدينـــة رافنزر أود Ravenser Odd التى لم تظل باقية على الزمن الا مدة قصيرة استمتعت بالرخاء الاقتصادى أكثر من قرن ، فقد تحكم فى تاريخها الذى يثير الاسى تحكما قاسيا الظروف الطبيعية ، اذ قامت المدينة على حاجز رملى صغير تكون من رواسب بحرية على مقربة من رأس سبرن Spurn (انظر شكل ٣٩) ، فوجد فيه صائدو الاسماك ضالتهم لتجفيف شباكهم وانزال ما يصيدونه من الرنجة الى البر ،



شكل (٣٩) البقعة التى نشأت فيها رافنزر أود من قبل
(يبين الصليب هذه البقعة نقلا عن J.R. Boyle ، ولكن T. Sheppard
يرى أنها كانت تقع الى شمال شرق موقع سبرن هيد الحالى)

ثم اجتذبت التجار ، اذ بلغت من الازدهار مبلغا أدى الى أن أحست جرمسبى Grimsby الواقعة على الجـانب الآخر للهمبر وطأة منافستها الحـــادة ، وكشفت عن امتعاضها بوضوح ، ورغم انها منحت ميثاقا يتضمن حقوقها من التاج بل كانت ترسل ممثليها الى البرلمان ، فقد اندثرت تماما فى منتصف القرن الرابع عشر حين أغرقتها موجات المد التى أرسبت التكوينات التى

قامت عليها المدينة من قبل

ولم يكن المصير الذى انتهت اليه ما عرف باسم الموانى الخمسة Cinque Ports الواقعة فى سسكس Sussex وكنت Kent أقل عنفا من ذلك فى العصور الوسطى (١) ، اذ كانت هناك قوتان من قوى الطبيعة تعملان فى تضافر على طول هذه السواحل ، ممـا أفضى آخر الامر بعد تجفيف المستنقعات الى اضمحلال النشاط البحرى ..

وكانت احدى هاتين القوتين الطبيعيتين تيارا ينقل الحصى على طول ساحل سسكس فى اتجاه الشرق مما أدى الى تكوين أرصفة بحرية كاذبة False Beaches أما القوة الاخرى فقـد كانت نحت البحر للرؤوس البـارزة فاختفت تماما نتيجة لذلك بعض المدن وبخاصـة أولد هاستنج Old Hasting ، وأولد وينشلسى Old Winchelsea وهما من المدن التى أسسها السكسون ، على حين أخذت المياه العميقة الممتدة خلف ما تكون من الارصفة الحصوية تزداد ضحولتها تدريجيا فى بعض المدن مثل راى Rye و (رومنى) Romney حتى اضحت « موانى الكبرياء المتطامنـة » Ports of Stranded Pride كما أصاب سيفورد Seaford حدث غير مألوف حين فقدت مرفأها الطبيعى ، اذ تحول خليج سسكس أوز Sussex Ouse نحو الغرب ، وبهذا انتزعت منها نيوهافن Newhaven وظائفها ونشاطها البحرى ، الذى كان اختيار هذا الاسم ليطلق عليها موفقا لانها نشأت أثناء حكم الملكة اليصابات على ضفة الخليج الذى تحول عن مكانه الاول (٢)

ولا يتبادر الى الذهن على ضوء الظروف الراهنة أن مدينة Richborough فى كنت ، كانت تمثل ميناء بحريا هاما فى بريطانيا أثناء الحكم الرومانى لانها تقع فى الداخل تماما تحيط بها المروج التى تنمو فى المنخفضات Low meadows ، ولكنها رغم ذلك نشـأت فى أول الامر فى جزيرة تقع وسط قناة ونتسـوم Wantsum Channel الذى كان حينئـذ مياها معرضة لحركات المد لتفصل جزيرة ثانت Thanet عن اليابس (انظر شكل ٤٠) وقد تراكم الحصى الذى كون حاجزا امتد ليغلق المدخل الشرقى لونتسوم Wantsum الذى قام على كثب منه ميناء سـندوتش Sandwich السكسونى ، وقد أفضى ظهور هذا الحاجز أو اللسان الحصوى الى تحول نهرى Great Stour و Little Stour من القاء مياههما فى ونتسوم Wantsum الى القاء رواسبهما

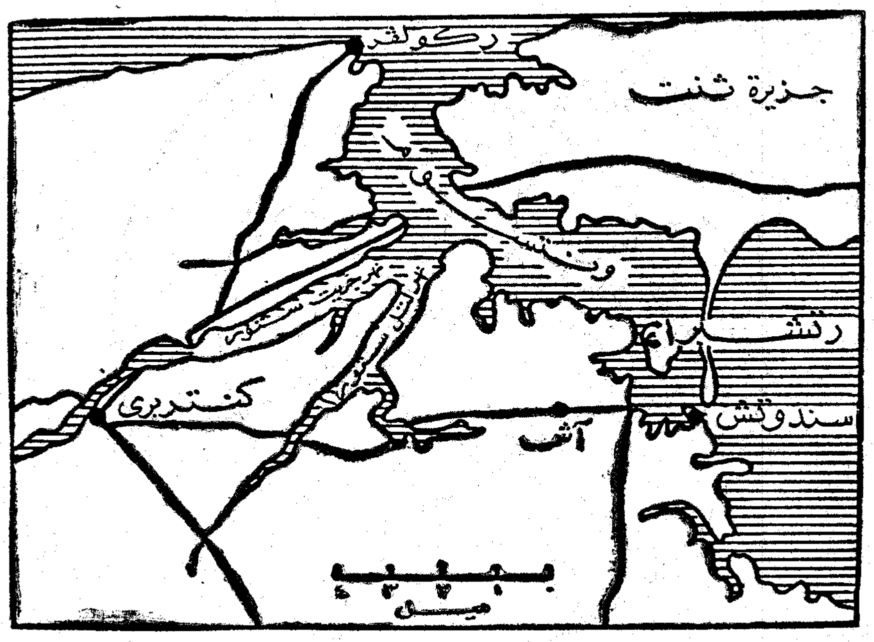
---

(١) أنظر J. A. Williamson فى مقاله « The Geographical History of the Cinque Ports» فى History المجلد الحـادى عشر (١٩٢٦) صفحات ٩٧ — ١١٥

(٢) أنظر F. G. Morris, Newhaven and Seaford فى Geography المجلـد السادس عشر (١٩٣١) صفحات ٢٨ —٣٣

من الطمى فيه ، فضلا على ان مياه المد قد اضحت عاجزة عن تعميقه تعميقا فعالا ، فلم يأت منتصف القرن الخامس عشر حتى أصبح ونتسوم Wantsum يحتوى على الطمى أكثر مما يجرى فيه من المياه ، وهكذا اختفى المجرى الذى كان يتمتع بالحماية ، وتحول الى مراعى مفيدة بفضل أعمال الاصلاح

« وهكذا أصبحت الاغنام الساذجة ترعى الآن حيث كانت السفن التجارية الايطالية التى كانت تفد من البندقية وأرجوزا وغيرهما تغازل النسيم »

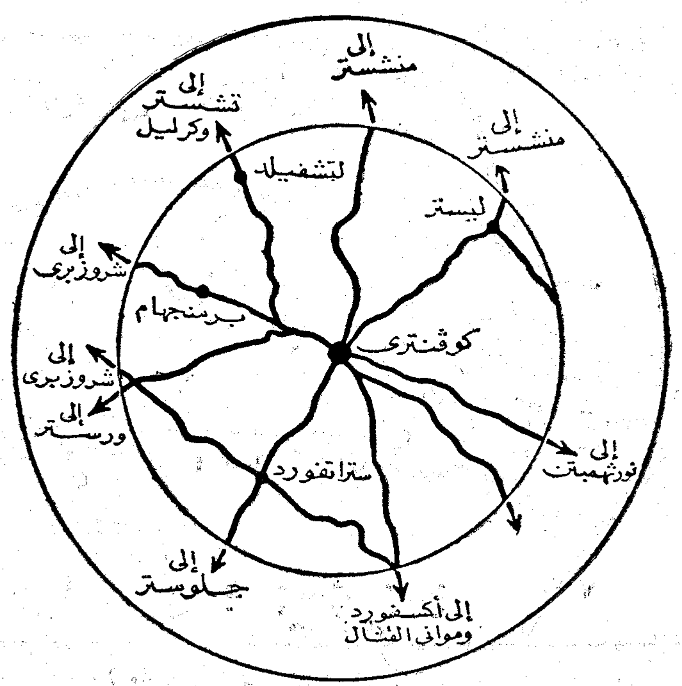


شكل (٤٠) ونتسوم تشانل (تبين الطرق الرومانية)

ولسنا بحاجة فى هذا المقام لان نذكر الكثير من الامثلة لحدوث تغيرات تمخضت عن اضرار كالسابقة ، وقد ختمت تشستر نشاطها منذ منتصف القرن الخامس عشر ، رغم انها قد نهضت فى موقع ملائم على الحافة المطلة على البحر Midland Gate of England لتستخدم كميناء يربطهـا بايرلندة ، ويعزى ذلك الى تراكم الرمال فى خليج نهر دى Dee بل ان بعض الموانى البحرية الواقعة على بحار لا تتـأثر بحركات المد كثيرا قد قاست اضرارا مشابهة ، فقد أصبحت رافنا Ravenna واكويليا Oquileia اللذان كانا من موانى الادرياتيك فى عهد الامبراطورية الرومانية .. مدينتين داخليتين يفصلهما عن البحر مستنقعات قد جففت ..

كما ان ما يصيب الامطار التى تسقط فى البقاع الجافة من ذبذبات الى

جانب العوامل البشرية قد يفسر ماتتعرض له المدن من اضمحلال أو هجرة، فقد أفل نجم مدينة تدمر التى كانت تعج بالنشاط التجارى مثلا ، وهى مدينة تقع فى هضبة سوريا الشرقية رغم ما بلغته من سطوة وسلطان بعيد وما تمتعت به من ثروة طائلة فى القرن الاول الميلادى ، ولم يحدث هذا نتيجة لمنافسة مصر التجارية فحسب بل ربما يعزى كذلك الى حدوث فترة امتازت بجفاف أشد وطأة



شكل (٤١) كوفنترى ملتقى الطرق فى القرن السابع عشر

وأخيرا يمكن ان نشير الى « شكل ٤١ » لانه يمثل ما ذكرناه بصدد مايصيب المدن من صروف الدهر القلب وما يعترى مصائرها من تغير ، فرغم ان سهولة اتصال المدينة بالخارج لا يدل دائما أو من الضرورى ان يشير الى أهميتها النسبية أو مدى اتساع العلاقات التى تربطها بالعالم الخارجى ومبلغ قوتها ووثاقة أواصرها فانها تلقى أضواء قوية مع ذلك ، فاذا القينا نظرة على شبكة الطرق التى كانت منتشرة فى القرن السابع عشر لتبين لنا كيف كانت كوفنترى التى أسست فى القرن الحادى عشر أهم بكثير من مدينة ليستر Leicester الرومانية القديمة ومدينة ليشفيلد Lichfield الانجلوسكسونية ومدينة برمنجهام الوليدة التى كان مستقبلها لايزال مكنونا فى صدر التاريخ

الفصل السادس

التخوم والحدود

« حقا أن الحدود كنصل الموسى ، يتوقف عليها نشوب الحرب أو استقرار السلم ، وحياة الشعوب أو فناؤها»

لورد كيرزون ــ الحدود

مهما تباينت الحقائق التى تميز المنطقة التى خضعت للتنظيم السياسى فى أية دولة ، فان هذه المنطقة تمثل وحدة جغرافية لها موقع معين محدود ، وتضم رقعة يتفاوت وضوح حدودها . وتبدو الدول خلال التاريخ كأنما انشئت انشاء مصطنعا ثم نمت وتباعدت أرجاؤها بل وزالت ، ولكن الواقع انها فى معظم الاحيان ــ بوجه عام ــ تولد وتنمو نتيجة لاحتلال الارض وتعميرها واشاعة النظام فيها ..

فهناك حدود معروفة ومتواضع عليها لكل دولة فى جميع أدوار تاريخها وذلك الى حد ما ، حيث تتاخم مناطق لا تتبع قوانينها ولا تسير فيها الشئون وفقا لرغباتها ، وتضم مناطق الحدود تخوم الدولة التى يجرى فيها خط الحدود الذى قد يكون محدودا معروفا وقد لا يكون كذلك . وتحشد الدولة فى منطقة التخوم عادة شطرا كبيرا من قواها الدفاعية ، كما تتركز حصونها وقلاعها لان الغرض من وراء هذه التخوم هو ان تقيم الدولة سياجا قويا تستطيع الدولة أن تمارس داخل نطاقه وظائفها ، كما يستطيع مواطنوها أن يعيشوا فى كنفها فى أمن وطمأنينة

وعندما نتناول بالحديث حدود الاراضى التى تدخل فى حوزة الدولة ، علينا ان نفرق بين استخدام كلمة تخوم Frontier وهى تعنى منطقة ، وبين كلمة حدود boundary التى يقصد بها خطا . وعلى حين ظهرت التخوم بهذا المعنى فى كل عصور التاريخ ، فان الحدود التى لابد أن تمسح وتبين على الخرائط ، بل وربما توضع علاماتها على سطح الارض تعد شيئا جديدا ظهر فى عصر حديث نسبيا ، وأول مثل نعرفه بوضوح بشأن وضع الحدود وتخطيطها طبقا لشروط معاهدة ، ماحدث فى القرن التاسع حين قسمت امبراطورية شرلمان بين أحفاده الثلاثة (انظر شكل ٤٢) ولكن مع ذلك لم يكن هناك تخطيط واضح لهذه الحدود على أديم الارض

وفى سنة ١٧١٨ رسمت حدود ثابتة حقا على الخرائط بين كل من فرنسا

والاراضى المنخفضة النمساوية ، ولكن ظل الامر مقصورا على تبيان التخوم فحسب حتى آخر القرن الثامن عشر فى أوربا ، ولم تعرف الحدود على وجه التحقيق الا نادرا ، وبفضل تقدم علوم المساحة والخرائط واختفاء التعقيد والتداخل فى حقوق ملكية الارض أضحى من الممـــكن تعيين حدود الدول الاوروبية ببعض الدقة ، ولكن فى الوقت الحاضر بعد ان رسمت حدود الدول الاوروبية بدقة ــ شأنها فى ذلك شأن الولايات المتحدة ــ فلا زالت الحدود التى تظهر فى شكل خطوط غير قائمة دائما فى جهات العالم الاخرى التى تعد أقل سكانا والتى لم تمسح أراضيها الا قليلا



شكل (٤٢) يبين تقسيم امبراطورية شرلمـــان
بمقتضى معـــاهدة فـــــــــردون فى ٨٤٣ م

ولكن الى أى حد أصبحت دراسة تخوم الدول مما يدخل فى نطـــاق الجغرافيا ؟ يجب ان نذكر ان هذه الحدود انما تمثل نوعا واحدا من بين عدة أنواع من التخوم المختلفة التى يألفها الجغرافى ــ بل أن بعضها يعنى الجغرافى من النواحى الجغرافية مباشرة أكثر مما تعنيه التخوم السياسية ، فتوجد مثلا تخوم طبيعية بمعنى الكلمة تمثلها الدلتا التى تمتد فى بحر معرض لحركات

المد ، كسواحل البحر التى تصبح حينا جزءا من البحر وحينا آخر جزءا من اليابس ، فهى تمثل منطقة انتقـــال بين منطقتين تختلفان من النـاحية الطبيعية ، كما ان الجغرافى يتصور وجود تخوم مناخية ونباتية وعمرانية

وفى كل من الحالات ليست التخوم الا منطقة انتقال ، فلا تعد فاصلا حادا صارما واضح السمات ، ولما كانت هذه التخوم تمثل رقعة من سطح الارض فان من الواضح ان نقدر أهميتها الجغرافية ، ومن اليسير أن نتبين أهمية التعرف على الاسس الجغرافية لتخوم الدولة ، فلا شك ان الظروف الطبيعية التى تسود التخوم مما يعنى الدول الملاصقة لهذه التخوم كثيرا ، لان لهـــا علاقة بما تمتاز به طرق المواصلات ووســـائل النقل والدفاع من صعوبة أو يسر

فلو ذهبنا الى القول ــ ولا ينطوى ذلك على زراية أو سوء ظن ــ بأن الدول تؤثر دائما أن تتخذ تخوما لتفصل بينها وبين جيرانها ، فاننا نستطيع ان نتبين أن هناك ظروفا طبيعية معينة تصلح لهذا الغرض تماما ، فقد كانت المحيطات والصحراوات والسلاسل الجبلية ومناطق المستنقعات والغابات .. تعد خير أنواع التخوم الفاصلة وبخاصة فى الازمنة السالفة ، وذلك لاسباب مقبولة تتلخص فى أنها تمثل صعوبات تعرقل انتقال الانسان كما أنها لاتعول عددا كثيفا من السكان

***

وقد أصابت الامبراطورية الرومانية فى اختيار التخوم التى اتخذتها لتفصل بينها وبين العالم الخارجى فى القرون الاولى للميلاد وذلك طبقا لهذه الوجهة من وجهات النظر ، فكانت أمواج المحيط الاطلسى الذى تعـــذر اجتيـــازه تتلاطم على شواطىء بريطانيا الرومانية وبلاد الغال واسبانيا ، كما وقفت فتوح الرومان فى الجنوب عند شمال افريقيا وسوريا وفلسطين على أطراف الصحارى الشاسعة التى تضم الصحراء الكبرى وليبيا وبلاد العرب ..

أما فى الشرق فقد كانت حدود الامبراطورية تمتد على طول الفرات الاعلى الذى كان يشق طريقا عميقا قد حفر فى جبال أرمينية ، كما كانت تصـــل فى الشمال الشرقى حيث كانت تمتد على شواطىء البحر الاسود .. الى أطراف الاستبس الروسية ، أما فى أوروبا القارية فلم تكن الطبيعة قد حبت تخوم الامبراطورية بمثل هذه الحماية الطبيعية ، مما أفضى فى النهاية الى انهيـــارها أمام زحف جحافل الغزاة من الجرمان ، كما كانت تمتد التخوم عبر نهرين كبيرين أو على طولهما وهما نهرا الرين والدانوب اللذان كانا ــ كما هو شـــأن الانهار عادة ــ أصلح كأداة للربط منهما كعقبتين طبيعيتين ، اذ كان الســكان ينزلون على ضفاف هذين النهرين الا حيث تتعذر سكناهم فى السهل الرسوبى

الفيضى ، فضلا على انهما كانا صالحين للملاحة

وقد توخينا حتى الآن الا نستخدم كلمة « التخوم الطبيعية » لانها مثار كثير من البلبلة وسوء الفهم ، فمن الخطأ أن ندعى أن تخوم الدول من املاء الطبيعة ، فكثيرا ما كانت تخفق العقبات الطبيعية الحقة فى أداء وظيفة تخوم للدول . فرغم مايبدو من أن الجزيرة ذات المساحة المتوسطة أو الصغيرة تمثل اطارا يصلح ان تقوم فى نطاقه دولة ، فكثيرا ما ظلت مثل هذه الجزيرة تمزقها الانقسامات السياسية كما حدث فى بريطانيا حتى سنة ١٧٠٧ ، كما أن خط تقسيم المياه فى جبال البرانس الذى يكاد يفصل الآن تماما بين فرنسا واسبانيا ، لم يكن حدا سياسيا فاصلا خلال عصور التاريخ

و « التخوم الطبيعية » تعبير يطلق أحيانا على العقبات الطبيعية كالهيمالايا التى توفر الكثير من أسباب الامن والطمأنينة ، كما استخدمت كرداء أو ستار يخفى وراءه الاطماع السياسية ، فتسمى بهذا الاسم التخوم التى من شأنها أن تضيف الى رقعة الدولة ، وهكذا ادعت فرنسا أن تخومها الطبيعية تمثل الرين والالب والبرانس التى كانت تحيط ببلاد الغالة الرومانية ، وهى تمثل منطقة أكثر اتساعا نشأت منها فرنسا فى القرن التاسع (انظر شكل ٤٣)

***

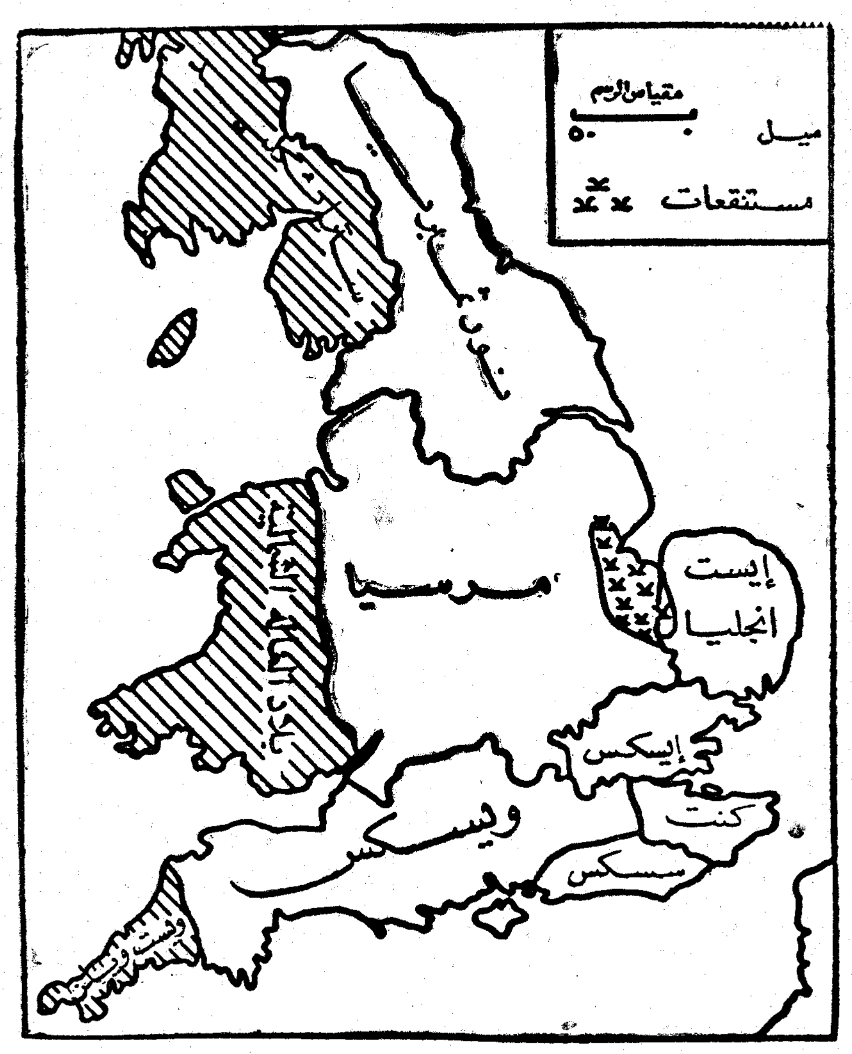
ونستطيع أن نستمد من ممالك انجلترا الانجلوسكسونية فى أول عهدها بالظهور أمثلة توضح كيف كانت التخوم فى العصور القديمة تميل الى أن تساير أو تتفق مع امتداد الاراضى « السلبية » حيث المواصلات صعبة والعمران نادر الى حد بعيد (انظر شكل ٤٤) وكانت تقع حدود هذه الممالك وتفصلها بعضها عن البعض الآخر أراضى الغابات والمستنقعات والاراضى المور Moors وساحل البحر . ولايزال بعض هذه الممالك يمثل مقاطعات تحمل الآن الاسماء القديمة مثل كنت Kent ، سسكس Sussex ، فقد ساعدت المنطقة المتسعة من الاراضى المنبسطة التى تغطيها المستنقعات واللبد النباتى والطمى والتى تقع حول واش Wash على عزل ايست انجليا East Anglia عن مرسيا Mercia ، كما فصلت الغابات الكثيفة التى كانت تنمو فى التربة الرطبة الصلصالية فى الويلد والرومنيمارش Romney marsh, weald مملكة الجوت فى كنت Kent عن مملكة السكسون الجنوبية South Saxon Kingdom — كما كانت تمتد تخوم نورثمبرلند Northumberland وهى أكثر الممالك تطرفا نحو الشمال — بين الهمبر حتى تشرف على الساحل الجنوبى Firth of Forth وتصل حدودها الغربية الى المنطقة القليلة السكان فى أراضى المور المرتفعة فى البنين ومرتفعات اسكتلند الجنوبية

وكانت هناك فى العصور الوسطى منطقتان من مناطق التخوم تتباين ظروفهما



شكل (٤٣) يبين حدود بلاد الغالة فى العهد الرومانى ، وفرنسا فى القرن التاسع

الطبيعية وتقسمان بريطانيا سياسيا ، ففى الشمال كانت الحدود بين انجلترا واسكتلندا تتفق وامتداد مساحة واسعة من الاراضى المرتفعة المقفرة النادرة السكان (انظر شكل ٩) ، أما فى الغرب فقد كانت التخوم بين انجلترا وويلز تمتد فى منطقة منخفضة مما يجعل الاتصال بين البلدين سهلا ، وعلى ذلك بينما كانت حدود اسكتلندة تمتد من الناحية الطبيعية فى تخوم انفصال ، كانت حدود ويلز تعد من تخوم الاتصال والربط



شكل (٤٤) يبين الممالك الانجلوسكسونية فى القرن الثــــامن
(ظلت المنطقة المظللة كلتية فى لغتها وتنظيمــــها السيـــاسى)

ولم يتم توحيد بريطانيا السياسى الا ببطء ، فلا زال هناك الكثير مما يذكرنا بالوحدات السياسية السابقة التى اندمجت فى بريطانيا القائمة الآن ــ كالحدود الادارية لانجلترا واسكتلندة وويلز ، وبقايا اللغات الكلتية فى ويلز ومرتفعات اسكتلندة ، وبازدياد الوعى القومى بين سكان ويلز واسكتلندة . وتعد دراسة الجغرافية التاريخية للتخوم فى بريطانيا موضوعا على جانب كبير من الاهمية ، ولكن لم يتناوله البحث الا فى بعض نواحيه ، وسنحاول هنـــا

ان نستعرض بايجاز تاريخ الحدود بين انجلترا وويلز من الناحية الجغرافية

ولنبدأ بذكر الحقائق الطبيعية ، فهل هناك اقليم طبيعي يمكن تمييزه عن بقية بريطانيا الجنوبية ، يقابل بوجه عام ويلز كما تظهر الآن فى شكل وحدة ادارية ؟ يبدو أن الاجابة هى نعم ، رغم ان الحدود البرية لمثل هذا الاقليم موضع خلاف وتحتاج الى بعض المناقشة ، اذ تبرز شبه جزيرة متسعة ممتدة من بريطانيا نحو الغرب بين خليج دى Dee فى الشمال وقنال بريستول Bristol Channel فى الجنوب ، واذا كان شكل الساحل يبين بوضوح حدود ويلز فى جوانبها الثلاث ، فهل يمكن تعيين حدودها البرية من النواحى الطبيعية ؟ هل تمتد ويلز كوحدة طبيعية الى وادى نهر واى Wye الادنى أو حتى الى خليج السفرن ؟ وهل تمتد أيضا حتى وادى دى Dee أو الى ما وراءه ؟

ويمكن إن نلاحظ انه من الممكن وجود عدة حدود طبيعية لويلز فى جانبها الشرقى ، ويبين شكل « ٢٤ » الحدود الشرقية للمنطقة التى تظهر فيها صخور الزمن الاول أو البليوزوى وهى صخور على جانب كبير من القدم ، وتنتشر فى كل أنحاء ويلز بحدودها الحالية تقريبا ، وان كانت تظهر على سبيل الاستثناء فحسب فى مناطق متطرفة منعزلة فى أطراف الاقليم الذى يعرف لدى الجغرافيين باسم السهل الانجليزى English Plain ، ولكن هل لهذا الخط أو هذه الحدود أهمية جغرافية وجيولوجية ؟

أما من الناحية الجيولوجية فله أهميته اذ يفصل بين صخور الزمن الاول وبين صخور الزمن الثانى ، ولكن لا يمكن ان يكون له أهمية من الناحية الجغرافية الا اذا فصل بين بيئات طبيعية متميزة ، وليس هذا صحيحا ، لان الجزء الشرقى وبخاصة الجنوبى الشرقى من منطقة صخور الزمن الاول تمثل بيئة مختلفة عن بقية هذه المنطقة لاسباب متعددة ، فهى تمتاز بأنها أقرب للأراضى المنخفضة منها للهضبة ، كما يصيبها قدر من المطر أقل ، وتنتشر بها أنواع من التربة أكثر جودة

فلو تناولنا دراسة ارتفاع الارض داخل منطقة صخور الزمن الاول ثم انتقلنا الى دراسة توزيع المطر ، فسنتبين وجود خط أو خطوط ذات أهمية جغرافية لا مراء فيها . ويبين شكل «٣٤» بجلاء الاختلافات بين الهضبة والبلاد الجبلية التى يعلو سطح أكثرها عن ٨٠٠ قدم وبين منطقة حدود منخفضة السطح نسبيا رغم ما يتخللها من كتل التلال الصغيرة المنفصلة ، كما ان شكل «٤٥» يؤكد الاختلاف فى الظروف المناخية بين المنطقة المرتفعة التى تنعم بالمطر الوفير والاراضى المنخفضة التى تقع (فى ظل المطر) وتتلقى قدرا من المطر اقل كثيرا

وأخيرا ـ حتى نستكمل رسم صورة لويلز كما تحددها الظروف الطبيعية ـ من الاهمية بمكان تتبع تأثير ظاهرات المناخ وسطح الارض والارتفاع على امكانيات المنطقة الاقتصادية ، فنجد فيما ذكرناه ما يبرر ان نتصور ان ويلز على ضوء ظروف الارتفاع أو السطح والمطر السائدة ـ أى كما حددناها من الوجهة الطبيعية ـ تلائم حياة الرعى قبل أى شيء آخر ، اذ تجود الحشائش في تربتها الرطبة غير المسامية الرقيقة في أكثر الاحيان كما تتمتع بالشتاء المعتدل ..

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى توجد كثير من العوامل التى لا تلائم قيام الزراعة من برودة الصيف وتجاوز الرطوبة القدر الملائم وجدب التربة وصغر مساحة السهل . فلو كانت الوديان فى العصور السالفة تغطيها الغابات ويغطى قمم الهضبة غالبا مستنقعات اللبد النباتى boggy فقد كانت تتوافر المراعى لرعى الماشية والخيول والماعز والاغنام فى مناطق متسعة تنتشر بها التلال وجوانب الهضبة بل والمراعى الجبلية فى الصيف . أما زراعة الحبوب ـ وهى أساس الزراعة فى أنحاء السهل الانجليزى ـ فقد كانت تحتل مكانا ثانويا فى ويلز ، بل لقد كانت تربية حيوان اللبن واقتناء الماشية ـ حتى فى شمال غرب ويلز وجنوبها الغربى وبخاصة فى انجلسى Anglesey وبمبروك Pembroke حيث تتوافر مساحات واسعة من الاراضى المنخفضة ـ مهمة فى العصور الوسطى شأنها اليوم ..

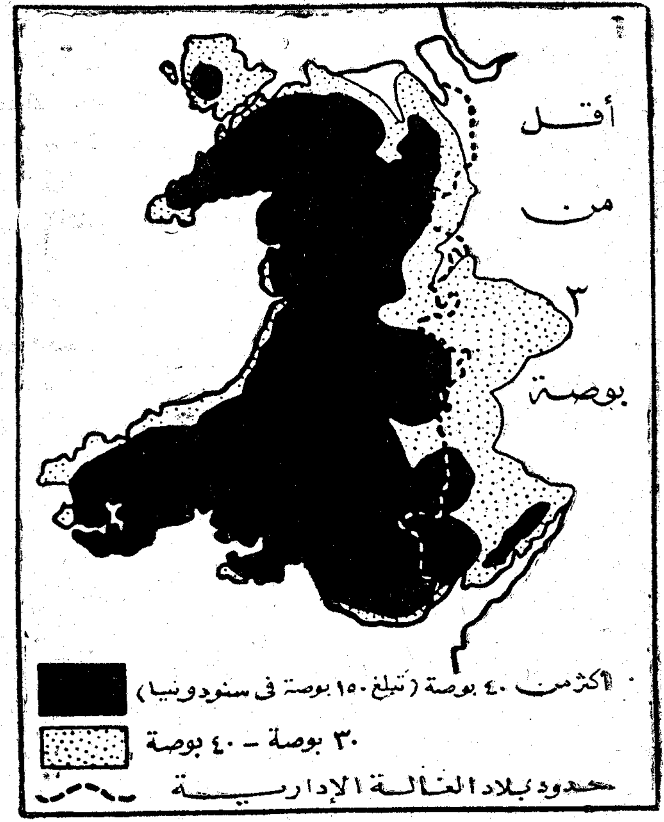
***

وكان الشوفان يمثل نوع الحبوب التقليدى فى ويلز ، كما فى اسكتلندة ـ وهو نوع من الحبوب شديد الاحتمال مما يجعله ملائما تماما لظروف المناخ المحلية . ولدينا أمثلة عديدة خلال التاريخ تشير الى وجود تباين بوجه عام بين طرق المعيشة في ويلز المرتفعة وانجلترا المنخفضة ، فقد قدم لنا جيرالد من ويلز Gerald the Welshman الذى وضع كتابه فى القرن الثانى عشر صورة جديرة بالتصديق عن أسلوب المعيشة فى ويلز (١)

« يعيش السواد الاعظم من السكان معتمدين على منتجات قطعانهم والشوفان الى جانب اللبن والجبن والزبد ، فيتناولون من اللحم قدرا أكبر مما يأكلون من الخبز . ولم يكونوا يعنون بالتجارة أو النقل بالسفن أو الصناعة .. فالجانب الاكبر من أرضهم تنتشر فى ارجائه المراعى ، اذ يزرع القليل منها . كما انهم لم يقيموا المدن والقرى والقصور الحصينة ولكنهم كانوا يعيشون فى عزلة فى الغابات »

---

(١) أنظر كتاب The Itinerary through Wales and the Description of Wales, by Giraldus Cambrensis. فى مكتبة « Everyman's Library » (١٩٠٨)



شكل (٤٥) خريطة المطر فى بلاد الغالة ومنطقة الحدود

كما ورد ذكر تمرد الجنود من الانجليز الذين كانوا يشتركون فى الحملات التى كانت تجرد للقتال عند حدود ويلز فى القرن الثالث عشر ، لان غذاءهم كان من اللحم واللبن ، على حين كانوا قد اعتادوا بوصفهم سكان السهول ان يطعموا الخبز والجعة Ale ، وأخيرا كان نوع السكن الشائع فى ويلز هو السكن المنعزل كما ذكر جيرالد ، على حين كان الامر على النقيض فى السهل الانجليزى اذ كانت القرية المكتظة مألوفة ، وان لم تكن هى وحدها التى تمثل نوع السكن . ويبدو ان للظروف الطبيعية علاقة وثيقة بانتشار المساكن المبعثرة التى كانت ولا تزال تمثل أكثر انواع السكن ومواطن العمران شيوعا فى ريف ويلز اذا قورنت بالقرى . وموارد المياه كانت موفورة فى كل مكان تقريبا ، كما كانت المزارع المتفرقة أكثر صلاحية لممارسة حرفة الرعى التى تفرضها الظروف الطبيعية . وأخيرا من الواضح ان مرتفعات ويلز قد ظلت ـ لقسوة ظروفها الطبيعية وفقرها ـ حتى تم أول تعداد سنة ١٨٠١ من أكثر مناطق بريطانيا

الجنوبية التى تمتاز بندرة سكانها

وصفوة القول اننا نستطيع ان نجد فى نطاق الاراضى المنخفضة الذى يمتد من Cheshire خلال مقاطعات Flintshire و Shropshire, و Worcistershire و Herefordshire, و Gloucestershire, الشرقية — فى ضوء الظروف الطبيعية على الاقل — منطقة تخوم تلتقي فيها مرتفعات ويلز بالسهل الانجليزى وتأخذ طرق المعيشة فى التباين ، كما كانت تنمو الغابات المتسعة فى هذه التخوم فى العصور القديمة لانتشار التربة الصلصالية فى هذه الارجاء ، فوقفت الغابات عقبة أمام السكان النازحين من انجلترا . ولكن رغم ذلك فقد كانت البقاع المنخفضة المتاخمة للحدود تمثل منطقة سهلة الاتصال اذا قورنت بداخل ويلز ، فكانت منطقة احتكاك فى الحرب والسلم بين الشعوب من سكان التلال والسهول ، ومما جعل الاتصال سهلا أن الانتقال من ويلز الى منطقة الحدود كان أيسر من التحرك داخل ويلز نفسها (انظر شكلى ٢٣ و ٢٤)

***

قد ذهبنا فيما سلف الى الرأى القائل بأنه كان يوجد اقليمان طبيعيان متجاوران ومختلفان تماما من نواحى الجغرافية الطبيعية هما مرتفعات ويلز والسهل الانجليزى ، ولكن متى وفى أية صورة ظهرت هذه التخوم بين الدول والثقافات المتميزة المختلفة لاول مرة ؟ لقد أوضحت آثار ما قبل التاريخ كما تدل على ذلك خرائط توزيع الحضارات المتتابعة (١) ان هناك ما يشير الى وجود منطقة تخوم ثقافية بين الجهات المنخفضة والمرتفعة فى بريطانيا الجنوبية، فقد تلقت بريطانيا الشعوب والافكار من كل النواحي . .

وربما كان من أقدم المداخل المختلفة المدخل الذى يمر بويلز وبعض جهات غرب بريطانيا ، (انظر شكل ٢١) فتطالعنا أدلة تشير الى وجود مناطق حضارية ذات حدود غير واضحة فى كل العصور ، تقع واحدة فى الغرب بوجه خاص تتفق حدودها وامتداد ايرلندة وبريطانيا الغربية ، واخرى قائمة فى السهل الانجليزى ، ولكن لم تكن هناك حدود فاصلة واضحة ، أى لم تكن هناك حضارة خاصة بويلز مقصورة عليها ، فقد كانت ويلز تولى وجهها شطر البحر بوجه خاص فى عصور ما قبل التاريخ أى نحو ايرلندة ، وكورنوول وبريتانى والبحر المتوسط ، ولكنها لم تنج رغم ذلك من تأثير الحضارات القائمة فى السهل الانجليزى . وربما كانت هناك اختلافات عنصرية بين سكان ويلز وانجلترا فى القرن الاول الميلادى حين غزا الرومان جنوب بريطانيا . .

ورغم ان الجزائر البريطانية كانت تسكنها شعوب تتكلم الكلتية فى ذلك الحين ، الا ان هذه الشعوب كانت خليطا من عناصر متعددة وصلت الى

---

(١) أنظر خرائط Sir C. Fox فى كتابه The Personality of Britain (١٩٣٨)

شواطئها فى عصور ماقبل التاريخ ، من بينها جماعات تنتمى لجنس البحر المتوسط الذى نزل على السواحل الغربية ومن ضمنها ويلز ، ومن المحتمل انه دخل بريطانيا من بابها الغربى لان هذا العنصر كان معدوما الى حد كبير فى انجلترا المنخفضة



شكل (٤٦) التقسيم الثقافى فى بريطانيا الجنوبية حوالى ٦٥٠م
(منطقة الاستعمار الانجلو سكسونى مظللة باللون الاسود
نقلا عن S. W. Wooldridge كما ظهر اتجاه Offa's dyke)

ظهرت أدلة واضحة تشير الى قيام تخوم لويلز أثناء الاحتلال الرومانى لبريطانيا ، ورغم أن الفرق الرومانية أكملت غزو انجلترا فى أربع سنوات فقد استغرق اخضاع ويلز نحو أربعين عاما لصعوبة تنظيم وتوجيه الحملات وسهولة الدفاع عن هذه البلاد التى تنتشر فى أرجائها الجبال والتلال ، بل ظلت ويلز حتى بعد أن تم غزوها واخضاعها تمثل منطقة تخوم أو منطقة عسكرية كما كان شأن انجلترا الشمالية واسكتلندة الجنوبية ـ مختلفة ومنعزلة عن

الحضارة الرومانية التى سادت انجلترا المنخفضة .. تقوم فى عزلة عنها

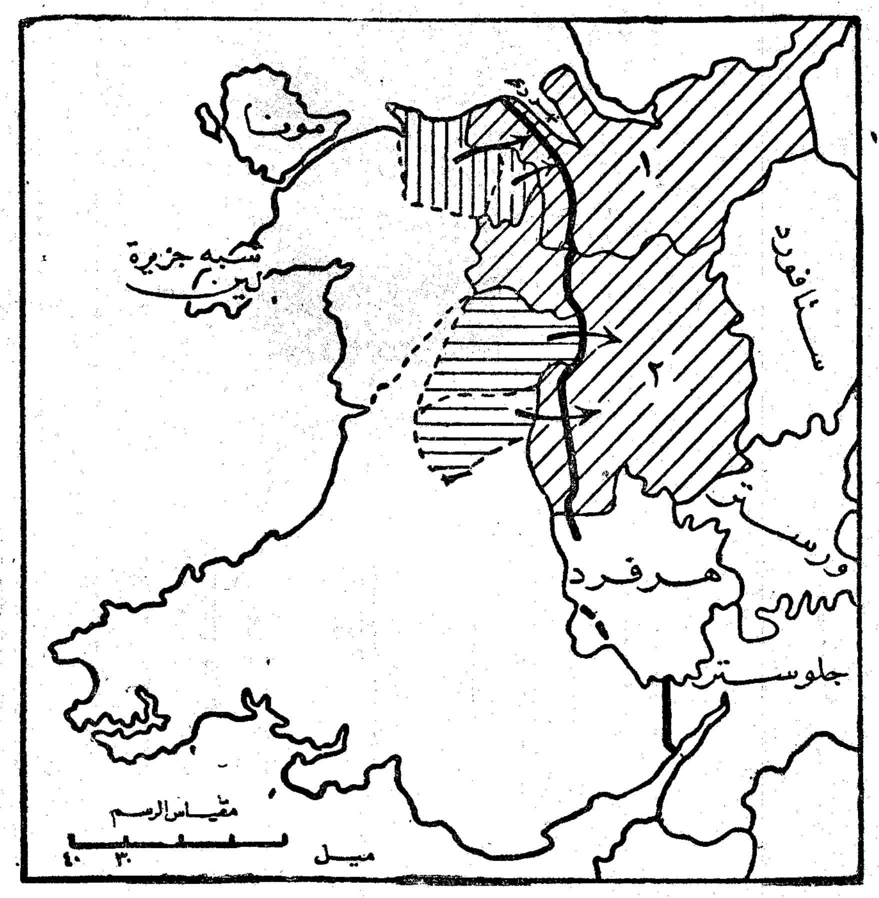
أما من حيث الآثار التى خلفها الرومان وراءهم فى ويلز فقد كانت مقصورة على قلاعهم ، وما رصفوه من طرق حربية ، لان مدنهم (مزارعهم أو مساكنهم الريفية Villea) كانت مركزة فى انجلترا الجنوبية بوجه خاص على حين كانت ويلز تكاد تخلو منها . (انظر شكل ٢٤) ، ومما زاد الاتصال بين ويلز وانجلترا امتداد مناطق الغابات عند التخوم التى ظهرت فى أرجائها بعض مراكز العمران والسكنى التى تأثرت بالطابع الرومانى

ولكن تخوم ويلز بدت أكثر وضوحا فى الفترة التالية حين استعمر انجلترا الانجليز Angles والسكسون Saxons والجوت Jutes ، وربما كانت الفترة بين ٤٥٠ ــ ٦٥٠ م تمثل أول أدوار سكنى الانجلوسكسون ، فقد أصبحنا على حق منذ ذلك الحين فقط فى التحدث عن انجلترا كبلد منفصل عن ويلز . فكلمة ويلزى أى من سكان ويلز Welsh « كلمة بربرية » كما أشار الى ذلك Gerald the Welshman فقد اشتقت من كلمة Wealhas (أو الاجانب) التى أطلقها السكان من الانجلوسكسون على شعوب ويلز وكورنوال وغرب ديفون Devon . وقد وصل الاستعمار الانجلوسكسونى ــ كما يبدو فى شكل ٤٦ ــ سنة ٦٥٠م الى وادى السفرن Severn Valley وان لم يكن قد بلغ مرتفعات ويلز . فهل استنفد هؤلاء المهاجرون من الجرمان قوتهم ؟ أم هل كانت تبدو جبال ويلز وهضابها منفرة يصدف عنها المستعمرون؟ أم كان غزو ويلز عملا غير مأمون العواقب ؟

ولكن أيا كان الامر ، فقد وضعت لويلز حدود واضحة وذلك حين قامت ممالك الانجلوسكسون فى العهود التالية فى البقاع التى أخضعت وامتد اليها العمران ، كأقليم سد أوفا Offa's Dyke كما أطلق عليه بحق ــ على طول الحدود الغربية لمملكة أوفا ملك Mercia فى القرن الثامن ، وكان يبدأ فى الشمال عند بقعة تقع غرب دى Dee لينتهى فى الجنوب على طول وادى واى Wye الادنى ، ولكن هذه التحصينات لشئون الدفاع ــ وهى تتألف من خندق وحائط حصين ــ لم تكن متصلة تماما ، اذ لم تنشأ فى سهل هرفورد Hereford حيث كانت الغابات الكثيفة تمثل عقبة طبيعية ، وقد كانت هذه التحصينات تمتد وسط أراضى مرتفعة تعلو أكثر من ٨٠٠ قدم فيما عدا Eastern Monmouth and Flint فالى الغرب من سد أوفا كانت تقوم ويلز بسكانها ممن يتحدثون الكلتية ، أما الى الشرق فقد كانت توجد مملكة مرسيا Mercia بسكانها من الانجليز ممتدة حتى الهمبر وأعالى التيمز . وايست انجليا East Anglia وقد كانت مرسيا Mercia مملكة تخوم March كما يبدو من اشتقاق اسمها ، تسودها لغة الانجليز

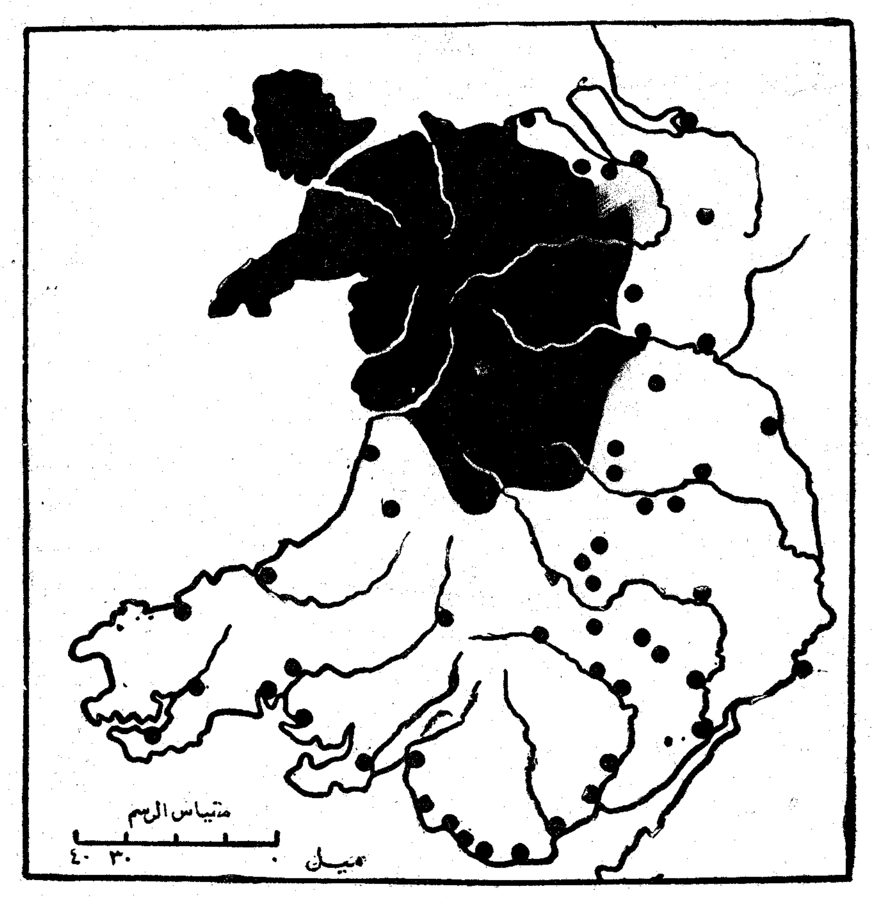
وحضارتهم وتناظر ويلز التى كانت تمثل قلب النطاق الكلتى الغربى ، ولم يتضح بعد الى أى مدى كان سد أوفا Offa's Dyke يمثل الحدود الغربية لمناطق سكنى الانجليز .. هذا اذا صح هذا القول

وكان يبدو للنورمانديين كما كان شأن الانجلو سكســون أن غزو ويلز اما صعب جدا أو غير مغر ، ولذلك كانت سياستهم ترمى بدلا من ذلك الى خلق أمارات Marcher Lordships على طول حدود ويلز أو فى داخلها ، وقد كان ينتظر من لوردات امارات التخوم الذين منحوا استقلالا حقيقيا أن يهبـوا للدفاع عن هذه التخوم ، وان يوسعوا رقعتها باقتطاع أراضى أمارات ويلز كلما استطاعوا الى ذلك سبيلا (انظر شكل ٤٧)



شكل (٤٧)
أملاك لوردات مناطق الحدود فى تشسترو سالوب فى ١٠٨٦ م
(يشار اليها بـ ١ ، ٢ على التوالى ، كما يظهر Offa's dyke)

وقد أسفرت هذه السياسة عن نجاح كبير، فشيدت القلاع كلما أضاف حكام مناطق الحدود أراضي لاماراتهم وذلك لحكمها ، كما أخذ المستعمرون من الانجليز ينتقلون فى أثرهم نحو الغرب (شكل ٤٨) فاستقر المهاجرون فى جنوب ويلز بوجه خاص ، كما أقيمت القرى الانجليزية التى تستخدم نظام الحقول التي لا تحيطها الاسيجة أو الاسوار Open-field system ، ذلك النظام المعروف فى Midland England فى South Glamoryan Carmarthen Pembroke



شكل (٤٨) يبين توزيع قلاع النورمان فى ويلز ومنطقة الحدود
(أشير الى Gwyned بالظل الاسود)

وتزودنا توزيع أسماء الاماكن الانجليزية ــ المناظرة للكلتية ــ بأدلة ترشدنا فى تتبع هذا الاستعمار ، وقد ظهر ان أماكن العمران الانجليزية الجديدة كانت تنتشر فى الجهات المنخفضة من ويلز بوجه خاص ، وهى التى تقع عادة على

مستوى ينخفض عن كنتور ٦٠٠ قدم فى الجنوب و ٨٠٠ قدم فى رآدنور Radnor (١)

وقد تم اخضاع ويلز على يد الملك ادوارد الاول أثناء الفترة ٧٨ ــ ١٢٨٤ ، وقد اتخذت القوة الوطنية فى ويلز حينئذ جونيد Gwyned ، الواقعة فى الشمال الغربى معقلا لها (انظر شكل ٤٨) ، وقد كانت هذه المنطقة تتألف من انجلسى Anglesey و Carnarvon و Merioneth وتتمتع بميزتين جغرافيتين ، فكانت منعزلة ويصعب الوصول اليها الى حد ما وذلك بفضل امتداد جبال سنودونيا Snowdonia ، كما كانت تضم مونا Mona أو انجلسى Anglesey وشبه جزيرة لين Lleyn التى توجد بها أراضى منخفضة « فقد كانت يجود بها القمح عن أية جهة أخرى فى ويلز » أو كما يذكر مثل مأثور قديم « أن مونا Mona هى أم ويلز التى تغذيها » كما أثر فى القرن الثانى عشر أن لغة ويلز فى الجزء الشمالى الغربى كانت أكثر غنى ونقاء ورقة عنها فى أية بقعة أخرى ..

***

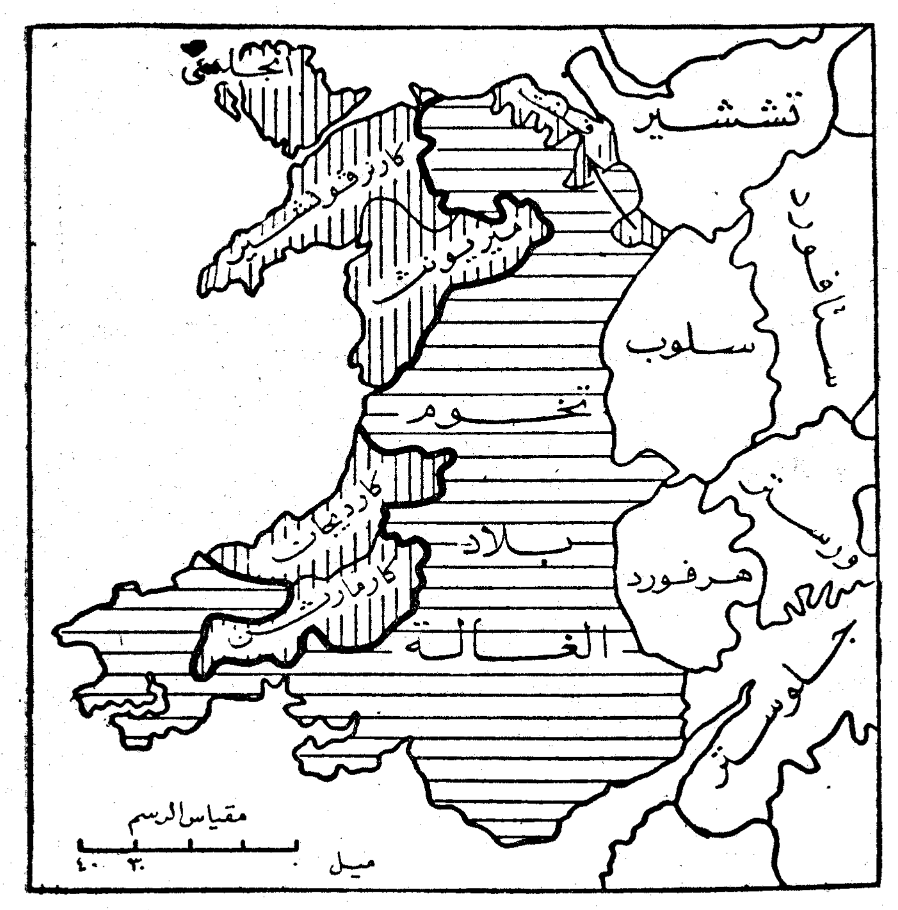
وقد أنشأ الملك ادوارد مقاطعات جديدة يطبق فيها قانون المقاطعات الانجليزى ويتولى شئون ادارتها ــ كما هو الشأن فى انجلترا ــ حكام المقاطعات وهم أكبر الموظفين بها ويدعون Sheriffs ومندوبو الملك القضائيون Coroners « وهم موظفون يعينهم التاج للتحقيق فى الوفيات الغامضة وحوادث الانتحار وغيرها من الجرائم الخطيرة » ووكلاء الملاك Bailiffs ، كما جعل من امارة ويلز Principality (٢) التى اختص بها أكبر انجاله الذى أصبح أول أمير لويلز (انظر شكل ٤٩) . فاختفت ويلز سنة ١٢٨٤ كامارة مستقلة وأصبح اسمها يطلق على المقاطعات الجديدة ، بجانب أراضى أكثر اتساعا لا تنفذ فيها أوامر الملك . وانما كانت تطغى فيها سلطة لوردات أو حكام التخوم على كل ما عداها . أما حدود ويلز التى كانت قائمة حينئذ فقد كانت تحيط بها الحدود الغربية لمقاطعات Chester Salop ، Shropshire ، Hereford و Gloucester الانجليزية التى كان يقع بعضها الى الشرق من مواقعها الحالية

وقد مرت مرحلة أخيرة من تطور حدود ويلز أثناء حكم هنرى الثامن وذلك طبقا لمرسوم برلمانى صدر فى سنة ١٥٣٦ ، فقد اندمجت ويلز كلها من الناحية السياسية فى مملكة انجلترا ، كما قسمت أراضى لوردات منطقة الحدود الى مقاطعات وأدخلت تعديلات على حدود مقاطعات

---

(١) أنظر الخرائط فى South Wales and the March 1284-1415 تأليف W. Rees (١٩٢٤)صفحات ٢٨ ، ١٢٩

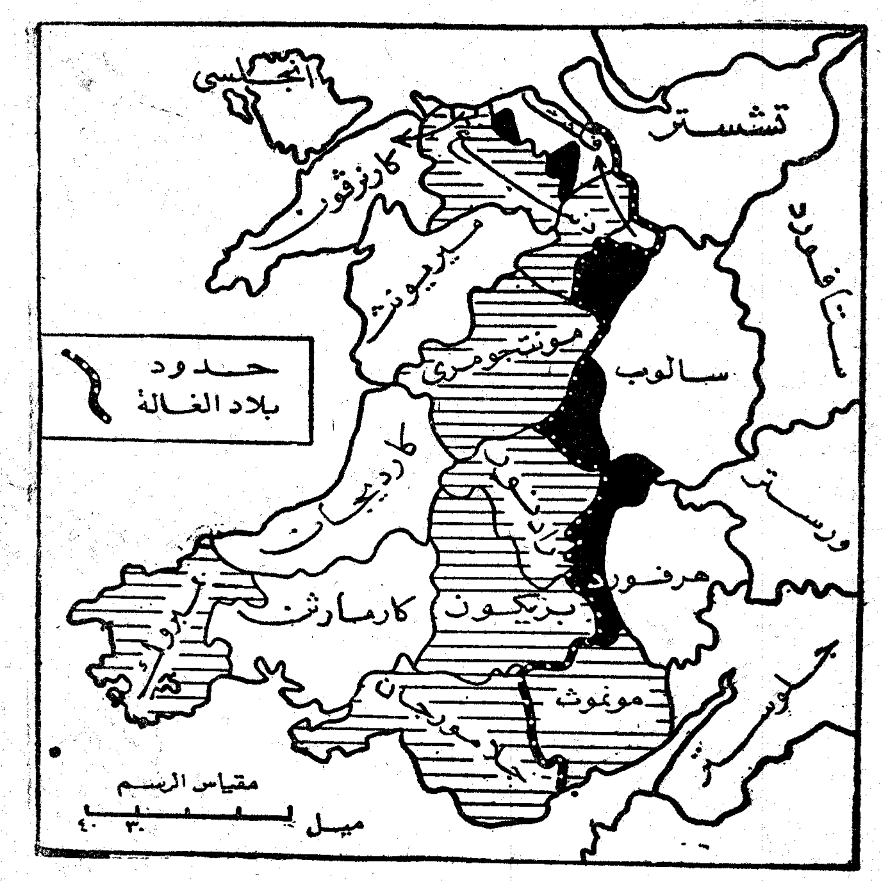
(٢) حين تطلق كلمة Principality ينصرف الذهن الى ويلز حتى الان « المترجم »



شكل (٤٩) : المقاطعات الجديدة للملك ادوارد الاول (مظللة بخطوط رأسية) وامارة ويلز (مظللة بخطوط افقية)

ويلز القديمة (انظر شكل ٥٠) . وقد نفذت هذه التغييرات طبقا لهذا المرسوم سنة ١٥٤٢ ، ومن الامور المتناقضة ان اتحاد ويلز وانجلترا قد صحبه تخطيط الحدود بين البلدين ، ولا تزال تلك الحدود التي تعد ادارية الصبغة وليست سياسية بمعنى الكلمة قائمة حتى الآن (انظر شكل ٥٠)

وقد أصبحت ويلز الجديدة مكونة من مقاطعات ادوارد الاول وشطرا من الاراضي التي ظلت تخضع زمنا طويلا للوردات الحدود ، كما أضيف الى Flint و Shropshire و Hereford ، Gloucester أراضي جديدة ، أما Monmouth فقد انشئت من جديد كمقاطعة انجليزية . ولا نستطيع في هذا المقام ان نناقش الاسس التي تم تخطيط حدود ويلز على ضوئها ، فقد كتب أحد الكتاب المحدثين انه « لا يمكن تبريرها من النواحي الجغرافية

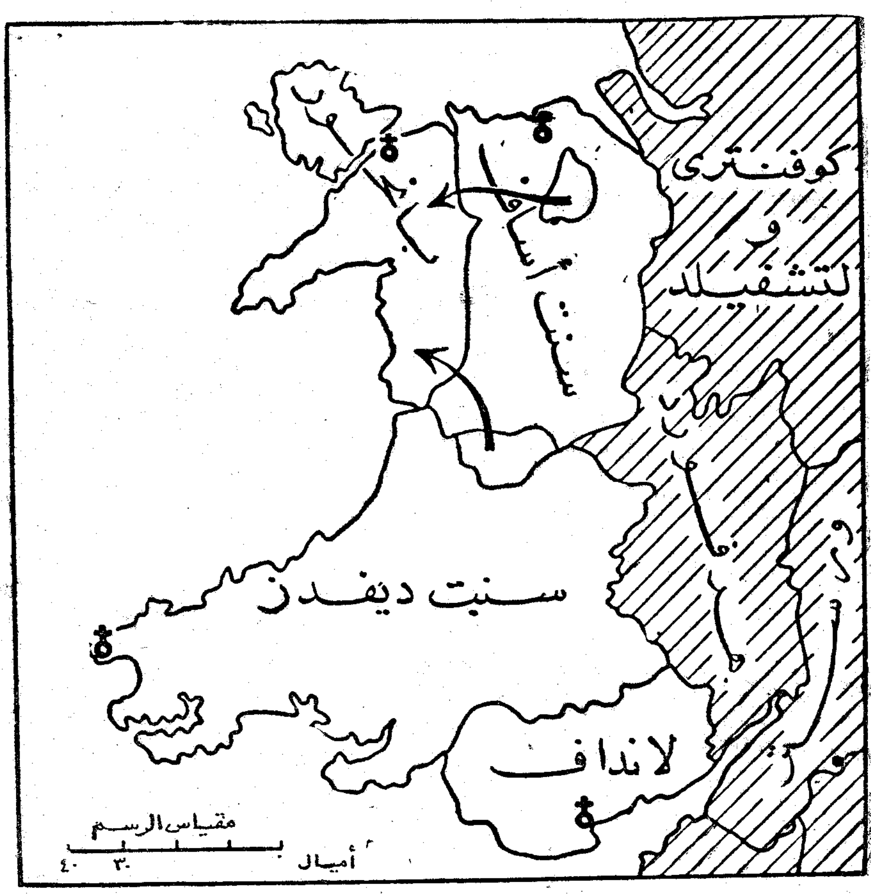


شكل (٥٠) يبين المقاطعات الجديدة للملك هنرى الثامن
(المناطق المظللة بالاسود أضيفت الى مقاطعات الحدود فى عام ١٥٣٦)

والتاريخية أو اللغوية » (١)

ان من المؤكد ان هذه الحدود أصبحت تضم بلدا تصغر مساحته عن الاراضى التى تشملها أمارات الحدود والمقاطعات التى أنشأها ادوارد الاول ، ولكن يبدو ان النفوذ الانجليزى قد أخذ يطغى فى جميع انحاء الحدود ، فضلا على أن هذه الحدود نفسها تضم مساحة أصغر من المنطقة المتسعة التى تشمل مقاطعات ويلز الاربع الخاضعة لحكم الاساقفة (انظر شكل ٥١) . فاذا كان هناك حقا ارتباط قائم بين الحدود الجديدة وتوزيع لغات ويلز وانجلترا

(١) أنظر Tudor Policy in Wales تأليف J. F. Rees Historical Association Pamphlet رقم ١٠١ (١٩٣٥)



شكل (٥١) يبين أملاك الكنيسة فى العصور الوسطى فى بلاد الغالة ومنطقة الحدود

فان تحديد مدى هذا الارتباط ليس واضحا ، ولكننا نعرف أنه لم يحل عام ١٥٣٦ حتى كانت اللغة الانجليزية قد انتشرت كثيرا وبخاصة فى الجنوب الغربى وفى أوساط أعيان الريف فى ويلز Welsh Squirearchy

ومما ساعد دون شك على وقف تدهور لغة ويلز التى يقـــل نسبة من يتحدثون بها اليوم عن ٤٠ ٪ من سكان ويلز .. ترجمة الانجيل الذى طبع سنة ١٥٨٨ الى لغة ويلز (١) .. ولكن لاتخلو حدود ويلز من دلالة جغرافية . فهى تتفق مع الخط الذى يفصل بين الجهات المرتفعة والمنخفضة اذا استثنينا Flint و Monmouth بوجه عام ولكن هذا الخط لا يعد كما ذكرنا فاصـــلا بين بيئات متباينة فحسب ولكن بين ظاهرات اقتصادية وثقافيـــة مختلفة أيضا

---

(١) أنظر مقالة A linguistic Map of Wales : D. T. Williams فى The Geographical Journal المجلد التاسع والثمانين (١٩٣٧) صفحات ١٤٦ – ١٥١

الفصل السابع

البيئة والاقتصاد

« ما الذى يحمل الانسان على أن يركب البحر ؟ .. دعنى من هذا وهات سؤالا آخر .هكذا يقول بيلى ماجى Billy Magee »
C. Fox Smith, Follow the Sea

لم يعد هناك من يعتقد انه لا مناص من ان تمر المجتمعات بثلاثة أطوار فى حياتها الاقتصادية فى تتابع الواحد منها تلو الآخر، وهى دور الصائد ، فدور الراعى ، فدور الزارع . فلا ريب أن الجماعة البشرية قد استطاعت أن تقيم أودها فى العصر الحجرى القديم بصيد الحيوان الوحشى وجمع كل ما يصلح لان يتخذ طعاما من النباتات البرية ، أو مما يلفظه البحر على شواطئه ، بل لا تزال هناك جماعات متأخرة حتى اليوم كالاستراليين من السكان الاصليين الذين يسيرون حثيثا فى طريق الانقراض .. لم تشب عن طوق هذا الضرب من الاقتصاد الذى يقوم على « جمع الغذاء »

ومن الخطأ ان نعتقد ان الزراعة قد أعقبت تربية الحيوان بصفة مطردة وبدون استثناء ، أو أن الناس فى بقاع معينة قد مارسوا هذين النوعين من أنواع انتاج الطعام فى وقت واحد أو متتاليين ، بل الاحرى بالتصديق — كما يبدو — أن بعض المناطق كانت تصلح للرعى دون الزراعة ، هذا وانكان البعض الآخر كان أوفر حظا اذ يصلح للحرفتين معا ، أو بمعنى آخر فان الاقاليم المختلفة كانت تصلح بحكم ظروفها الطبيعية لطرق معينة من الحياة

ولكن الانسان يقف دائما بين ظروف البيئة وبين ما يمكن ان نصفه بأنه رد الفعل الاقتصادى وذلك بفضل استعداداته ورغباته ونزواته الخاصة ، حتى انه لا يمكن التماس أسباب هذه الاستجابة الاقتصادية ودوافعها فى ضوء الظروف الطبيعية ونطاقها وحدها فحسب ... فرغم أن الطبيعة تحد من نطاق ابتكار الانسان وافتنانه ، فهى ليست متباينة الظرف الى حد كبير فقط .. ولكنها على جانب كبير من المرونة أيضا ..

ومن ثم كانت الحلقة الجغرافية التى تربط بين طرق حياة شعب ما وظروف بيئته الطبيعية وان كانت قائمة بادية للعيان فهى ليست دائما مطلقة أو واضحة من تلقاء نفسها بالقدر الذى يعتقده أو يتصوره أنصار الحتم البيئى المتزمتون ، فضلا على أن طبيعة هذه الاسباب تثير كثيرا من المشاكل المهمة

فقد رؤى ان تدخل الانسان بعمله وما يترتب عليه من نتائج مباشرة يمثل الحلقة الحقيقية التى تربط الجغرافيا بالتاريخ ، فلو وجدنا السبيل للتعرف على هـذه الحلقـة بين العلمين ، لادركنا وضع الجغرافيا بالنسبة للتاريخ الاقتصادى

وأن ما يزعمه الغلاة ممن يؤمنون بتأثير البيئة .. بأن طريقة الحيـاة التى تحياها الشعوب المختلفة انما هى من املاء الظروف الطبيعيـة فى بيئاتهم تبسيط كبير للمشكلة لا نجد عناء فى دحضه ، فسكان الجزائر مثلا لايتجهون دائما نحو البحر ، وان كان يبدو ان البحر يدعوهم اليه ، فلم يكن اليابانيون أو الانجليز أو الكورسيكيون بحارة مهرة لعدة قرون ، كما لم تجتذب الاخيرين من بينهم الحياة البحرية كثيرا .. كما أن توافر الموارد الطبيعية من الفحم والحديد لم يغير من اتجاه الصينيين الذين كانوا ولا يزالون زراعا ارتبطوا بالارض بوشائج وثيقة ، كذلك فان المناطق الفسيحة التى تنتج القمـح فى الوقت الحاضر فى جنوب روسيا والولايات المتحـدة كانت مناطق يسودها الرعى كما هو شائع ، وتقوم عليها نظم اقتصادية تعتمد على ممارسة صـيد الحيوان والرعى ، ومن جانب آخر لا يستطيع أحد أن يقطع بصواب الرأى القائل — بأن الناس كانوا يختارون طرق حياتهم فى الماضى دون اعتبار لامكانيات بلادهم — وذلك دون أن يتورط فى الخطأ

وعلى هذا الضوء ، أخذ الجغرافيون يقفون موقفا وسطا أو موقفا « امكانيا Possibilist » بين هذين الرأيين المتطرفين . فيذكر أنصـار هـذه النظرية المعتدلة فى معرض الدفاع عن رأيهم ان أية رقعة من سطح الارض تتيح لساكنيها امكانيات يتفاوت نطاقها ضيقا واتساعا ليختاروا من بينها ما يريدون تبعـا لحاجاتهم ومقدرتهم وأهوائهم . وقد دافع عن هذا الرأى دفاعا مجيدا قويا (ل. فيفر L. Febvre) فى مؤلف يبعث على التفكير(١) ، وهو رأى ينطوى على كثير من سلامة التفكير والحصافة من الناحية المنطقية ، وان كان يبدو أنه فى حلبة الجدل والمساجلة قد اغرق فى الاندفاع بعيدا أثنـاء معارضـته لنظرية الحتم أو الجبر القديمة ..

فمما يسترعى الانتباه ان طرق الحياة الرعوية فى بعض جهات الارض وبخاصة فى البقاع الجافة وشبه الجافة .. قد ظلت دون أن يطرأ عليها تغيير جوهرى الا قليلا منذ فجر التاريخ ، ومن هذا القبيل التشابه فى أساليب الحياة التقليدية فى جهات الصحارى الباردة ، وبعبارة أخرى فان الجهات التى تفرض نمو أنواع محدودة من النباتات يصبح مجال النشاط الاقتصادى

---

(١) مقدمة جغرافية التاريخ « A Geographical Introduction to History, English translation الترجمة الانجليزية (١٩٢٥)

الذي يمكن ان يمارسه الانسان فى ربوعها محدودا أيضا ، على نقيض العروض الوسطى حيث يصبح المناخ أكثر ملاءمة لوجود الحياة النباتية والحيوانية مما يتيح للانسان مجالا أوسع لبذل الجهود لكسب رزقه

وان تباين طرق المعيشة تباينا كبيرا في بلاد لا يبعد بعضها كثيرا عن البعض الآخر ، ليبدو واضحا من العالم القديم الذى عرفه الاغريق القدماء . فقد فطن عدد كبير من المؤلفين الاغريق – مثل هيرودوت واصطرابون – الذين جمعوا فى مؤلفاتهم بين النواحى الجغرافية والتاريخية الى وجود الاختلافات الثقافية بين الشعوب المعاصرة لهم ، واستنتجوا أن هذه الاختلافات ترتبط كثيرا بالاختلاف فى البيئات ، وهكذا اذا كانت طرق معيشة الاغريق والمصريين والاثيوبيين والفرس والاسكيذيون شديدة التباين فلم تكن أسسها الجغرافية بأقل اختلافا وتباينا

***

وسنوضح بعض نواحى التباين فى أساليب المعيشة بالاشارة الى بلاد الاغريق القديمة واسكيذيا Scythia : فكانت بلاد الاغريق القديمة تضم مساحة أصغر بكثير من شبه جزيرة الاغريق الحالية ، وأهم أجزائها شبه جزيرة تقع الى جنوب خط يمتد من خليج Arta فى الغرب الى سالونيكا فى الشرق فضلا عن جزائر متعددة (انظر شكل ١) . وقد كانت هذه البلاد تمثل عالما صغيرا على جانب كبير من التباين ، يضم البحر والجبال والصخور العارية والسهول الصغيرة ، قد قطعته الطبيعة الى بقاع صغيرة متعددة منعزلة ..

وكانت تعد المظاهر الآتية مميزة لبلاد الاغريق .. وهى وقوعها على كثب من البحر الذى تغلغل فيها ، وسيادة مناخ البحر المتوسط فيها ، وما يقوم بين الجبال والتلال والسهول فيها من ارتباط وثيق . ولكن كانت الحضارة الاغريقية تذوى على عتبة العالم المتبربر ، حيث كان يمتد اليابس بعيدا عن البحر ، وحيث كانت توجد مناطق منخفضة واسعة كما فى تساليا ومقدونيا ، اذ يفقد مناخ البحر المتوسط خصائصه المثالية النقية ، كما كان نظام الاقتصاد الاغريقى يتصل اتصالا وثيقا بطبيعة بلادهم التى كانت تحد من تطور هذا الاقتصاد .. فكان أهم ما يواجههم من الصعوبات ، المنطقة الجبلية الواسعة التى تتألف من الحجر الجيرى المسامى بوجه خاص والذى يغطى نحو ٨٠٪ من سطح البلاد ، وان كانت غابات الصنوبر والتنوب Jir والبلوط الدائم الخضرة التى تعد موردا للاخشاب ومرعى خشنا للحيوان تغطى فى بعض العصور مساحة أكبر مما تغطيه الآن

وقد كان المناخ أهم ما حبيت به .. فرغم جفاف الصيف ، فانه كان

يسمح بنمو عدد كبير من النباتات المفيدة فى السهول الصغيرة ومنحدرات التلال ، كما كان من الاهمية بمكان أن الاغريق استطاعوا زراعة القمح والشعير شتاء وان لم يكن يسد حاجتهم ، وقد تمكنوا من زراعة الكروم والتين والزيتون على المنحدرات الجافة المشمسة ، هذا فضلا على انهم وجدوا المرعى لماعزهم وأغنامهم بانتقالهم بين قمم الجبال ووديانها أى النجعة Transhumance أثناء فصول السنة المختلفة ، رغم أن المراعى الجافة الخشنة قلما كانت تكفى أو تصلح لتربية الماشية

ومما نلاحظه أن هذه النجعة كانت أمرا مألوفا دائما فى بلاد الاغريق شأنها فى ذلك شأن بلاد البحر المتوسط الاخرى وغيرها ، ورغم ان الظروف قد قضت باختفائها من بعض الجهات (١) فلا زالت قائمة . وهى تمثل حالة تكيف فيها الانسان تبعا لظروف أملاها المناخ أو النبات الطبيعى ، أما فى الجهات المنخفضة فقد كانت المراعى الطبيعية متوفرة أثناء أكثر الفصول مطرا فحسب أى فى الخريف والشتاء لان الصيف كان حارا جافا معا ، أما على قمم الجبال فعلى عكس ذلك لان المراعى تتوافر فى الربيع والصيف نتيجة لتأثر المطر والحرارة بالارتفاع ، على حين تحول البرودة والثلوج دون نمو المراعى شتاء . ومن ثم أصبح الانتقال الموسمى للقطعان بين المراعى فى الجهات المنخفضة والمرتفعة ضروريا فى تلك العصور التى لم يكن العلف الصناعى فيها معروفا

وقد استثمر الاغريق البحر أيضا ، اذ كانوا يأكلون منه لحما طريا مما يصيدونه من أسماكه وبخاصة التونة ، الى جانب صنفين آخرين من الصدف يمدانهم بمواد تستخدم فى الصباغة ، كما يبدو لهم البحر سبيل الاتصال اليسير ، لان الجبال التى تمتد نحو اليابس كانت تقف حائلا يعوق كل انتقال أو حركة ، وكانت الانهار لا تصلح للملاحة لانها كانت تفيض بالسيول المندفعة أحيانا وتصبح جافة أحيانا أخرى ، وقد ركب الاغريق البحر وسلكوا الطرق البحرية كتجار ينقلون منتجات صناعتهم الى الاسواق الواقعة وراء البحار . ومجمل القول ان البيئة الطبيعية لبلاد الاغريق قد وفرت الاسس المادية للحياة المتحضرة بعد ان بذلت جهودا طائلة لكى تجود بها ، وقد تطلب ذلك — كما قيل — أن يقوم الاغريق بتدعيم الحضارة الاثينية ، اذ يعجز عن النهوض بهذا العبء الاغريق خارج بلاد الاغريق أو أى عنصر سوى الاغريق فى بلادهم . .

وتعد بلاد الاغريق القدماء مثلا يدعم ما ذهب اليه الجغرافى الالمانى ريتر Ritter حين ذكر أن لبعض البلاد تأثيرا تثقيفيا على الشعوب . أما بلاد

---

(١) أفضى استخدام الاعلاف الصناعية وتحويل أراضى المراعى المنخفضة للزراعة الى تضييق الخناق الى حد ما على انتشارها

الاسكيذيين التى كانت أكثر اتساعا من بلاد الاغريق القدماء فقد كانت تبدو للاغريق كعالم غريب ، استرعى انتباههم سواء لما كان يشقه من أنهار عديدة كبيرة يمكن استغلالها أو لاتساع « سهوله المستوية ذات التربة العميقة » (١) (انظر شكل ١ ، ٢١)

وكانت تمتد هذه البلاد بجبهتها على البحر الاسود وبحر آزوف بين دلتا نهر الدانوب ومصب نهر الدون ، أما فى الداخل فتمتد لمسافة يقارب طول سواحلها ــ أي لمسيرة عشرين يوما ــ وكانت تنتهى بلاد اسكيذيا شمالا حيث تنتقل استبس جنوب روسيا الى الغابات أو استبس البساتين ، فتشتد وطأة برودة الشتاء كما يصبح الصيف أكثر برودة من الجهات الجنوبية

***

وقد لاحظ هيرودوت أن ما يصيب اسكيذيا من المطر صيفا أغزر مما يسقط بها شتاء . وهى ظاهرة مناخية لا تميز بلاد الاغريق ، ولو أنها من مميزات النظام القارى فى أوروبا ، وكان الشتاء فى اسكيذيا أيضا طويلا قارس البرودة ، تقسو فيه البرودة حقا على حيوانات الحمل التى تستخدم فى بلاد الاغريق كالبغل والحمار ، وان لم يكن مما يتعذر على الحصان أن يحتمله ، حيث يجد فى السهول المتسعة المكشوفة فى اسكيذيا بيئة ملائمة له ، وكان أكثر انحاء اسكيذيا كما هو الحال الآن خلوا من الغابات

ومن النتائج الطريفة التى تمخضت عن ذلك ماذكره هيرودوت ــ اذا صدقنا روايته ــ من أن الاسكيذيين كانوا يستخدمون عظام الثور كوقود لطهى لحمه ، كما كان نظامهم الاقتصادى يختلف تماما عن نظام الاغريق ، اذ ظلوا متشبثين بأهداب الحياة الرعوية التى نقلوها معهم من آسيا الوسطى ، فرعوا الماشية والخيل فى مراعى الاستبس الغنية كما اعتمدوا الى حد كبير على ألبان الخيل وصناعة الجبن والزبد منها لكى يقيموا أودهم ، على حين كان سكان الجهات الجنوبية القصوى من اسكيذيا التى تصل حدودها الى شواطىء البحر يزرعون القمح والذرة الرفيعة والعدس والبصل والثوم ويقتاتون منها ، بينما كان البعض الآخر ممن يعيشون غير بعيد عنهم يزرعون القمح ليستخدموه « لا فى طعامهم ولكن للاتجار فيه »

ولا ريب فى أن الاقلاع عن حرفة الرعي يعزى الى تغلغل نفوذ الاغريق الثقافى وما أتيح لتجارة القمح من فرص نقله بسهولة عن طريق البحر ، وكانت الانهار الكبرى فى جنوب روسيا قرب مصباتها الخليجية تزودهم بصنف من السمك يستخرج منه البطارخ sturgeon يسمى الدخس ، وكذلك بالملح

(١) هذا الوصف لحياة الاسكيذيين مستمد أكثره من تاريخ هيرودوت Herodotus' History Bohn's edition (١٨٥٤) وقد كتب هيرودوت تاريخه فى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد ، وقد زار فعلا ساحل اسكيذيا

وقد كان الحصان وسيلة الاسكيذيين فى النقل ، وكانت قوافل التجارة تتكون من عربات تجرها الخيل ، اذ كانت التجارة البرية تمثل ناحية مهمة من نواحى نشاطهم الاقتصادى شأن غيرهم من الرعاة بوجه عام

ويجمل بنا أن نذكر بصدد طريقة البدوى فى التفكير وما تمتاز به حياة البداوة من مميزات استراتيجية ما ذكره ملك الاسكيذيين لخصمه داريوس ملك فارس ، انه ليس بحاجة أن يشتبك فى معركة قد استكمل فيها عدته وعتاده لانه كما قال « ليست لدينا مدن ولا أراض زراعية » .. فالاسكيذيون الذين لا توجد لديهم أماكن للاستقرار ثابتة — لان الخيمة وهى مسكنهم المالوف يمكن نقلها كما أن ثروتهم من الخيل والماشية يمكن أن تنقل فى وقت الحاجة فضلا على أن استخدامهم الحصان كوسيلة للانتقال السريع — كل ذلك يمكنهم من التمتع بمزايا دفاعية ضد الاقوام المستقرة من الزراع الذين لا يستطيعون أن ينقلوا الكثير من ممتلكاتهم الى مكان أمين ، كما أنه اذا لحقها الدمار لا يصبح من اليسير تعويضها . فالتلف الذى يلحق أشجار الزيتون فى بلاد الاغريق مثلا يعنى خسارة رأس المال نفسه ، فلا تعود الاشجار لتنتج الثمار الا بعد أن يعتنى بها نحو عشرين عاما

***

وهكذا يبدو جليا أن اسكيذيا التى تختلف تماما عن مدن الاغريق التى أصبحت دولا — من النواحى الجغرافية والاقتصادية — أتاحت لهذه المدن المجال فسيحا قريب المنال لممارسة التجارة ، أما مدن الاغريق التى أسست بالقرب من منافذ الدانوب ذاتها جنوب روسيا فقد كانت حلقات للاتصال ومراكز للتبادل اذ كان يجلب الاغريق اليها نبيذهم وزيتهم ومصنوعاتهم على حين كان الاسكيذيون يأتون اليها بحنطتهم وجلودهم ..

ولما أصبح الاغريقى الحق هو الزارع الذى يعنى بمزارع زيتونه وكرمه وقطعانه ، والاسكيذى المثالى هو الراعى أو مربى الماشية اتضح تماما الاختلاف البين فى ظروف حياة كل منهما . وقد أسرف البعض فى تقدير هذا التأثير مما حدا ببعض المؤلفين الاغريق وغيرهم ممن تبعهم الى الاعتقاد بأن البيئة الطبيعية تؤدى الى تباين ظروف المعيشة وأساليب الحياة . ولذلك فان اصطرابون الذى لاحظ التباين الكبير بين الثقافة المادية عند المصريين والاثيوبيين قال : (١)

« ان الاثيوبيين يحيون حياة رعى فى أكثر الاحيان وهى تخلو من الموارد ، لفقر بلادهم وبعدها عنا ، علي حين يصبح الامر مع المصريين جد مختلف من جميع الوجوه لانهم عاشوا حياة حضرية مهذبة منذ البداية ... يفلحون

(١) اصطرابون « جغرافيا » Geography Loeb edition, by H. L. Jones « الجزء الثامن

الارض ويمارسون المهن »

وقد كان الاغريق دائما يدركون جيدا أن مصر تدين بالكثير لفيضان النيل ، فعرف اصطرابون أن هذه الفيضانات لا تعزى الى « غيث السماء » كما قال هيرودوت بقدر ما يرجع الى ما يسقط من أمطار الصيف فى أثيوبيا . ولكننا لا نستطيع أن نستنتج من دراسة البيئة الطبيعية وحدها ــ مهما افضنا فى دراسة عناصرها المختلفة مثل المناخ والسطح والتربة والثروة المعدنية والموقع وغيرها ــ ما كان يميز الحياة الاقتصادية لتلك البيئة من مميزات فى عصور معينة ، فلا نستطيع على ضوء دراسة طبيعية شاملة فحسب الا أن نصل الى تقديرات أو حقائق تحتمل الخطأ لانها مجرد محاولة ، وذلك فيما يختص بما كان يسود قديما من ظروف اقتصادية ، فنستطيع أن نقرر مثلا أنه فى منطقة معينة يمكن انتاج حاصلات معينة على حين يتعذر انتاج بعض الحاصلات الاخرى ، بينما يمكن الحصول على البعض الآخر بصعوبة أو بالاستيراد فحسب ..

***

كما يمكن أن نذكر أن الظروف الطبيعية قد جعلت النقل ميسورا أو صعبا فى بعض الاتجاهات اما برا أو بحرا ، كما يمكن أن نعرف طريقة المعيشة التى تصلح منطقة ما لها بطبيعتها ، بل ونستطيع أن نؤكد أن المناخ عادة يحدد الموسم الذى يجب أن تزرع فيه المحاصيل التى يمكن زراعتها ، ولكن رغم كل ما قيل فانه من الواضح جدا ان العامل البشرى الذى يختلف من شعب لآخر ومن عصر لآخر يضفى طابعا معينا على الحياة الاقتصادية ، فالطبيعة تملى وتفرض والانسان يسعى للفكاك من ربقتها والتحلل من أسارها ، وتواجه أعمال الانسان نوعين من الحدود والقيود التى تفرض عليها .. مقدراته من ناحية والامكانيات الطبيعية من ناحية أخرى ..

فالبيئة الطبيعية التى تبدو كأنما تضع حدودا معينة لنشاط الجماعات البشرية فى زمن معين ، لها فى الواقع امكانيات يتسع مداها أو ينكمش تبعا للروابط التى تقوم بينها من ناحية وبين الثقافة المادية لهذه الجماعات من جانب آخر . فكل بقعة من سطح الارض هى فى الواقع بقعة جديدة بالنسبة لكل قوم ينزلون فى رحابها ، ويكاد يكون من البديهى أن كل بقعة تضم القوم الذين يجدرون بها ..

ولسنا بحاجة الى أن نذكر كيف تتفاوت القدرة الثقافية بين الشعوب الحالية من حضارة العصر الحجرى القديم الى ما الفنا أن ننعتها بالحضارة الغربية ــ لكى نؤكد أن اية منطقة يمكن أن تستغل بطرق متباينة تبعا لاختلاف سكانها . ولا يصبح الاختلاف مقصورا على اتباع الناس لطرق معيشة مختلفة ، بل ان سطح الارض نفسه يبدو عليه معالم وآثار ثقافية متباينة

ولنتناول بالبحث الاكثر تقصيا الحدود الجغرافية لالوان النشاط الاقتصادى ، فتوزيع المعادن التى تشمل البترول أمر قد فرضته الطبيعة ، أما حيث لا توجد هذه الموارد ، فلا مندوحة للانسان الا أن يفكر فى الحصول على بديل عنها أو يتبادلها مع بلاد أخرى حبتها الطبيعة بها

ويبدو أن الاتجار فى المعادن قد ظهر منذ العصر الحجرى الحديث ، كما اقتضت حضارة عصر البرونز التى تلتها نقل النحاس أو القصدير من بقعة لاخرى ، لان هذين المعدنين الرئيسيين الضروريين لصناعة البرونز قلما كانا يوجدان معا فى منطقة واحدة فى العالم القديم ، كما ان مصادر القوة التى تمثل دعامة الصناعة الحديثة اما أن تحدد الظروف الجيولوجية المواطن التى تتوافر فيها تحديدا دقيقا كما هو شأن الفحم أو البترول ، أو تعتمد على الظروف الطبيعية فى انتاجها كما هو الحال فى توليد القوة الكهربائية من سقوط المياه ، بل ان حركات المد والعواصف التى يمكن أن تصبح ـ اذا نظرنا نظرة بعيدة المدى ـ قوة محركة فى المستقبل حين نستنفد الفحم والبترول لا تتوزع توزيعا عادلا منتظما متجانسا من مكان لآخر

***

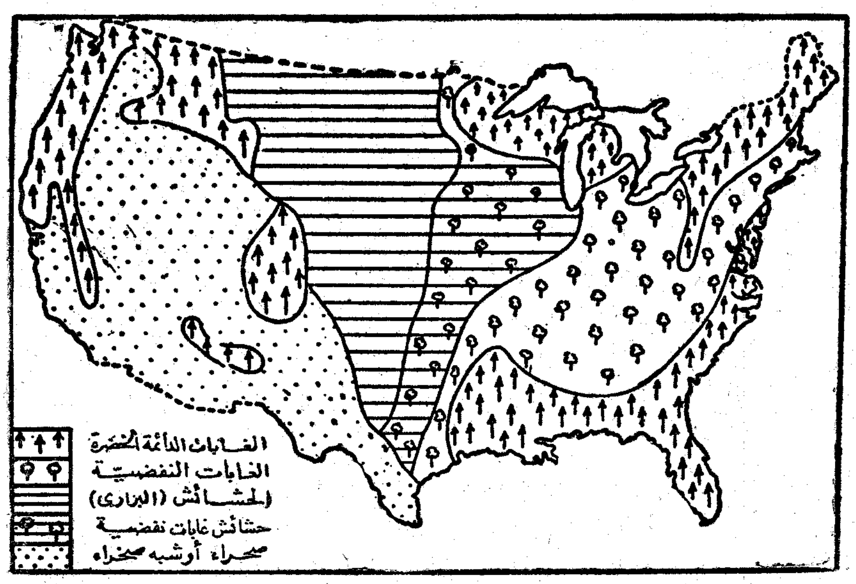
وتفرض الظروف الطبيعية وفى مقدمتها المناخ آثارها المهمة على النباتات التى تمدنا بالمواد الغذائية والخامات ، فالناس يعتمدون عليها بطريق مباشر وغير مباشر لانها تمد الحيوان بغذائه ، ذلك الحيوان الذى تتنوع وتتعدد طرق الافادة منه ، اذ يستخدم كطعام وكحيوان للحمل وكقوة محركة وكمصدر للمواد الخام . وتعنينا دراسة النبات الطبيعى كما نسميه . فدراسة خريطة مهمة فى بحث أية منطقة رغم أن علاقتها محدودة بتوزيع الغطاء النباتى القائم الآن ، الا اذا استثنينا بعض مناطق التندرا والصحراء والمناطق الاستوائية (١) حيث كان تدخل الانسان أكثر صعوبة ، وأقل تأثيرا ، اذا قورن بغيرها ، وقد أزيل غطاء الغابات السابق فى أكثر أصقاع الولايات المتحدة وبخاصة أثناء فترة الثمانين سنة الاخيرة (انظر شكل ٥٢)

ولكن الخريطة التى تبين النبات الطبيعى ذات قيمة من الناحية التاريخية لانها ترسم صورة واقعية فى خطوطها الرئيسية للمسرح الذى كان مجالا لنشاط الانسان فى الزمن الماضى . فهى تلقى ضوءا على ماصادفه من صعوبة أو يسر أثناء حركته وتنقله ، وعلى الفرص التى أتيحت له حين حاول استغلال التربة ، كما أن هناك علاقة وثيقة بين توزيع النبات الطبيعى وبين وضع واتجاه نطاقات وأقاليم المناخ ، ولكن لم تؤد الظروف المناخية المتشابهة

---

(١) يعتقد ان القليل جدا من الغابات المدارية فى أفريقية يعد الآن ـ بحق ـ يمثل الغطاء الاول للنباتات

مع ذلك الى تشابه ظروف النبات الطبيعى فى كل مكان ، اذ لم تستطع النباتات أن تهاجر بنفس السهولة من مكان لآخر ، وصدق هذا القول على أنواع الحيوان أيضا فرغم أن هناك فصائل معينة ترتبط فى توزيعها بأقاليم نباتية معينة ، فهناك أنواع مختلفة من الحيوانات المتوحشة تعيش فى جهات متشابهة فى ظروف حياتها النباتية ، كما يبدو أن العالم الجديد فقير فى حياته الحيوانية الطبيعية



شكل (٥٢) يبين النباتات الطبيعية فى الولايات المتحدة (عامة ومبسطة)

وقد أخذ الانسان منذ العصر الحجرى الحديث على الاقل فى ادخال تعديلات أو تغييرات فى الحيوانات والنباتات البرية فى بيئته ، فقد أعلن حربا شعواء على بعض أنواع النباتات الطبيعية والحياة الحيوانية ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى أخذ فى زراعة بعض نباتات برية واستئناس حيوانات معينة . وقد صادفته فى هذا المجال فرص وظروف مختلفة فى الاقاليم المناخية المتباينة، ففى أقصى شمال أوراسيا مثلا لم يتح المناخ للانسان الا فرصة محدودة سواء لممارسة الزراعة أو استئناس الحيوان ، ففى هذه العروض العليا التى تتجمد تربتها السفلى دائما يتعذر نمو الاشجار والحبوب ، كما أنه لا يسد النبات الطبيعى المحدود ــ كحشيشة البحر وبعض الشجيرات والقليل من حشائش الصيف ــ الا رمق بعض الحيوان قليل الاهمية ، وأهمها الرنة الذى اهتدى الانسان لطريقة استئناسها واستخدامها فى الاغراض الكثيرة كالحصول على اللبن واللحوم والجر والحمل والركوب ..

ولم تكن الفرص المتاحة له أقل تحديدا أو ضيقا فى العروض الدنيا حيث

كان الغنى الطبيعى للغابات المدارية لتوافر الحرارة المرتفعة والامطار الغزيرة يمثل عقبة كأداء وبخاصة انها كانت تأوى حياة حيوانية عاتية تتغذى من هذه الثروة النباتية وحشرات تنفث الاخطار . وقد وجد الانسان فى بعض بقاع الاراضى المتسعة التى تقع بين الصحارى الحارة والباردة مجالا أوسع لنشاطه وابتكاره وبخاصة فى البلاد دون المدارية حيث يحد فصل الجفاف من نمو النبات وانتشار الحشرات

وقد أتاحت هذه الجهات للانسان مزايا كثيرة من حيث ثروة النبات الطبيعى ، فلم تبلغ النباتات هنا مبلغا من الكثافة يقف حائلا دون اختراقها كما هو الحال فى الغابات فى العروض الاستوائية ، لان هناك فترة ركود فى موسم النمو ، فضلا على أن هذه الجهات التى تقع فى العروض الوسطى كانت غاصة بصنوف الاشجار والنباتات الاخرى الى جانب الحيوانات التى يوجد من بينها أنواع من الممكن أن يفيد منها الانسان كما انها كانت صالحة للاستئناس كما اظهرت الاحداث . واخيرا كان المناخ يسمح فى بعض هذه الجهات بانتاج محصولين بل ثلاثة محاصيل فى العام ، ولذلك فان ظروف المناخ الموسمى الذى يتألف من فصل ممطر يأتى فى أعقاب فصل الشتاء اللطيف شبه الجاف تسمح بوجود دورتين أو فترتين للمياه خلال السنة

***

ويمكن أن نميز عدة مساحات شاسعة قد نمت بها النباتات التى زرعها الانسان فى حالة برية قبل ظهور الحضارة ، رغم أننا لا نستطيع أن نعرف بوضوح المواطن الاصلية لبعض نباتاتنا المهمة مثل قمح الخبز أو الشعير (١) . فكانت آسيا الصغرى وفارس وبلاد القوقاز ، وبعض جهات آسيا الوسطى المواطن الاصلية التى نمت فيها أنواع القمح اللين والشيلم وبعض أنواع الكتان والخضروات وأشجار الفاكهة التى تشمل الكروم ، وفى بلاد البحر المتوسط التى تشمل الاراضى الساحلية من آسيا الصغرى وفلسطين وسوريا كانت تنمو قليل من النباتات البرية التى تصلح للزراعة وهى الزيتون البرى Oleaster والتين وقمح أمر Emmer wheat ونوع خشن من الكتان وبعض صنوف الفاكهة

ويعتقد بعض الاخصائيين أن الحبشة كانت الوطن الاول لانواع القمح الصلب والشعير والبن كما كانت المصدر الذى استمدت منه مصر فى وقت مبكر القمح والشعير اللذين زرعا بها (٢) حقا انه مما يلفت النظر تعدد أنواع

---

(١) أنظر بصدد هذه المسائل Habitat, Economy and Society تأليف C. D. Forde (١٩٣٤) Benn's The Origins of Cultivated Plants (١٩٢٨) Sixpenny Library. H. Peake

(٢) انظر الفصل الثامن

الحبوب البرية التى تنمو فى الحبشة اليوم ، كما تستطيع أن تدعى الهند المدارية بأنها كانت أيضا موطنا لنباتات كالارز وقصب السكر وبعض أنواع القطن ، فضلا على ان البرتقال والليمون والخوخ والتوت والشاى وفول الصويا والذرة والشوفان تنتمى أصلا الى الاصقاع الجبلية من الصين الشرقية والوسطى . وأخيرا فان بعض النباتات التى انتشرت زراعتها فى مناطق متسعة وبخاصة الذرة والقطن والطباق والطماطم والبطاطس كانت تنمو فى موطنها الاول فى الجهات المدارية من العالم الحديث ، والواقع أن النبات الاخير ينمو أيضا فى الجهات الاستوائية من أمريكا الجنوبية لان المناخ يصيبه من التعديل فى هضبة الانديز الشاهقة لهذا الارتفاع ما يسمح بنمو هذا النبات المعتدل

***

ويجب أن نلاحظ أن كل مجموعة من النباتات لا تنمو دائما فى أكثر الجهات صلاحية لنموها ، كما انها لا توجد فى كل البقاع التى يصلح مناخها لنمو هذه النباتات ، فعلى حين كان الكتان دون القطن ينمو فى مصر والعراق أثناء العصر الحجرى الحديث ، فقد كان القطن دون الكتان ينمو فى سهل السند فى شمال غرب الهند . كذلك رغم ان مناطق مختلفة كانت ملائمة بصفة خاصة لاستئناس حيوانات معينة لظروف السطح والنبات التى تسودها فلم تكن كل هذه الجهات الملائمة مسرحا لها ، ويعزى ذلك الى ماينشب من تنافس بين الفصائل المختلفة من الحيوان من جانب ، وما ينقصه من وسائل الهجرة فى نطاق واسع ميسور من جانب آخر ، وهكذا ظهر الحصان فى وقت مبكر فى أراضى الاستبس المكشوفة فى آسيا الوسطى وأراضى المراعى الاكثر ضيقا فى أوروبا ، ولكن ظهور الحصان بعد ذلك فى بلاد العرب شمال افريقيا كان بفضل الانسان

وقد يكون من الامور التى تسترعى الانتباه ندرة عدد الحيوانات التى استؤنست والنباتات التى زرعت ، وقد نكون على حق اذا قلنا أن الناس أقبلوا على زراعة كل أنواع النبات التى كانت مجزية ، وانهم استأنسوا ــ وان كان غالبا فى بادىء الامر لاسباب غير اقتصادية ــ أكبر عدد من الحيوان وجدوا أن استئناسه كان مجزيا من الناحية الاقتصادية (١) ومن الممكن استئناسه من الناحية العملية ، وقد كان اتقان الناس لفنون استئناس الحيوان والزراعة ــ وهى فنون عرفت تقريبا منذ نحو خمسة آلاف سنة فى العالم القديم ــ مما مكنها من استغلال الامكانيات الاقتصادية لبيئاتهم التى

---

(١) نعتقد أن استئناس الحيوانات كان عادة لاغراض اقامة حفلات أو كشعائر أو طقوس للعبادات .. فالديك الرومى الذى كان مستأنسا فى المكسيك مثلا ، كان طائرا أليفا يستخدم لاغراض الحفلات وقلما كان يؤكل . انظر C. D. Forde المرجع السابق

ظلت دون استغلال حتى ذلك الحين ، فقد ادخلوا أنواعا جديدة من النباتات والحيوانات محاولين بدون شك اقلمتها فى البيئات الجديدة بطريق التجربة والخطأ ، وهكذا أدخلت أكثر الحيوانات التى تميز أراضى البحر المتوسط اليوم فى ازمنة مختلفة ، واستوطنته نباتات القمح والزيتون المزروع والكروم والموالح واشجار التوت وكثير من أنواع الفواكه القوية الاحتمال بفضل نشاط الاغريق والرومان والعرب والامم التى جاءت متأخرة عنهم ، وهو يشبه ادخال النباتات الغذائية والمحاصيل الصناعية فى الاراضى التى استثمرت حديثا ، وذلك فى مساحات واسعة حيث حلت محل غطاء النبات الطبيعى السابق

ولم يكن نصيب محاولة أقلمة النبات فى أراضى لم تعرف فيها بعد ظروف المناخ والتربة السائدة الا قليلا سوى الاخفاق ، ولا زال الرائد من الزراع فى الولايات المتحدة حتى الآن لايجد مندوحة من الاقدام بحذر مالم يكن قد أدرك ماهية الذبذبات المناخية والظروف المحلية الاخرى، ولكن الصعوبات التى تعترض استغلال الاراضى الجديدة غالبا ما تتطلب بذل جهود وتسفر عن ابتكارات ، وتصف احدى القصص بوضوح (١) كيف حاول المهاجرون من الاسكتلنديين زراعة اراضى البرارى حول ونبج Winnipeg فى النصف الاول من القرن التاسع عشر ، فقد حدثت صعوبات قلبت مشروعهم راسا على عقب ، اذ فتكت بمحاصيلهم أسراب من الطيور المهاجرة وأرجال من الجراد وعصابات الهنود الحمر ، فضلا على ان هذه المحاصيل لم تكن تلائم ظروف المناخ المحلى فى أول الامر ، ولكن جهودهم كللت فى نهاية الامر بالتوفيق ، اذ اكتشفوا أنواعا من القمح تحتاج الى فصل قصير للنمو ، ثم اعقب ذلك استنباط أنواع جديدة من القمح يمكن زراعتها فى برارى كندا فى مدة تبلغ نحو مائة بل تسعين يوما تخلو من الصقيع ..

وهكذا استطاع الكنديون مغالبة المناخ الى حد ما وان يوسعوا نطاق زراعتهم شمالا فى أرض كانت تسودها الغابات من قبل . كما ان استخدام طرق الرى فى كثير من اصقاع العالم : فى كاليفورنيا وأسبانيا وايطاليا والتركستان الروسية والهند ، قد أدى الى تحويل مناطق واسعة من الاراضى البور الجافة الى مناطق منتجة الى حد كبير ، ولكن حين تنفذ مشروعات الرى يجب أن توضع الظروف الطبيعية موضع الاعتبار ، أولا يجب ان يكون من الممكن لمنتجات الاراضى التى تروى ان تنافس منافسة ناجحة محاصيل البقاع التى لا تروى فى المناطق الاخرى .. وذلك كقاعدة عامة . ثانيا ، أن يكون من الممكن توفير الماء الضرورى أثناء فصل النمو وأن يكون نوع التربة وانحدار الارض والتربة السفلى كلها

---

(١) أنظر The Farm and the Nation تأليف Sir John Russell (١٩٢٣) صفحات ٩٧ — ١٠٢

تلائم حاجات الرى

ولما كان للنباتات والحيوانات حاجات بيولوجية معينة فقد وضعت الطبيعة أمام الانتاج الاقتصادى فى أية بقعة حدودا ، وعلى حين تكون الحدود المناخية لنمو النباتات صارمة غير مرنة كما فى نبات الزيتون ، تصبح أحيانا مرنة كما هو شأن شجرة التوت ، وعلى أية حال فانه يمكن ان نبين ان لكل نبات حدودا مثالية وأخرى يستطيع أن ينمو داخل نطاقها ، أو بمعنى آخر تجود زراعته فى بعض البقاع داخل المنطقة التى يستطيع ان ينمو فيها ، ويتبين صدق ذلك بعد أن أصبح لكثير من المنتجات سوق عالمية ، وتبعه ظهور تخصص على نطاق واسع فى الجهات الملائمة من النواحى الجغرافية فى أمريكا الشمالية ، وينطبق هذا القول الى حد معين على الماضى

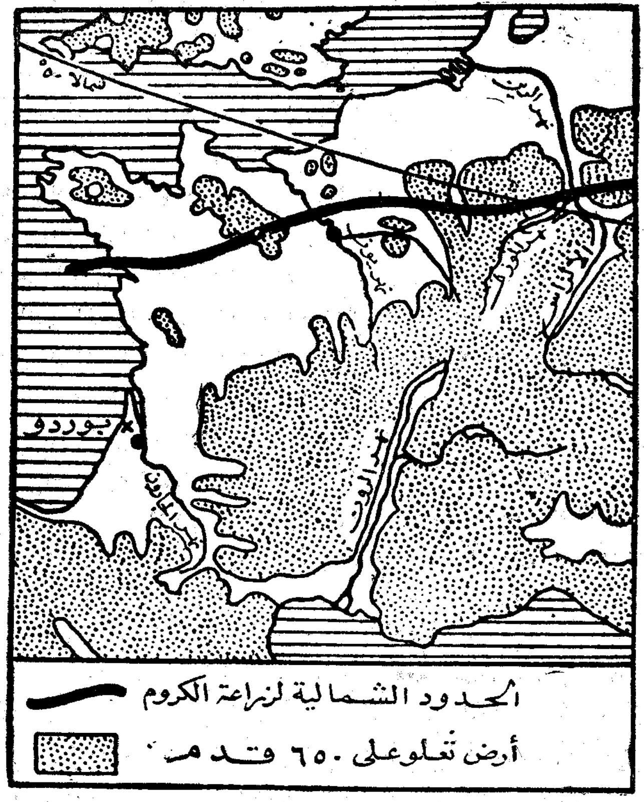
***

ونستطيع أن نتخذ من زراعة الكروم فى أوروبا الغربية وقيام صناعة الحرير التى تعتمد على زراعة أشجار التوت مثلين لنبين كيف استوطنت بعض الصناعات فى الماضى : فقد كانت الكروم بدون ريب تزرع ولو فى مساحات صغيرة — الى الشمال من حدود المنطقة الحالية لنموها (انظر شكل ٥٣) وقد أدخلت زراعتها فى فرنسا الجنوبية على يد المستعمرين من الاغريق ثم امتدت بعد ذلك على يد الرومان الى الالزاس ووادى الموزيل ، كما كانت تزرع حول بروج Bruges فى أواخر العصور الوسطى ، وفى جنوب انجلترا تبعا لما ورد فى Doomsday Book ، ورغم ذلك فقد ظهرت نزعة للتخصص فى زراعة الكروم فى بعض جهات معينة تصلح لذلك الغرض اثناء الحقبة الاخيرة من العصور الوسطى ، ولذلك فان القرويين فى مقاطعة أوكسير Auxerre بأعالى نهر Yonne بفرنسا « لم يزرعوا ولم يحصدوا » بل كرسوا جهودهم لزراعة الكروم وصناعة النبيذ ..

وقد استطاعوا ذلك لعوامل جغرافية ، فقد مهد النهر أمامهم السبيل الملائم لنقل النبيذ الذى كان يحتمل أن يتعرض للتلف ، اذا نقل بطريق غير معبد ، فضلا على ان النهر كان يربطها بسوق باريس . ويشبه ذلك ما حدث فى منطقة بوردو Bordeaux وان كانت أكثر اتساعا ، وكان يستخدم نهر الجارون وميناء بوردو فى نقل النبيذ ، الذى كان يرسل جانب كبير منه الى انجلترا التى ظل ملوكها يحكمون غسقونيا Gascony قرنين اثناء العصور الوسطى ، وقد اقتضى ذلك استيراد القمح بالسفن الى ميناء بوردو لان السكان المحليين — بعد التخصص فى زراعة الكروم — لم يعودوا قادرين على انتاج ما يكفيهم من الحبوب ، وخلاصة القول انه رغم ان الكروم كانت تزرع على نطاق واسع فى أوروبا الغربية لتوافر ظروف المناخ والتربة والانحدار الملائمة ، فان وجود وسائل النقل المائى الى أسواق كبيرة ، قد

أسفر عن ظهور نوع من التخصص لانتاج محصول زراعى واحد فى بعض البقاع

ولقصة صناعة الحرير مغزى مماثل ، فقد كانت تربية فراشة الحرير احتكارا للصين الوسطى والجنوبية ، اذ كانت البلد الوحيد الذى يعرف حرفة صناعة الحرير التى تحتاج لبراعة عظيمة ، كما كان لشجرة التوت فيها ـ فى ظل ظروف المناخ الموسمى ـ دورتان للحياة فى العام فتنتج محصولين من



شكل (٥٣) الحدود الحالية لزراعة الكروم فى فرنسا

الاوراق الطازجة ، ولكن شجرة التوت أصبحت الآن شديدة الاحتمال لظروف المناخ ، فانتشرت زراعتها شمالا حتى النرويج وجنوبا حتى خط الاستواء ، كما انها لا تتطلب نوعا معينا من التربة لتغرس فيه ، وان كانت لا تصلح التربة التى توجد بها كمية كبيرة من الصلصال أو التى تنتشر بها المستنقعات لنموها ، فما ان عرفت الاعمال الدقيقة التى تتطلبها صناعة الحرير ، حتى أخذ سكان أوروبا فى مزاولتها على نطاق واسع

والواقع أن تربية دودة القز كان مقصورا على جهات أوروبا الجنوبية : بلاد اليونان وايطاليا وفرنسا الجنوبية واسبانيا ، وتوضح الدراسة الدقيقة ان المناخ كان فى الواقع من العوامل التى وضعت حدودا لهذا النشاط ، فمن الضرورى ان يكون الجو خلوا من الصقيع حين تظهر الفراشة فى الربيع لاول مرة ، فضلا على توافر كمية كبيرة من أوراق التوت الطازجة لغذائها حينئذ ، وتتوافر هذه الظروف بوجه عام فى أراضى البحر المتوسط الا فى الجهات المرتفعة ، ولكن تختفى فى الجهات الواقعة الى الشمال من ذلك ، فى أوروبا القارية ..

بل وحتى لو أصبح من الممكن توفير الحـــرارة الصناعية اللازمة لفقس البيض لتخرج الفراشة ، فان ورق التوت يظهر متأخرا جدا فى الشمال ، فاذا تذكرنا كذلك أنه يمكن الحصول على محصول واحد من الاوراق فحسب كل عام فى بلاد البحر المتوسط لما يسود الصيف من جفاف ، لاصبح جليا ان هذه البلاد لا تتمتع بالمزايا الطبيعية التى تنعم بها الصين واليابان لقيام هذه الصناعة ، ولا زالت هذه الدول حتى اليوم وبخاصة اليـــابان تحتل مكان الصدارة كبلد ينتج الحرير الخام

الفصل الثامن

فجر الحضارة

« الدعة تجافى الحضارة .. اذ كلما كانت البيئة ذلولا .. كلما كان الباعث على قيام الحضارة ضعيفا »

أ . ج . توينبى « دراسة التاريخ »

« وربما كانت تتمتع المواطن الاولى للحضارة حينئذ بأكثر أنواع المناخ انعاشا وابعثها على النشاط فى نصف الكرة الشمالى »

س . أ . ب . بروكس « تطور المناخ »

من الخطأ أن نعتقد أن المظاهر المبكرة لطرق الحياة التمدينة قد أزيح عنها النقاب تماما ، لقد أصبحنا حقا بفضل الكشوف الاثرية التى تمت فى العصور الحديثة نعرف الكثير عنها ، أى أكثر مما كان يعرفه عنها العالم اليونانى الرومانى دون مراء .. ومن الجلى أن البلد أو البلاد التى يغلب على الظن أنها كانت مهدا للحضارة لم تحظ بأنصبة متساوية من عناية عالم الآثار ، بل لم يكشف حتى الآن عما تحويه مصر من كنوز أثرية ، كما ان بعض البلاد الاخرى التى يمكن أن تكشف هذه الايام عن أهميتها الكبرى فى هذا الصدد ، لازالت تنتظر أن تصبح حقلا للقيام بأعمال تنقيب علمية أوسع نطاقا مما تم فيها

ففى شمال الهند لم تبدأ أعمال التنقيب الا أخيرا ، وهى تكشف النقاب عن نتائج هامة ، بينما لا زالت مواضع كثيرة قد ترجع الى عصور ما قبل التاريخ لم ينقب عنها بعد فى الجزيرة ، وما برحت آسيا الصغرى وشمال سوريا وفارس وآسيا الوسطى والصين ميادين بكر الى حد كبير لم تشاهد أعمال تنقيب واسعة النطاق بعد ، مما قد يسفر عن نتائج عظيمة الاهمية . واذا كانت آراؤنا عن فجر الحضارة تتطلب اعادة النظر فيها الى حد بعيد ، وذلك أثناء حياة جيل واحد ، فانه يمكن الادلاء بنظريات أو فروض يستسيغها العقل والمنطق

ولنبسط بوضوح الادلة التى يمكن بها أن تميز « الحضارة » عن غيرها من الكثير من الثقافات Cultures من النوع الاكثر بدائية ، فعلماء الآثار يحاولون الاقناع بأن ثقافة العصر الحجرى الحديث تمثل أول ثقافة جديرة بأن توصف بأنها «متمدينة» ، أما أثناء آلاف السنوات العديدة فى دور العصر

الحجرى القديم أو مايشبهه ، فقد كان الناس يعيشون تحت رحمة الظروف الطبيعية التى لم يكن لديهم المقدرة على كبح جماحها الى حد كبير ، فكانوا يعتمدون فى حياتهم على صيد الحيوان وصيد الاسماك وجمع الطعام ، ولكنهم كانوا يجهلون طرق انتاج الطعام بممارسة الزراعة واستئناس الحيوان ، ولكن بفضل بذل جهود كبيرة فى الابتكار قد اهتدى الناس أثناء العصر الحجرى الحديث الى طرق جديدة للمعيشة فى الفترة بين ٦٠٠٠ و ٣٠٠٠ ق م

وبينما كان الاساس الاقتصادى لحضارة العصر الحجرى الحديث انتاج الطعام بمزاولة الزراعة والرعى ، فقد تمخضت هذه الحضارة فى نواحيها الاجتماعية عن ظهور القرية ثم المدينة بعد ذلك ، كما أحرز الانسان تقدما أصيلا فى الصناعات اليدوية . فقد عرف سكان العصر الحجرى الحديث كيف يصنعون الفخار باستخدام العجلة والآجر باحراقه فى الافران ، وكيف يغزلون الصوف والقطن والكتان وكيف ينسجونها ، كما وفقوا الى طريقة صناعة المعادن وتشييد الابنية الضخمة كالآثار ، والى طريقة الكتابة وعمل التقويم الزمنى ، وعرفوا تبادل التجارة وتنظيم الدول واخراج المنتجات الفنية ، ولقد كان ظهور بعض أو كل هذه المظاهر التى تميز الحياة المتمدينة فى دور العصر الحجرى الحديث دليلا على انه أصبح لدى الناس حينئذ قوة جديدة — قد لا تكون قد استكملت أسبابها بعد — ليلائموا بين حياتهم وبين بيئتهم الطبيعية

***

أين نشأت حضارة العصر الحجرى الحديث فى أول العهد بها ؟ والجواب على ذلك انها نبتت فى مصر والجزيرة السفلى اللذين يحتمل كثيرا أن يضاف اليهما شمال غرب الهند بعد فترة قصيرة . وهكذا يبدو أن الحضارة قد ولدت على كثب من أربعة انهار كبرى أو على ضفافها : وهى النيل والفرات والدجلة والسند ، ولكننا لانستطيع ان نقطع بأن حضارة من هذه الحضارات النهرية قد سبق الآخر ، فلا زال هذا أمرا يكتنفه الغموض ، لانه يحتمل أن يكون أقدم ما عثر عليه من الآثار فى الجزيرة السفلى ومصر ترجع الى عصر واحد تقريبا

والحق ان بعض المتخصصين يرى انه ربما نبتت الحضارة فى هذه الاقاليم الثلاثة من تلقاء نفسها كل منها على حدة مستقلا عن الآخر فى نشأته ، ولكن هل هناك أقاليم أخرى كانت موطنا للحضارة قبلها ، تلقت عنها هذه الاقاليم حوافز ثقافية نشأت نتيجة لهجرة الناس أو لتدفق تيار الافكار والعادات ؟ ويوجه الذين يذهبون هذا المذهب وجههم شطر سوريا الشمالية وآسيا الصغرى الشرقية ، وهما فى نظرهم من المراكز المحتملة لقيام الحضارة ، كما انه من ناحية أخرى ليس هناك سبب قوى يدفعنا للايمان بأن ابتكار الانسان لا يمكن أن يحدث فى صورة مستقلة تلقائية فى بقاع عديدة متشابهة

ويتوقف حل المشكلة التى نحن بصددها الآن على تحديد الدور الذى لعبه

انتشار diffusion الحضارة فى عصر ما قبل التاريخ . هل علينا ان نفترض انه لم يكن للحضارة سوى مصدر واحد انتقلت منه الى البقاع الاخرى ؟ الواقع أن هناك كثيرا من المطاعن توجه الى هذا الرأى المتطرف بشأن انتشار الحضارة ، وبخاصة أن كثيرا من مظاهر المدنية مثل الكتابة والزراعة قد تطور فى أمريكا الوسطى ونما قبل اتصالها بالعالم القديم بزمن طويل

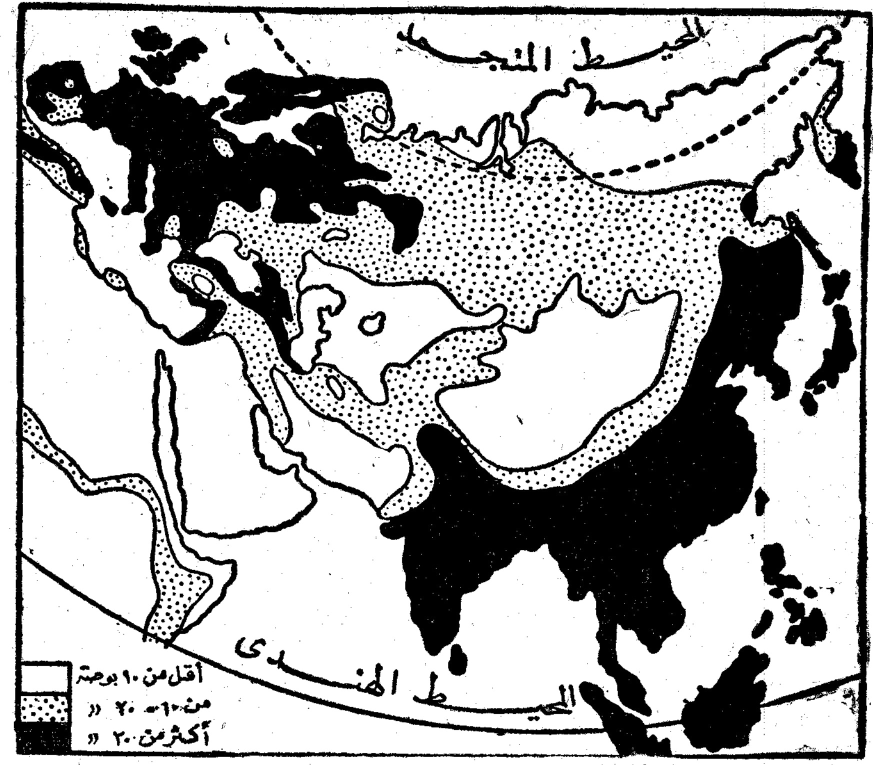
وليس هناك ما يدعونا ان نمضى أكثر من ذلك فى التبسيط فى بحث مشكلة انتشار الحضارة ، وأهم ما يعنينا ويحقق هدفنا من هذا البحث أن نلاحظ ظهور البوادر الاولى للحضارة فى بضع مناطق قد حبتها الطبيعة بظروف خاصة متميزة ، وذلك فى زمن يتعذر تحديده ولكنه يحتمل أن يكون حوالى ٥٠٠٠ ق. م أو ربما قبل ذلك

وسنتصدى الآن لتحديد الظروف الجغرافية التى اكتنفت ولابست قيام هذه الثورة البشرية المفاجئة ، ثم نبحث عن المدى الذى يمكن لطبيعة هـذه الظروف أن توضح أسباب قيام الحضارة هناك حين ظهرت

***

وقبل أن نتناول بالدرس المحص وديان الانهار فى مصر والعراق وشمال غرب الهند بصفة خاصة ، يجب أن نلقى نظرة عامة على الاراضى المتسعة التى تجرى فيها المجارى الدنيا لهذه الانهار ، ومن الاوصاف الموفقة لهذه الاراضى انها تمثل النطاق الصحراوى فى الكتلة الافريقية الاسيوية ، الذى يعد بدوره جانبا من نطاق أكثر اتساعا وجفافا يمتد عبر العالم القديم بين المحيط الاطلسى والصين الشمالية (انظر شكلى ١٤ و ٥٤) ، ويتألف نطاق الاستبس الصحراوى الافريقى الاسيوى من الناحية البنيوية من عدد من الكتل الصلبة المائلة من قشرة الارض ، تتشابه فى شمال افريقية وشبه جزيرة العرب وايران (فارس) ، وهى تمثل بوجه عام هضابا مستوية الاحيث تظهر بعض المنخفضات الكبرى والسلاسل الجبلية الالتوائية الحديثة

وأهم هذه المنخفضات هى السهول الرسوبية التى تتهادى فيها المجارى الدنيا من أنهار النيل والفرات والدجلة والسند ، وتحف أهم الجبال بهضبة ايران من الغرب والشرق ، الى جانب جبال لبنان فى سوريا وجبال اطلس فى شمال افريقية ، أما من النواحى المناخية فيسود النطاق كله بما يضمه من وديان الانهار مناخ جاف صيفه حار وشتاؤه معتدل ، أما وديان الانهار فتعد متشابهة من الناحية الطبيعية ، اذ يتكون كل منها من سهل رسوبى تحف به الصحراء أو الجبال أو هما معا ، كما يصل الى البحر ويطل عليه من أحد نواحيه ، وفى كل حالة كان كل نهر أو أكثر من الانهار الكبيرة ــ وهو عامل فى المقام الاول من الاهمية ــ يحمل الى الاقليم موارد غزيرة من المياه فى فصل



شكل (٥٤) خريطة عامة للمطر فى العالم القديم
(نطاق الاستبس – الصحراء يتفق مع المنطقة التى يصيبها اقل من ربع متر سنويا منه فى المتوسط ...)

واحد من فصول السنة من منابعه التى تقع فى اصقاع أغزر مطرا

لقد عرضنا بالبحث لمشكلة المناخ الذى كان سائدا فى العصور الماضية فى الاستبس الافريقية الاسيوية (١) (انظر شكل ١٠) ، ولقد ذهبنا الى رأى يقول ان نطاق الاستبس الصحراوى الافريقى الاسيوى كان يتلقى طول العام قدرا معتدلا من المطر وبخاصة فى طرفه الشمالى لبضعة آلاف من السنوات سبقت اختفاء الانهار الجليدية الاسكندناوية اختفاء تاما حوالى ٦٠٠٠ ق . م . وقد أدى ذلك الى نمو غطاء من النبات الطبيعى مؤلف من الحشائش وبعض الاشجار ، وقد انتقلت نطاقات المناخ الى الشمال من موقعها الحالى بعد ٦٠٠٠ ق . م تقريبا ، فأخذت اقاليم الحشائش تقاسى الجفاف تدريجيا فى ظل ظروف مناخية تشبه تلك التى تسودها الآن ، ومن ثم فان الزمن الذى ظهرت فيه الحضارة واشتد ساعدها يقع كله تقريبا أثناء العصر الذى سادت فيه

---
(١) انظر الفصل الثالث

ظروف المناخ الحالى ، ومما له دلالته انه يرجح أن اقدم ما عثر عليه من الآثار يرجع كله تقريبا الى فترة الانتقال التى انقضت بين الفترة المطرة وحلول الجفاف

ولكننا لا نستطيع ان نحدد بصورة دقيقة قاطعة مدى الاتفاق الزمنى المشار اليه ، لاننا نعتمد فى ذلك على تواريخ فضفاضة يعوزها الدقة ، يستمد أحدها من الجيولوجيا ، على حين يعتمد تقدير الآخر على الآثار ، وكما سيبدو بعد ذلك فان مواقع أقدم آثار العصر الحجرى الحديث فى مصر تدل على ان الفترة المطيرة لم تكن قد انتهت تماما بعد ، ولكن كما عرضنا من قبل (١) فلدينا أسباب كثيرة تدعونا للاعتقاد ان أول تعمير جدى كان ميدانه وديان الانهار قد وقع فى عصر كان المناخ فى مناطق الحشائش الافريقية الاسيوية قد بلغ من الجفاف حدا تعذر معه ان تجد كل هذه الشعوب التى كانت تمارس الصيد فيها أسباب العيش ميسورة

وذلك بالاضافة الى ظاهرة مناخية أخرى سوف نشير اليها فيما بعد ، تتلخص فى أنه رغم ظهور الجفاف ، فيرجح أنه قد حدثت زيادة محدودة فى المطر المتساقط أثناء بضعة آلاف من السنوات السابقة مباشرة للميلاد اذا قورن بما يصيبها الآن . وسنجتزىء الآن بدراسة الظروف الجغرافية القديمة فى وديان الانهار

***

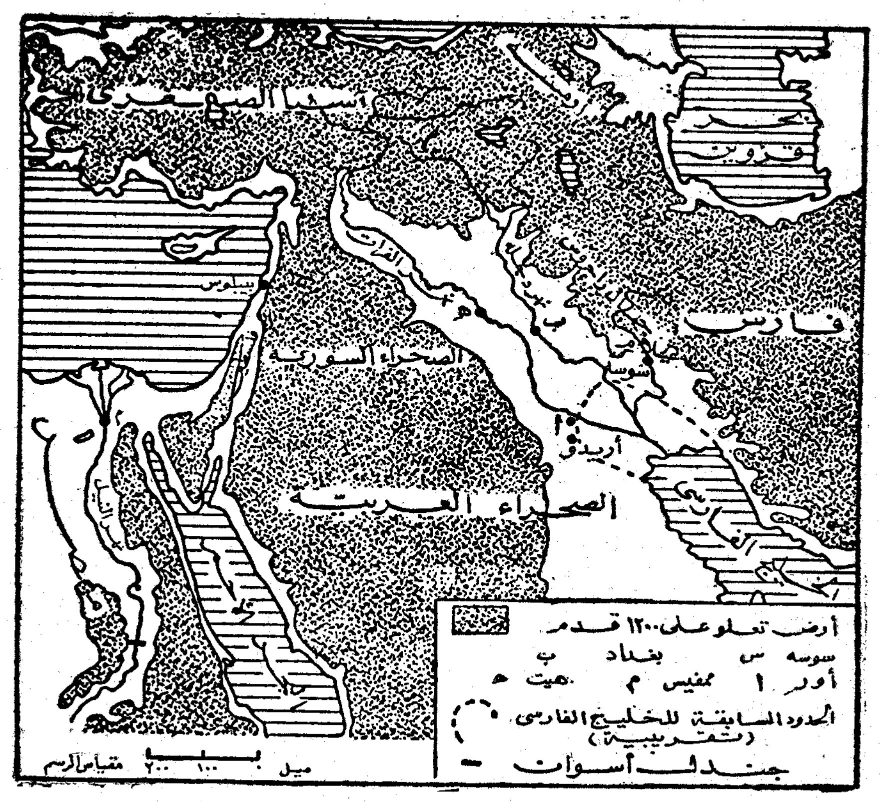
لولا كثرة ما عثر عليه فى الجزيرة السفلى من مواقع اثرية ترجع للعصر التاريخى وعصر ما قبل التاريخ ، وما أسفرت عنه هذه الكشوف الأثرية ، فلا ينم ما يسود هذه الجهات من الظروف الآن عن الدور الكبير الذى لعبته فى التاريخ القديم ، ويكاد يتفق امتداد هذه المنطقة تقريبا مع مملكة العراق الحديثة التى تعرف الآن بثروتها البترولية التى تفوق الزراعة أهمية

ويقصد بالجزيرة السفلى الجزء الجنوبى مما اطلق عليه علماء الآثار « الهلال الخصيب » الذى يضم الاراضى المنخفضة التى تمتد من فلسطين على حافة صحراء بلاد العرب حتى الخليج الفارسى (انظر شكل ٥٥) ويشمل الجدب الآن مساحات واسعة من الجزيرة السفلى التى تبدو خالية من الاشجار محرومة من المياه أو تمتد فيها أراضى المستنقعات التى لم تجفف

ويعزى ذلك الى حد ما الى اهمال الحكام من الاتراك الذين خضعت لهم بضعة قرون ، ولكن توافرت الادلة .. سواء المدونة فى السجلات أو من الآثار التى تكشف عن مقدرتها الانتاجية التى امتازت بها ، وتشير الى حضارتها المبكرة التى ظلت باقية على الزمن لبضعة آلاف من السنوات قبل الميلاد مما يدعو للدهشة

---

(١) انظر الفصل الثالث



شكل (٥٥) مصر وبلاد الرافدين

تتكون الجزيرة السفلى من سهل رسوبى متسع تبلغ مساحته نحو مساحة بريطانيا العظمى تقريبا ، ويمتد هذا السهل بين الاجزاء الدنيا لنهرى الدجلة والفرات والبقاع الواقعة الى الشرق منهما ، كما تصل حدوده الشمالية الى (بلد) على الدجلة و (هيت) على الفرات حيث تعترض طبقات الحجر الجيرى قاع النهر فتعيق الملاحة ، وتعد من الناحية البنيوية أرضا هابطة Sunkland تمتد موازية لحافة كتلة شبه جزيرة العرب الانكسارية ، تكونت حين التوت جبال زاجروس فى الزمن الثالث ، ثم اخذ يطمر المنخفض الذى تكون على هذا النحو بما حمله الدجلة والفرات من فتات الصخور ، وما جرفته سيول الربيع التى تنقض من جبال زاجروس منحدرة من غرب فارس ، بل أسهمت صحراء بلاد العرب بنصيب منهـا لما سفته الرياح من رمال ، ثم أخذ الدجلة والفرات يلتقيان بحمولتهما من الرواسب عند مصبهما ، فطمرت مساحة كبيرة من أراضى المستنقعات اقتطعت من الخليج الفارسى

وربما بلغ مقدار تقدم رأس الخليج الفارسى نحو الداخل نحو ١٥٠ ميلا

منذ فجر الحضارة (انظر شكل ٥٥) ، فبعض الاماكن الاثرية التى ترجع لعصر ما قبل التاريخ وبخاصة أور Ur ، وأريدو Eridu ، والتى أصبحت تقع نائية فى الداخل ، كانت قد أقيمت على ساحل الخليج الفارسى . وهكذا كما تكونت الارض مما حمل من فتات صخور البلاد المجاورة ، كانت شعوب الجزيرة الاولى تضم عناصر قد أوغلت وافدة من الصحراء بوجه خاص وان كانت تشمل الى جانب ذلك جماعات قادمة من الجبال أو من البحار

***

يتلقى الفرات والدجلة قدرا كبيرا من المياه ينشأ عن ذوبان الثلوج فى الربيع فى منابعهما فى جبال ارمينية مما يعد رفدا لما يتجمع من مياه المطر الساقط ، كما يتزود الدجلة بمقدار من المياه يهبط الى مجراه من جبال غربى فارس ، فالجزيرة السفلى تكاد تكون جافة لان المطر يسقط فى بغداد مثلا تسعة عشر يوما فى العام ، يصيبها خلالها قدر من المطر شديد التغير وبخاصة فى الشتاء ويبلغ متوسطه تسع بوصات فى العام

***

ولذلك أصبح توافر فيضانات الربيع ضروريا لقيام الزراعة فى الجزيرة السفلى ، وقد تكون عنيفة جدا بل ومدمرة كذلك ، ومن المحتمل جدا أن تكون سومر الواقعة فى أكثر جهات الجزيرة انخفاضا هى المكان الذى حدث فيه طوفان نوح الذى ورد وصفه فى سفر التكوين . وتحدث الفيضانات فى دجلة والفرات فى وقت يختلف عن موسم فيضان النيل مما يستدعى قيام نظام مختلف من الرى ، فتصل طلائع فيضان النيل فى يونيو ليمضى فى ارتفاعه سريعا فى يوليو واغسطس ويظل كذلك حتى سبتمبر ، فكان نظام « رى الحياض » كما عرف ضروريا ، ولذلك كانت الفيضانات تترك لتغمر السهل الرسوبى ثم تنحسر عائدة للنيل ثم تلقى البذور ـــ حتى دون حاجة الى خدمة الارض واعدادها ـــ كما تظل التربة محتفظة بقدر كاف من الرطوبة أثناء موسم النمو

أما فى الجزيرة السفلى من ناحية أخرى فقد كانت الفيضانات تحدث فى مارس وابريل ومايو ليعقبها صيف جاف شديد الحرارة ، ومن ثم كان يتعذر زراعة المحاصيل بعد انقضاء موسم الفيضان دون توفير مياه الرى ، مما استدعى اتباع نوع بدائى بسيط من نظام الرى الدائم الذى يستخدم الآن فى مصر واراضى السند ، وقد اقتضى ذلك ظهور الحاجة الى تخزين المياه وتوزيعها ، واستلزم بدوره تضافر وتنظيم الجهود وتوفير البراعة الفنية

ولكن تنفيذ مثل هذه المشروعات ـــ ولو فى بقاع محدودة من السهل ـــ كان كفيلا بانتاج محصولين فى العام الواحد ، لان الشتاء المعتدل يكاد يكون خلوا من الصقيع كما كانت أجود أنواع التربة هى الطفلية الجيرية الغنية بغذائها النباتى ، فضلا على ان مياه الفرات والدجلة وبخاصة الاخير تساهم فى تجديد خصوبة

التربة بما تحمله من الطمى الغزير ، بيد ان مياه الفيضان فى هذه الانهار تحمل مواد أكثر خشونة مما يرسبه النيل فى واديه الادنى من الطمى الدقيق الحبيبات

ولم تكن للفرات والدجلة الا أهمية محدودة كطرق ملاحية ، فقد أعترضت مجرى النهرين عند بلدتى «حيت» و «بلد» على التوالى سدود صخرية بمايعوق الملاحة، واستغلت فى تخزين المياه على الاقل، وقد أدخلت التحسينات على نظام هذه الخزانات الطبيعية التى جنت منها البلاد أجل الفوائد منذ عهود مبكرة ، ويصلح النهران للملاحة من هاتين النقطتين حتى المصب ، ولكن كانت تعترض الملاحة التى تصعد النهر أى تتجه صوب المنابع صعوبات لقوة التيار وبخاصة تيار الدجلة ، كما أن ضفافهما لم تكن تلائم رسو السفن

وكما كان نخيل البلح ينمو فى الجزيرة موطنه الاول ، فان الامر (Emmer) وهو القمح البرى الذى عثر عليه ينمو الى جانب الشعير فى حالة برية ، فقد كانا يزرعان بدون شك منذ الالف سنة الخامسة قبل الميلاد ، كما كان من الميسور الحصول على الحجر والخشب والقار التى كانت معدومة فى السهل الرسوبى ــ من جهات قريبة ، اذ كان ينقل من عيلام Elam ــ وهى منطقة التلال الواقعة شرقى سومر التى عثر فيها على أقدم مواطن العمران ــ الخشب والحجر ــ الى السهل ، كما كان يحمل القار على نهر الفرات من بلدة حيت نحو المصب . كما كان التجار يجلبون اليها محاصيل أخرى مثل النبيذ والزيت فضلا عن المعادن وبخاصة النحاس والتوابل

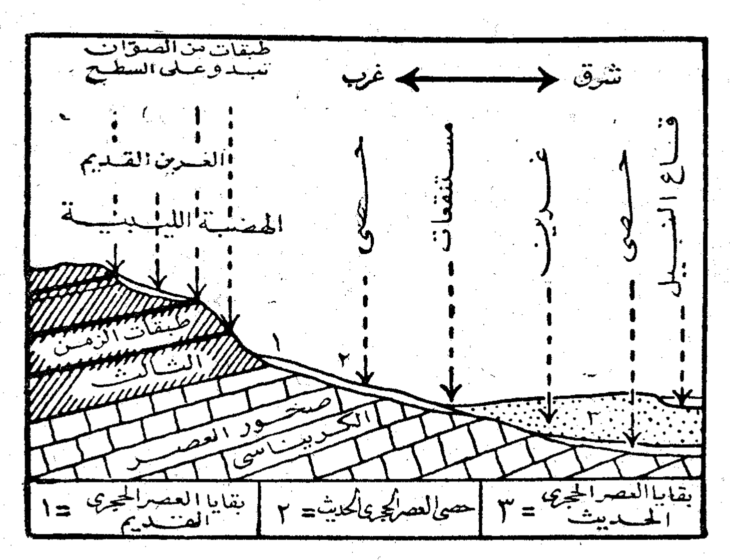
وكانت تقع بعض مراكز السكنى الاولى مثل أور Ur وايرتش Erech على حدود الصحراء عند سومر حيث كانت تقوم بوظيفة ثغور أو منافذ الصحراء . وقد كان الحمار أول حيوانات الحمل التى استخدمها السكان الاوائل لان الجمل ذا السنام الواحد والحصان لم يعرفا فى الجزيرة الا فى وقت متأخر نسبيا فى عصر ما قبل التاريخ

***

كانت مصر تتكون طوال تاريخها المديد من أراضى وادى النيل ودلتاه أسفل شلال اسوان ، ورغم ان هذه الجهات كانت دائما تنقسم الى مملكتين أو مقاطعتين أو أكثر ، فقد كانت تتألف من وحدتين طبيعيتين دائمتين هما مصر العليا بواديها الطويل الضيق الذى يتراوح عرضه بين اثنى عشر ميلا كحد أقصى الى ميلين على الاقل أعلى طيبة ، أما الوحدة الاخرى فهى مصر السفلى أو مثلث الدلتا الذى تكون مما حمله النهر من طمى تقدم ليطمر البحر ، ويحف به المستنقعات والتلال الرملية عند ساحل البحر

أما مصر العليا التى تتكون من السهل الفيضى لمجرى النيل الادنى فلا

تمثل واديا أخدوديا بدقة كما ينطبق على وادى الاردن ، وان كان يقع رغم ذلك فى منطقة هبطت هبوطا سحيقا بين قلاع الحجر الجيرى أو الحجر الرملى التى تحف به على الجانبين (انظر شكل ٥٦) وقد كان مجرى النيل الادنى صالحا للملاحة حتى اسوان حيث يعترض قاع النهر كتل الجرانيت ، وعلى حين كان تيار النهر الذى يغلب عليه الهدوء يحمل السفن هابطة المجرى ، فقد كانت السفن الصاعدة تجد فى الرياح الشمالية (الرياح الاتيزيه عند الاغريق) وهى التى تسود فى الصيف بوجه خاص ، عونا لها . . كما كانت الصحارى التى يتناثر فى ارجائها عدد كبير من الواحات تحف بالسهل الرسوبى ، كما قد يحفر حافة الصحراء المرتفعة عدد كبير من الوديان التى تبدو الآن جافة ، ويمتد على الجانب الشرقى صحراء مرتفعة تعرف بالصحراء العربية ، وهى تمثل جزءا من الكتلة العربية الضخمة لما أصابها من عيوب وانكسارات



شكل (٥٦) النصف الايمن من قطاع لوادى النيل جنوب رأس الدلتا

وتطل على البحر الاحمر بساحل صخرى جاف يحترق متلظيا تحت اشعة الشمس اللافحة فى الصيف . اما على الجانب الغربى فتمتد الصحراء الليبية التى وان كانت أقل ارتفاعا من الصحراء السالفة الذكر الا انها ليست بأقل منها جدبا وجفافا ، وان كان يخترقها رغم ذلك مسلكان طبيعيان ، يمتد الاول منهما خلف الساحل المنخفض الرملى المجدب حيث يسقط النذر اليسير من المطر ، أما الآخر الذى يقع فى الداخل كثيرا — فهو يتتبع منطقة من الواحات التى تيسر اسباب الانتقال على مراحل

وهكذا أصبحت مصر جزيرة تحيط بها الصحارى التى لم تكن رغم ذلك تمثل دروعا لا سبيل لاختراقها . فقد كان سكانها من البدو الذين يضربون فى أرجائها ، يجتذبهم دائما السهل الزراعى العامر فى مصر ، كما كانت المسالك تخترق الصحراء الشرقية الى موانى البحر الاحمر أو لتتجه نحو فلسطين وسوريا ، أما البحر المتوسط فقد كان يمثل طريقا للاتصال بكريت وسوريا منذ وقت مبكر يرجع الى منتصف الالف الرابعة قبل الميلاد على الاقل ، واخيرا فى الجنوب كانت تمتد الصحراء حيث يصبح النيل غير صالح للملاحة وذلك لتفصل بين مصر وبلاد النوبة التى كانت تنمو بها الحشائش والاشجار ، ولم تكن فى الواقع تمثل الا منطقة ركود ثقافى منزوية قصية

كانت مصر — التى لايصيبها الا نذر يسير من المطر يسقط فى دلتا النيل فحسب — تصلح للسكنى منذ العصر الحجرى الحديث بفضل فيضان النيل فى الصيف ، ذلك الفيضان الذى ينشأ لما ينهمر من المطر الموسمى الغزير فى مرتفعات الحبشة التى يحمل منها النيل الازرق والعطبرة المياه الغزيرة فى الصيف ، ففى مصر — كما فى الجزيرة السفلى — كانت الفيضانات تجدد خصوبة التربة كل عام بفضل ماترسبه من الطمى حتى أصبح من الممكن أن تزرع الارض دائما بل وتغل محصولين فى العام الواحد دون أن تترك الارض بورا كما كان ضروريا فى أوروبا

***

ولكن اذا كان انتظام فيضان النيل قد جعل من الممكن استمرار وجود حياة مستقرة فى مصر ، فقد كان يترتب على تذبذب كميته بين عام وآخر نتائج خطيرة . فاذا كان الفيضان الشديد الارتفاع يطغى على القرى والمدن ويقهرها ويغرقها مما يجر الدمار اليها ، فقد كان النقص فى مياه الفيضان ينذر بحلول سنين عجاف بل قد يفضى الى حدوث مجاعة ، ومن ثم كانت مهمة توزيع مياه الفيضان تمثل دائما مهمة على جانب كبير من الخطورة ، كما أن القيام على ضبطه وحسن تنظيمه كان يستدعى وجود حكومة مركزية قوية تضطلع باعباء هذه المهمة

وكانت تربة مصر الخصيبة السوداء تجود بأطيب الثمرات ، وكان محصول مصر من الحنطة التى ذاع صيتها فى العالمين تتكون منذ عصر ماقبل الاسرات (١) من الشعير والذرة الرفيعة وقمح ايمر Emmer wheat لان زراعة القمح الذى يصنع منه الخبز قد أدخلت فى العهد الرومانى ، وقد عرفت زراعة الكتان منذ زمن مبكر جدا ، كما انه من المحتمل أن تكون مصر الموطن الاول لغاب البردى ونخيل البلح

---

(١) أى قبل ٣٤٠٠ ق . م . تقريبا

ولم يكن البردى يستخدم فى صناعة الورق فحسب بل فى صناعة أقدم الزوارق أيضا ، وقد كان يفتقر السهل الرسوبى الى الخشب اذ اختفت منه الاشجار الخشبية المفيدة بعد ان جف نطاق الاستبس الصحراوى الافريقى الاسيوى ، كما كان يعوزه المعادن وبخاصة النحاس والحديد ، وقد أدخلت كثير من المحاصيل التى ظهرت أثناء تاريخ مصر مثل القطن وقصب السكر فى وقت متأخر نسبيا ، وان كان قد زرع الزيتون على حافة الدلتا الغربية حوالى ٣٠٠٠ ق . م

وأخيرا أماطت الكشوف التى تمت فى العشرين عاما الاخيرة اللثام عن مركز ثالث من مراكز الحضارة الاولى ، ونعنى به سهل السند الرسوبى فى بنجاب ومنطقة السند Sindh حيث كانت الظروف الطبيعية تشبه كثيرا ما كان يسود مصر والجزيرة السفلى ، فكان نهر السند يمد سهله الرسوبى بمياه الفيضان المخصبة فى أول الصيف ، كما يظن أن مياه السند كانت تتلقى مياه نهر آخر وكانا يستمدان مياههما من ذوبان ثلوج الهيمالايا ، وتقطع الادلة الاثرية التى ترجع الى الالف الثالثة قبل الميلاد ان السكان كانوا يعيشون فى خوف مقيم من نهر السند الذى كان معروفا دائما بفيضاناته العنيفة وتعرض مجراه الذى يمتد فى سهله الرسوبى المنخفض للتغير

***

وربما لم تكن الفيضانات قد بلغت من العنف حدا كبيرا لان رافد نهر السند وهو نهر مهران Mihran كان يحتوى الجانب الاكبر من المياه فى مجراه الذى يقع الى شرق السند ويمتد فى موازاته (انظر شكل ٥٧) (١) . وقد أصبح لهذا السهل الفيضى شخصية جغرافية متميزة ، اذ كان يحد هذا السهل الرسوبى صحراء ثار ، كما كانت تمتد السلاسل الجبلية والاستبس المرتفعة فى غربه

ولكى نستكمل هذا العرض للأسس الجغرافية التى نشأت فى كنفها الحضارات المبكرة التى نمت فى وديان الانهار ، علينا ان نحاول وصفها ــ لا كما تبدو الآن ــ ولكن فى ضوء الظروف الطبيعية كما وجدها المستوطنون الاوائل سائدة فى ربوعها . ورغم ما ينطوى عليه قول هيرودوت الشائع المأثور بأن « مصر هبة النيل » من حق صراح ، فانه قد يكون مضللا ، لان مصر التى يعرفها التاريخ لا تدين للانسان بأقل مما تدين للنيل من مآثر وأفضال .. فسطح مصر يبدو الآن وقد انطبع بطابع انسانى Humanized Landscape كما كان الحال منذ العهد الرومانى ، اذ أصابها تغيير عنيف قوى بفضل

---

(١) أنظر الفصل الثالث

مابذله الانسان من جهود طوال العصور المتلاحقة

كذلك كانت خصوبة « الهلال الخصيب » ثمرة نشاط « استعمارى » عنيف . فكانت وديان الانهار تبدو للوافدين الاوائل من الصحارى أو المناطق الجبلية المجاورة كأنها قد أصبحت هدفا لتدمير الفيضان وما يجلبه من التخريب ولما يفرضه القحط والجفاف من حدود ، كما كانت أراضى المستنقعات المقفرة التى قد تنتشر فيها الاوبئة تضم مساحات واسعة وبخاصة فى أراضى الدالات ، كما كانت هناك بقاع يغطيها الغاب الكثيف المرتفع ، وبعض ما تخلف ــ على الاقل ــ من نباتات الادغال وساكنيها من الحيوانات ــ التى ازدهرت أثناء العصر المطير قبل ٦٠٠٠ ق . م . تقريبا

ولدينا الكثير من الادلة التى تشير الى ان كمية المطر التى كانت تسقط فى وديان الانهار أثناء فترة خمسة آلاف سنة قبل الميلاد ــ كانت أغزر مما يصيبها الآن وان كانت أقل مما كان يسقط فيها أثناء العصر المطير السابق ، ومما يدل على أن المطر كان أغزر فى مصر وانه كانت تنمو بها حشائش أشد كثافة مما عليه الآن ، ان البلاد والصحارى المرتفعة الواقعة على جوانبها كانت أقدر على اعالة الحيوانات والنباتات البرية التى لا يمكن العثور عليها الا فى عروض أقرب الى خط الاستواء كالنوبة العليا

ولم يجد سكان مصر الاوائل افراس النهر والتماسيح والخنازير البرية وعدد كبير من الطيور البرية من مختلف الانواع فيها فحسب ، بل كان يرتاد الواحات المجاورة الفيلة والغزلان ، بل ظلت تعيش حتى عهد الاسرات أى بعد ٣٤٠٠ق.م تقريبا أنواع متعددة من الحيوانات الوحشية وتشمل الاسد والوعل (وقد كان أهم فرائسه) والغزال والنعامة وحمار الوحش وأغنام بلاد البربر Barbary sheep

***

ويستدل من اختفاء وانقراض هذه الحيوانات بعد ذلك من مصر وصحارى شمال افريقية على ما أصاب الواحات من جفاف متصل ، وان كان للعامل الانسانى تأثيره (١) ، كما كانت مصر أكثر غنى فى عهدها المبكر بأنواع الاشجار العديدة مما هى عليه الآن ، فكانت تنمو بها شجرة الجميز وصنفان من النخيل ، والاكاشيا acacia (مجموعة من الشجيرات الجافة الشوكية البقولية تنمو فى الجهات الجافة) والسنط والتمر هندى ، كما كانت تنمو

(١) يذهب البعض الى ان ادخال الابل على يد العرب الى شمال افريقية قد حمل الاسد على الانتقال جنوبا ، لان المراعى التى تعيش عليها الوعول وغيرها من الحيوانات التى يفترسها الاسد قد اضحت حينئذ محدودة

بعض الاشجار الخشبية المفيدة وبعض الشجيرات الملتفة الكثيفة على حافة الاراضي الرسوبية التي يسودها الجفـــاف الآن ، وذلك في أول مراحل الاستقرار كما يدل على ذلك ما عثر عليه من جذور الاشجار والفحم النباتي في الفيوم والبداري ، فضلا على ان المتخصصين قد بينوا ان مستوى المياه في بحيرة موريس الواقعة في منخفض الفيوم كان أعلى كثيرا منه الآن ــ رغم هبوطه ــ وذلك خلال فترة امتدت آلاف السنوات بين ٦٠٠٠ ــ ٣٠٠٠ ق.م

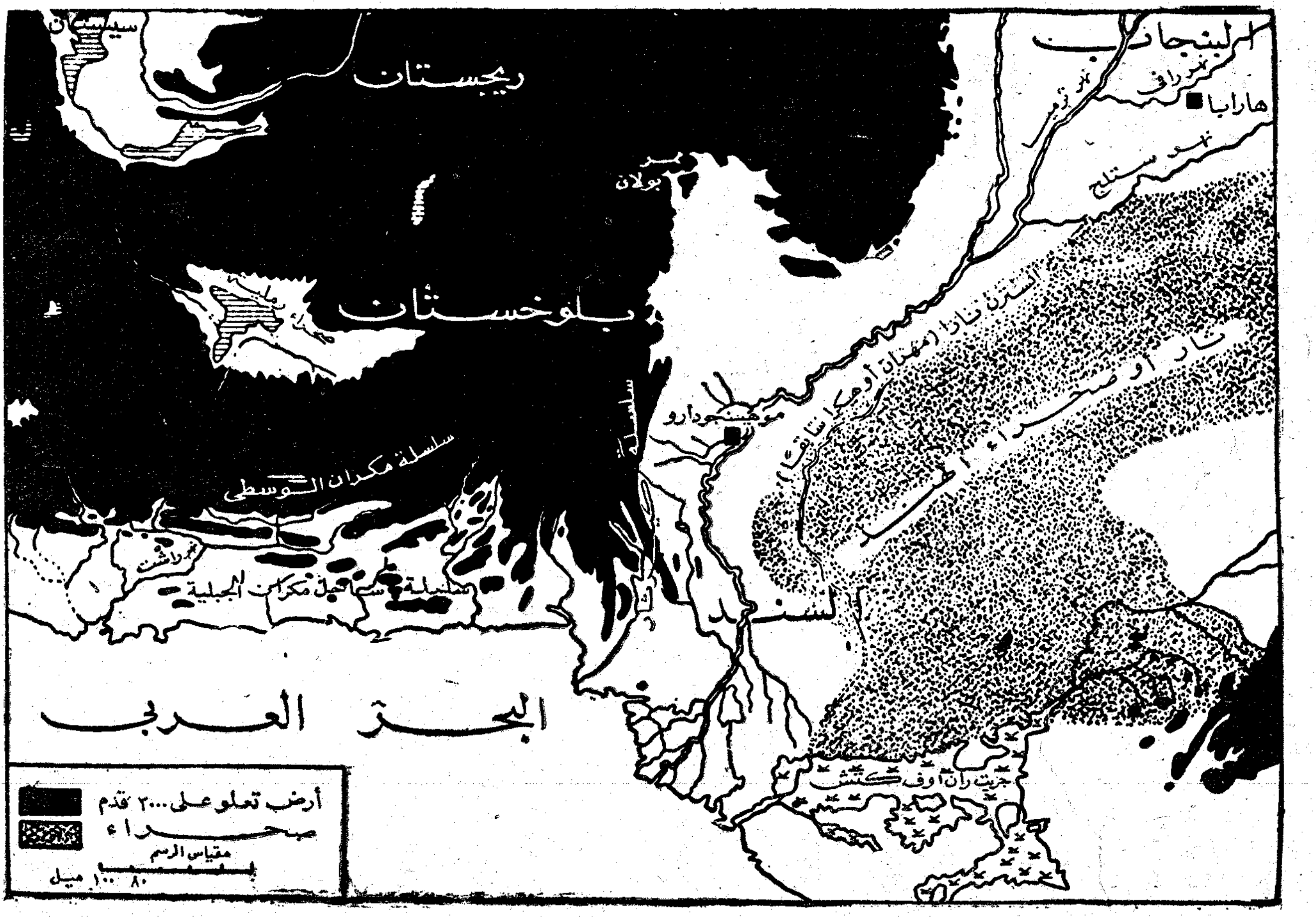
ولو وضعنا موضع الاعتبار ما يتوافر من الادلة التي تسترعي الانتباه من بلوخستان ووادي السند ، لاتضح لنا أن سقوط مطر غزير نسبيا لم يكن يمثل ظروفا محلية بحتة . وقد عثر في جنوب بلوخستان على عدد كبير من القرى المزدهرة التي كان سكانها يمارسون الزراعة الى جانب السدود الضخمة، وذلك في بقاع قد بلغت الآن من الجفاف حدا لا تصلح معه الا لحياة الرعي

وقد يكون صحيحا ما يقال في تفسير سقوط الامطـار الغزيرة نسبيا في بلوخستان وسهل السند،والتي لم تكن ــ معذلك ــ تمتاز بالغزارةالكبيرةوحسن التوزيع على مدار السنة . . في أنها تعزى الى امتداد تأثير الرياح الموسميةبشكل ملموس فعال في منطقة أكثر اتساعا . ويعد مثل هذا التعليل معقولا الى حد كبير لانه يلوح ان بضع تغييرات تناولت اطراف نطاق هبوب الرياح الموسمية قد حدثت . ومن ناحية أخرى فان سقوط المطر في ذلك العصر في نطـاق الاستبس الصحراوي في افريقية يجب أن يعزى الى تعرضه لمرور أعاصير المحيط الاطلسي التي كانت تصل الى بلوخستان بل تتجاوز ذلك الى شمال غرب الهند الى مدى أقل

***

وقد ترتب على هذه الزيادة اليسيرة في المطر التي لم تكن قد بلغت حدا يكفي ليحجب ما أصاب المناخ من جفاف أصبح أكثر وضوحا مما كان عليه من قبل ، فأضحى الري ضرورة لا مندوحة عنها . . ان أصبحت وديان الانهار غنية بحياتها النباتية والحيوانية في فجر الحضارة،وكما كان يمثل ذلك عونا من ناحية فكان عقبة من ناحية أخرى للرواد من المستوطنين ، اذ أصبح عليهم ان يكافحوا الحيوانات المفترسة ، وان يطهروا الارض من الغاب والاحراج وان يجففوا المناقع

وصفوة القول أن ظروف البيئـــة التي كانت ســائدة في ذلك العصر ، كانت تتلخص في ان الطبيعة قد سخت بقدر ما ضنت وجادت بقدر ما بخلت . واذا كانت مصر ووادي السند والجزيرة السفلى حيث يظن البعض أن جنـــة عدن كانت قائمة ــ تمثل اقاليم تفيض بمواردها الوفيرة من الغذاء ، فلم تكن هذه



شكل (٥٧) وادى السند وأراضي الحدود المجاورة له

الموارد منحة يسيرة من منح الطبيعة ، ولكنها توفرت نتيجة لبذل جهود قد احسن توجيهها وتنظيمها لتكييف الظروف الطبيعية واستغلالها . ولنلق نظرة عجلى على ماخلفته من الآثار ، لنبين المراحل التى مرت فيها وديان الانهار حتى تم التغلب على صعوباتها واستغلالها ، ولنعرف ما استخدم فى سبيل ذلك من براعة ومهارة ومقدرة على الابتكار ، ولنذكر فى نفس الوقت الى أى حد كانت الاحداث التى كانت هذه البقاع مسرحا لها مهمة جدا للتاريخ البشرى

وقد عثر على أقدم آثار العصر الحجرى الحديث فى مصر وعيلام التى تحف بالجزيرة السفلى ، ولو ان هناك أسبابا تدعو الى توقع العثور على آثار ذلك العصر فى وادى السند أيضا ، فكان سكان قرية سوسة Susa فى عيلام يعرفون حوالى ٥٠٠٠ ق.م الفخار الذى تستخدم العجلة فى صناعته ، والتيل ، كما كان لديهم فؤوس من النحاس وأدوات من الظران المهذب ، وربما كانوا يعرفون الزراعة وان كانوا يعتمدون على الصيد بوجه خاص

ويدل على مواقع قرى العصر الحجرى الحديث عصرا بعد عصر كما هو الحال فى سوسة الاكوام والتلال التى نشأت نتيجة لتراكم اطلال القرى التى اقيمت عصرا بعد آخر من أكواخ الطين والقش ، والتى تشرف الآن على السهل المستوى المحيط بها ، وهكذا وقعت أول ثورة ثقافية فى الالف الخامسة قبل الميلاد فى الجزيرة السفلى وهو ماحدث فى مصر كما سنرى

***

ومن مميزات هذه الثورة ظهور حياة القرية والزراعة وصهر النحاس وصناعته وصنع المنسوجات والفخار ، فلو مضينا سريعا لنتصور ما كان قائما حوالى ٣٠٠٠ ق . م فسنجد تقدما كبيرا فى المهارة الفنية والتنظيم الاجتماعى والاقتصادى . وهكذا قامت الثورة الثانية ، فقد حل محل القرى الصغيرة التى تنتج ما تحتاج اليه ، والتى يسكنها أناس يمارسون الصيد بوجه خاص ، مدن امتدت لتغطى مساحة واسعة ، لايزاول سكانها الزراعة فحسب ، بل تخصصوا كذلك فى بعض المهن ومارسوا التجارة الخارجية ، وكانت المبانى الاثرية وبخاصة المعابد تشيد من الآجر المحروق فى الافران ، وكان قيام الرى يستدعى انشاء السدود وشق القنوات . كما شاع استخدام وتداول الفضة والرصاص والذهب واللازورد .. واخترع السومريون تقويما زمنيا شمسيا ، والكتابة المحفورة على الواح الصلصال ، فضلا على أنهم كانوا يملكون عددا من الحيوانات المستأنسة من الماشية والاغنام والحمير ، ولو أنه يرجح ان استئناسها تم على يد سكان التلال المجاورة أو سكان الاستبس وليس على يد سكان السهول أنفسهم

من الواضح أن قيام الحضارة السومرية يقتضى أن نفترض وجود تجارة خارجية ، أو على الاقل نقل الحاصلات من جهات نائية غالبا ، فنقل النحاس من عمان والاصداف من الخليج الفارسى ، واللازورد من أفغانستان ، وربما الفضة والرصاص من جبال طوروس فى جنوب شرق آسيا الصغرى،والخشب من جبال زاجروس ، كما انه من المعروف أن بعض منتجات السومريين قد وصلت الى مدن تقع فى وادى السند ، وأخيرا نستطيع ان نلاحظ أن ماحققته شعوب الجزيرة السفلى من تقدم حضارى قد تم فى ظل نظام الدول المكونة من المدن City-states

وقد اسس سرجون حوالى ٢٥٠٠ ق . م. دولة تتفق فى امتدادها مع الهلال الخصيب ، وهو عمل قد تم على وجه أكمل على يد حمورابى بعد قرابة ٥٠٠ عام

أما فى مصر فان أقدم ما عرف من مواطن العمران فى العصر الحجرى الحديث والتى ترجع الى عدة قرون قبل ٥٠٠٠ ق . م تقوم على الحافة الشمالية لبحيرة موريس التى تقع فى منخفض الفيوم فى جنوب غرب القاهرة . وقد أثارت الكشوف الاثرية الحديثة فى الفيوم اهتماما كبيرا :

« يبدو اننا قد حصلنا على أقدم الادلة على زراعة القمح المعروفة حتى الان من اهراء العصر الحجرى الحديث التى وجدنا منها ١٧ فى الفيوم، ولكن لايزال يكتنف الغموض الجهة التى نقلوا عنها معرفتهم بالزراعة فى بادىء الامر وبذور القمح والشعير أيضا (١) »

ولدينا أدلة على قيام حضارة مماثلة بعد ذلك ببضعة قرون فى منطقة البدارى التى امتدت من نتوءات الصحراء عبر السهل الفيضى حتى نهر النيل . وقد كان سكان البدارى الذين كانوا يضمون بعض سلالات زنجية مستقرين الى حد ما ، كما كانوا يزرعون الشعير وقمح الايمر ويربون الماشية والماعز والاغنام وينسجون الكتان ويستخدمون النحاس الذى لم يكن يتوفر محليا ، وأصداف البحر الاحمر ، ومما له دلالته ان مواطن سكناهم كانت تقوم بالقرب من الوديان التى تنتهى فى السهل الرسوبى (٢)

***

وقد اتحد الوادى والدلتا بعد ذلك بحقبة طويلة حوالى ٣٥٠٠ ق . م .

---

(١) انظر Miss G. Caton Thompson and Miss E. W Gardner, « Recent-work on the Problems of Lake Moeris » The Geographical Journal. LXX iii الجزء (١٩٢٩) صفحات ٤٠ — ٤١

(٢) لم يتضح بعد اذا كانوا قد زرعوا السهول الرسوبية ، لان الرواسب من شأنها أن تغطى آثار وشواهد العمران والسكنى

فتألفت منهما مملكة متحدة اتخذت ممفيس التى أقيمت فى أعلى رأس الدلتا مباشرة فى نقطة يسهل عبور النيل عندها .. عاصمة لها (انظر شكل ٥٥) وكان قد عرف على عهد الملك مينا (حوالى ٣٤٠٠ ق . م) استخدام مقياس لقياس ارتفاع فيضانات النيل التى كانت تدون فى سجلات محفوظة

ومن الواضح أن زراعة مزدهرة قد نشأت ـ كما كان الحال فى الجزيرة السفلى ـ لتسد حاجة بلاد كثيفة السكان ، وتسمح بتراكم وادخار رأس المال والتخصص فى كثير من الصناعات والمهن ، فضلا عن قيام تجارة خارجية نشيطة . وكان يستخرج الجرانيت محليا لينقل على النيل ، كما كان يجلب النحاس ـ أو الفيروزج ، فلا يعرف تماما أيهما ـ من مناجم شبه جزيرة سيناء ، وكانت ترسل أخشاب السرو والصنوبر والعرعر والراتنج من جبال لبنان كلها الى مصر من بيبلوس Byblos فى سوريا عن طريق البحر ، فضلا على الذهب والتوابل التى كانت تأتى من بلاد النوبة

كشف النقاب حديثا عن حضارة مدن موهنجودارو Mohenjo-Daro وهرابا Harappa فى وادى السند التى لم يعرف الا القليل عن عصر ماقبل التاريخ فيه ، ولا تقل هذه الحضارة شأنا عن حضارة الجزيرة السفلى ومصر (أنظر شكل ٥٧) . ويرجع ماعثر عليه فى هذه المدن الى حوالى ٢٥٠٠ ق.م ، وان كان من المعروف ان مراكز العمران قد ظهرت قبل ذلك العصر . وكانت « موهنجودارو » مدينة كبيرة تبلغ مساحتها ميلا مربعا اى نحو ضعف مساحة لندن فى عهد الرومان ، كما كانت شوارعها مخططة طبقا لتصميم ، وتتألف منازلها من طابقين ، كما كانت تشمل مصانع صغيرة وحوانيت مشيدة من آجر أحرق فى القمائن ، مزودة بمجارى ، كما كانت تقوم بها حرف تخصص ، وقد بلغ فن النحت فيها شأوا بعيدا من التفوق

***

وقد كانت تزرع فيها المحاصيل سواء أكانت من غلات المنطقة الاصلية أو لم تكن كذلك وهى القمح والشعير والبلح ونوع خشن من القطن ، وكانت تربى فيها الحيوانات المستأنسة : الخنازير والاغنام والثيران المحدبة الظهر والجاموس ، ولاشك ان وديان الانهار فى السند والبنجاب كانت تؤلف اقليما ثقافيا ، ولكن لازلنا نجهل اذا كانت قد نظمت فى شكل دولة موحدة ، وكانت تصل اليها السلع من الخارج مثل خشب الدويدار (وهو نوع من الشربين ومن الفصيلة المخروطية) « deodara cedarwood » من الهيملايا ، والسمك المجفف من ساحل البحر ، والكثير من المعادن والاحجار الثمينة من بقاع أبعد عن ذلك بكثير . فضلا على ان بعض مصنوعات مدن السند وبخاصة الاختام

المربعة « square seals » كانت تصــل الى قرى بلوخستان بل ومدن سومر Sumeria

ولانستطيع ان نبحث المشكلة التى تبين مدى نشأة كل من حضــارات الجزيرة السفلى ومصر ووادى السند نشأة مستقلة ونمت نموا محليا بعيدا عن سواها ، ولكن يعتقد أن هذه الحضارات المدنية لم تنقل غراسها من مركز لآخر ، ولكنها كانت نبتا قد امتدت جذور كل فى وطنه ، ولايعنى ذلك ان ننفى وجود مميزات حضارية متشابهة بينها ، أو لم يتصل كل بالآخر رغم مايفصلها من المسافات الطويلة سواء عن طريق البر أو البحر

وأخيرا لنعد الى السؤال الثانى : الى أى حــد يمكن أن تفسر الظروف الطبيعية فى أودية الانهار ظهور الحضارة فى تلك الجهات حين ظهرت ؟ ولنوضح تماما الآن اننا لانحاول أن نفسر نشأة الحضارة كنتيجة حتمية لتوافر ظروف طبيعية خاصة . وقد استلفت ا.ج. توينبى A. J. - Toynbee النظر الى وديان نهرية اخرى غير هذه مدعيا انها تشبهها ، ولكن لم تنشأ بها ايةحضارة تعاصر تلك الحضارات

ورغم ان الامثلة التى ساقها لم تكن متشابهة تماما من الناحية الجغرافية كما ظن ، فلم يجد توينبى صعوبة فى دحض هذا التفسير . فضلا على انه تصدى للدفاع عن الرأى القائل بأن وجود صعوبة كبيرة فى بيئة وديان الانهار كانت بمثابة تحد للســكان أو المستوطنين الاوائل اســتجابوا له استجابة تسترعى الانتباه ، فتغلبوا على بيئتهم الصعبة وادخلوا فيها ألوانا من فنون الحياة المتمدينة ، بفضل براعتهم وابتكارهم ، لان القحط والفيضان والمستنقع والحيوانات المفترسة لم ترهب هؤلاء المستوطنين الاوائل ولكنها اثارتهم وولدت فى نفوسهم التحمس ، أو باختصار كما قال ا.ج. توينبى « كلما كانت البيئة سهلة لاتكتنفها صعوبة كلما ضعف الحافز على قيام المدنية »

ولكن هذا الرأى لايقل فى تطرفه عما ذهب اليه أنصار الحتم البيئى ، كما انه غير مقنع من نواحى عديدة ، فضلا على انه يعجز عن تفسير السبب الذى من أجله قبل السكان تحدى البيئة فى بعض الجهات وتجاهلوه فى البعض الآخر ، ومن الواضح أن كل منطقة تختلف باختلاف الاقوام الذين نزلوا فيها ، ولكن الظروف الطبيعية تكيف وتحدد استغلال السكان لظروف هذه البيئة والطرق التى اتبعوها لهذا الغرض ، فضلا على أنها تؤثر فى مدى الشوط الذى قطعه السكان فى سبيل ذلك

***

فلو كان صحيحا ــ مايبدو محتملا ــ أن أول من هبط الاراضى الفيضية هم المهاجرون من أراضى الحشائش الافريقيــة الآسيوية التى كانت تجف

تدريجيا ، فقد وجدوا مزايا ونقائص فى الظروف الطبيعية السائدة ، فكما كان القحط والفيضان والمستنقع حقا من العقبات التى اعترضت سبيلهم ، من جانب ، فقد كانت التربة الرسوبية الخصبة وفيضانات الانهار الضرورية وطول موسم النمو ، والطريق النهرى ، والنباتات والحيوانات الاصلية يمكن الافادة منها جميعا من جانب آخر ، وان كان لازال ماذهب اليه س.أ.ب. بروكس من أن وديان الانهار كانت تتمتع فى فجر الحضارة بأكثر أنواع المناخ تنشيطا فى نصف الكرة الشمالى مجالا للشك وموضوعا للجدل ، فقد أوضحنا ان هذه الجهات كانت حينئذ لاتقاسى الجفاف الذى تقاسيه اليوم

فضلا على أنه قد يكون مما له دلالته أن وديان الانهار كانت محاطة فى كل حالة بمناطق متباينة من الناحية الطبيعية وهى الصحراء والجبال والبحر التى وفدت منها شعوب قد ألفت طرقا أخرى للمعيشة ومنتجات وافكار أخرى . ومن جهة اخرى فانه من حيث ان الاتصال والتبادل بين الشعوب المختلفة كان يمثل حوافز للتفكير والعمل المبتكر ، فقد حبت الظروف الطبيعية وديان الانهار من هذه الناحية . ومن هنا لم تعد حضارتهم تمثل ثمرة أو نتاج مقدرتهم على الخلق والابتكار الخاصة بهم فحسب ، ولكن كذلك ما اجتمع لديهم من الاختراعات والتجارب التى انتقلت اليهم من الشعوب المجاورة الاخرى أيضا



أوربا و الصين

« نحن وحدنا ننظر بعينين ، والاوربيون يبصرون بعين
واحدة ، أما بقية سكان الارض الآخرين فلا يبصرون »
مثل من الصين

لا نزال ننظر الى أوربا والصين كموطنين متميزين تسودهما تقاليد ثقافية لا ارتباط بينها ، حتى بعد ان أوشكت طرق المواصلات والنقل الحديثة أن تلغى المسافة الآن ، هذا رغم مايمزقها من الاختلاف والتباين السياسى واللغوى وغيره . فقد ظلت كل من أوربا والصين حتى العصور الحديثة يمثلان عالمين منفصلين كقطة كبلنج Kipling ، فيسير كل منهما وحده ، واستمدت كل من أوربا والصين حضارتها من مصادر مختلفة فى وقت واحد تقريبا ، فسار تطور كل منهما على نحو مستقل ، كما كانت كل تنأى بنفسها عن الاخرى الى حد بعيد ، فعلى حين تدين الاولى بالكثير الى عالم بحر ايجه وبخاصة لبلاد الاغريق القديمة ، فقد نشأت حضارة الصين الاولى على ضفاف نهر الهوانج أو النهر الاصفر فى الالف الثالثة قبل الميلاد . وبينما اعتنق سكان أوربا الديانة المسيحية،أعتنقت الصين الديانة البوذية التى نقلتها من الهند ، فضلا عما وضعه كونفوشيوس احد ابناء الصين من مبادىء اخلاقية

ولم تتعرض طرق الحياة الصينية والتفكير الصينى لتغير عنيف عميق نتيجة لتأثير الحضارة الغربية التى ظهر أثرها فى زمن حديث نسبيا من الناحية التاريخية ، فقد بلغت هذه الحضارة أرض الصين مباشرة من أوربا ، ومن اليابان والولايات المتحدة بطريق غير مباشر

وهناك سؤال طريف ربما تقدم الابحاث الاثرية الجواب عنه فى نهاية الامر ، وهو الى أى حد تلقت الحضارتان الصينية والاوربية فى فجرهما الاعمال والافكار من مصدر مشترك ، وبخاصة من مواطن الحضارة الاولى فى آسيا الغربية ومصر ؟ اذ يغلب على الظن أن معرفة الزراعة والالمام بفن صناعة الفخار واستخدام النحاس قد وصلت الى الصين الشمالية عن طريق آسيا الوسطى اما عبر التركستان الروسية ، أو من فارس حوالى ٢٥٠٠ — ٣٠٠٠ ق . م فلو صح ذلك فانه يمكن القول أن أول عهود الحضارة أو حضارة العصر الحجرى الحديث قد وفدت من المراكز القديمة فى آسيا الغربية بطريق غير

مباشر ، أى من بلاد السند الدنيا أو الجزيرة السفلى ، وهى مناطق اندفعت منها تيارات الثقافة الى أوربا أيضا ، ولكن عقب هذا الدور المفرق فى القدم ، فانه يبدو ان الحضارة الصينية قد تطورت تطورا مستقلا تقريبا عن تأثير الغرب

ولدت الحضارة الصينية فى وديان وهضاب شمال الصين التى يشقها نهر الهوانج العظيم بواديه ذى الجوانب الشديدة الانحدار ، ويحف بالصين الشمالية من جهة الشمال الاستبس وصحارى جوبى وغابات منشوريا الجنوبية ، ومن الشرق البحر ومن الغرب والجنوب سلاسل جبال نان شان وتسن — لنج — شان Nan-Shan Tsin-Ling Shan وذلك على التوالى (انظر شكل ٥٨) . وتغطى رواسب سميكة من اللويس وطمى الانهار جانبا كبيرا من هذه المساحة ، ويعتبر اللويس نوع من الطمى الدقيق الحبيبات حملته الرياح الغربية من الصحارى المجاورة مما أدى الى تكوين مايعرف بالارض الصفراء Yellow-Earth الغنية بغذاء النبات ، والتى يسهل فلاحتها ، كما تخلو من الغطاء النباتى الطبيعى الكثيف

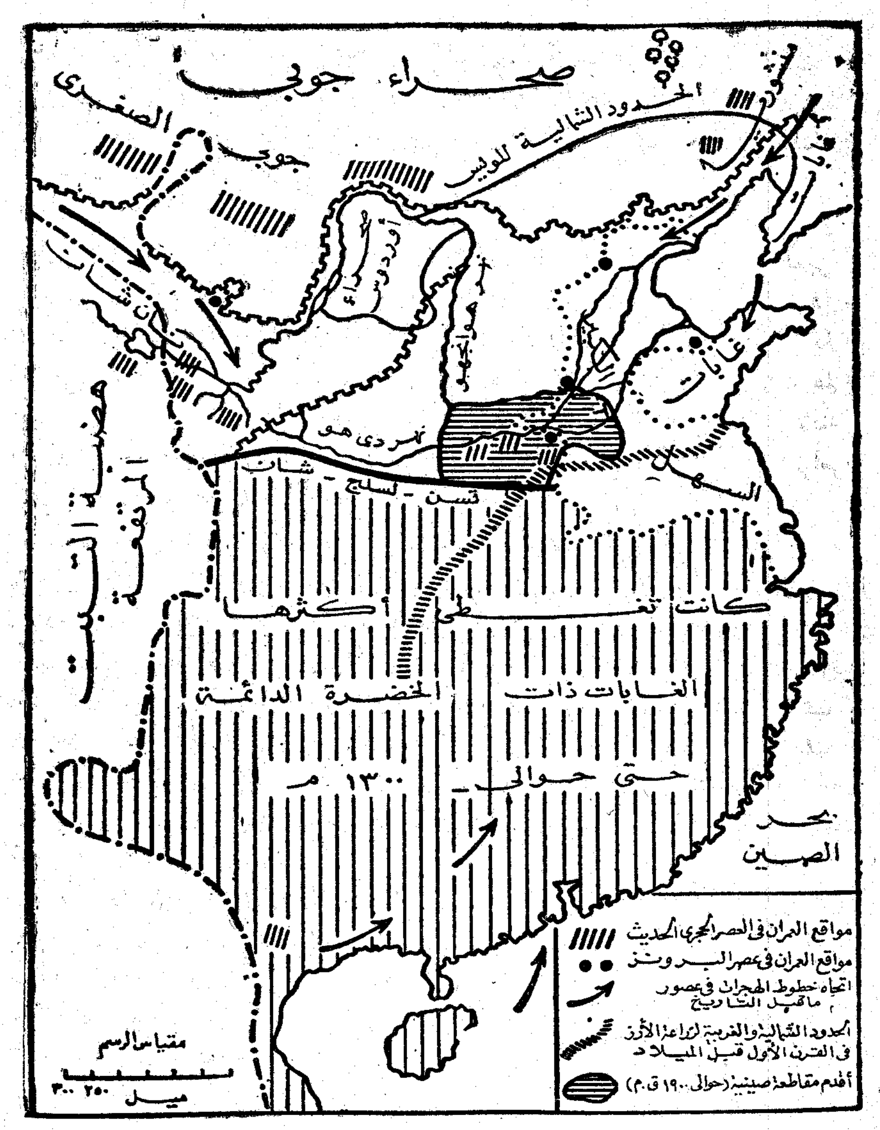
***

ولما كان متوسط المطر السنوى يقل فى شمال الصين عن ثلاثين بوصة ، فضلا على أنه شديد التذبذب من عام لآخر ، فان توافر كمية كافية من الرطوبة للزراعة لم يكن دائما شيئا ميسورا ، ولذلك فان القحط وفيضانات الانهار تفضى الى وقوع مجاعات مدمرة لاتنقطع . وقد كان أول من استوطن شمال الصين سكان العصر الحجرى الحديث ، الذين كانوا يقطنون مناطق لا يزيد ما يسقط فيها الآن عن عشر بوصات فى العام

وكانوا قد عرفوا استخدام الفأس فى الزراعة ، كما تمكنوا من صيانة خصوبة التربة باتباع طرق بسيطة فى الرى . ومما له دلالته من الناحية الجغرافية أن مناطق السكن فى العصر الحجرى الحديث وعصر البرونز الذى تلاه كانت تقع بمنأى عن السهل العظيم الذى كان نهر الهوانج يشق طريقه عبره الى البحر فى مجارى دائمة التغير . ويتعرض الهوانجو الادنى أو مايسمى « أسى الصين » China's Sorrow لفيضانات عنيفة فى الربيع

ومن ثم أصبح بذل جهود عظيمة منظمة ضروريا ، لا لحصر المياه بين ضفتيه فحسب بل كذلك لاصلاح الادغال والمستنقعات التى كانت تغطى من قبل مساحة كبيرة من السهل العظيم لزراعتها ، وكانت أقدم ولاية صينية تعرف عنها ، التى تمثل النواة التى نمت حولها الحضارة الصينية وانتشرت . . تمتد من وادى نهر الهوانج الى الحافة الغربية من السهل العظيم (انظر شكل ٥٨)

وكان وادى الوى هو Wei-Ho الذى تغطى رواسب اللويس قاعه والذى يمثل أحد فروع نهر الهوانج — قلب الصين من الناحية الجغرافية فى عهد حكم



شكل (٥٨) خريطة تاريخية شاملة للصين

أسرة هان Han (٢٠٦ ق . م) كما كان يمتد على طوله الطريق الذى يتجه غربا الى حوض تاريم (التركستان الصينية) وكان يمثل القاعدة التى خرج منها الصينيون لاخضاع ونشر الحضارة بين سكان الصين الوسطى والجنوبية التى كانت مشجرة وملائمة تماما للزراعة

فكان الارز المحصول الرئيسى فى هذه المنطقة اذ يغلب على الظن أنها

كانت وطنه الاول ، على حين كانت الذرة الرفيعة والقمح من المحاصيل الرئيسية فى الصين الشمالية (انظر شكل ٥٨) ـ وأخيرا حمل أباطرة أسرة هان لواء الحضارة الصينية الى الجنوب فى الجانب الآخر من نهر اليانجتسى والى المناطق الساحلية وتخوم أنام الجبلية

***

ظهرت فى القرن الاول الميلادى حضارتان متقدمتان لكل منهما خصائص متميزة، وذلك فى أطراف الكتلة الاوراسية فى الغرب والشرق (انظر شكل ٥٩) . ففى الغرب كانت تقوم الامبراطورية الرومانية ويحفها المحيط الاطلسى الذى لم يكن قد جرؤ أحد على شق عبابه بعد ، وكان محور هذه الامبراطورية يمتد على طول « بحيرة » البحر المتوسط ، أما فى الشرق فقد كانت تنهض الولايات الصينية أو الدول الصينية التى يقع دونها المحيط الهادى ذلك الخضم المترامى الاطراف ، وتسودها ثقافة مشتركة رغم أن الظروف السياسية قد مزقتها

وبينما كانت كل من الامبراطورية الرومانية والصين تمتد بين خطوط عرض معتدلة دفيئة ، الا انه على حين كانت تصل الاولى الى العروض المعتدلة الباردة ، فقد كانت تمتد الثانية فى الاقاليم المدارية ، كما كان كلاهما يمتد فى اتجاه طولى ، والواقع ان امتداد الصين غربا بين خطى طول ١٠٠ و ٧٠ شرقا كان يمثل الاراضى التى ضمتها الصين من ربوع الاستبس فى آسيا الوسطى ، حيث كان يسود نظام الحياة الرعوية ، هذا فضلا على أن الامبراطوريتين كانتا آهلتين بالسكان ، فقد ذكر احصاء ١٥٦ م فى الصين أن عدد الصينيين قد بلغ أكثر من ٥٠ مليون نسمة ، وهو العدد الذى يقدره الدارسون المحدثون لسكان الامبراطورية الرومانية (١)

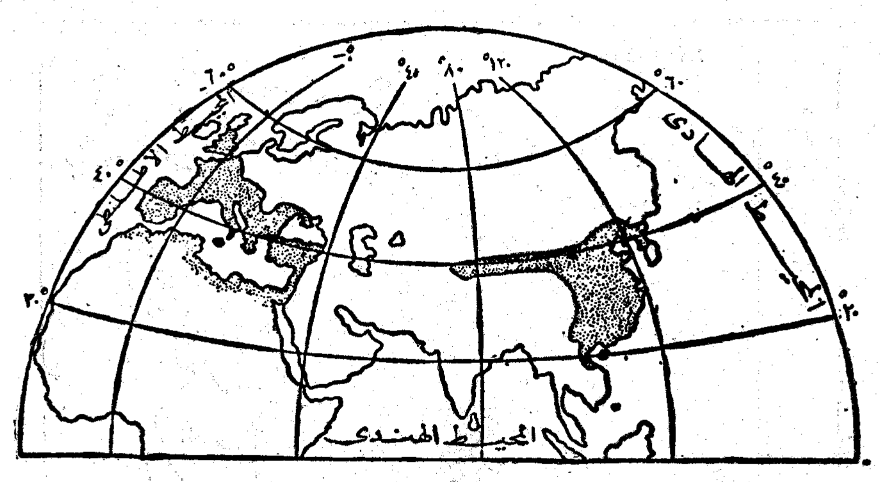
وتدل خريطة المطر المبسطة (أنظر شكل ٥٤) أن كلا من أوربا والصين كان يمتد بوجه عام حتى حافة نطاق الاستبس ـ الصحراء ، حيث كان يكفى المطر حاجة الزراعة ، ولذلك فقد كانا يصلحان من الناحية الجغرافية لاستقرار سكان على جانب من الكثافة نسبيا ، ولكن يجب ألا يغرب عن بالنا ان استخدام الرى كان غالبا مرغوبا فيه ، بل ضروريا لممارسة الزراعة فى شمال الصين شأنها فى ذلك شأن بعض أجزاء الامبراطورية الرومانية

لماذا تطورت كل من أوربا والصين تطورا مستقلا ؟ ولماذا كانت كل منهما فى عزلة عن الاخرى الى هذا الحد ؟ ان الظروف الجغرافية كفيلة بأن تقدم لنا الجواب عن هذا السؤال : ان هذا البعد الكبير وحده كان يمثل عقبة كأداء تعوق الاتصال بينهما ، وبخاصة اذا تذكرنا أن طرق النقل التى كانت ميسورة حينئذ ، هى القوافل فى البر والسفن الشراعية بالبحر ، وذلك بالاضافة الى

---

(١) كما يتساوى تقريبا فى الوقت الحاضر عدد السكان فى الصين وأوربا ، فكل منهما يمثل نحو ربع سكان العالم على وجه التقريب

وجود منطقة قارية متسعة من الجبال والاستبس والصحارى تحف بهـــا الغابات المتسعة والمستنقعات من الشمال ، تمتد فى آسيا الوسطى لتعترض الاتصال بين أوربا والصين ، حيث كانت تنتشر فى أرجائها السهول والهضـــاب والوديان والانهار ، وتسقط بها أمطار كافية وينزل بها زراع مستقرون (انظر شكل ١٤) ورغم أنه من الصعب تعيين الحدود البرية لاوربا والصين أثناء عصور التاريخ المختلفة ، فلا يخالجنا شك فى أن مراكز القلب فى أوربا والصين كانت تضم تلك الجهات التى كانت تسمح بقيام حياة زراعية تختلف اختلافا واضحا عن الحياة الرعوية فى الاستبس الآسيوية

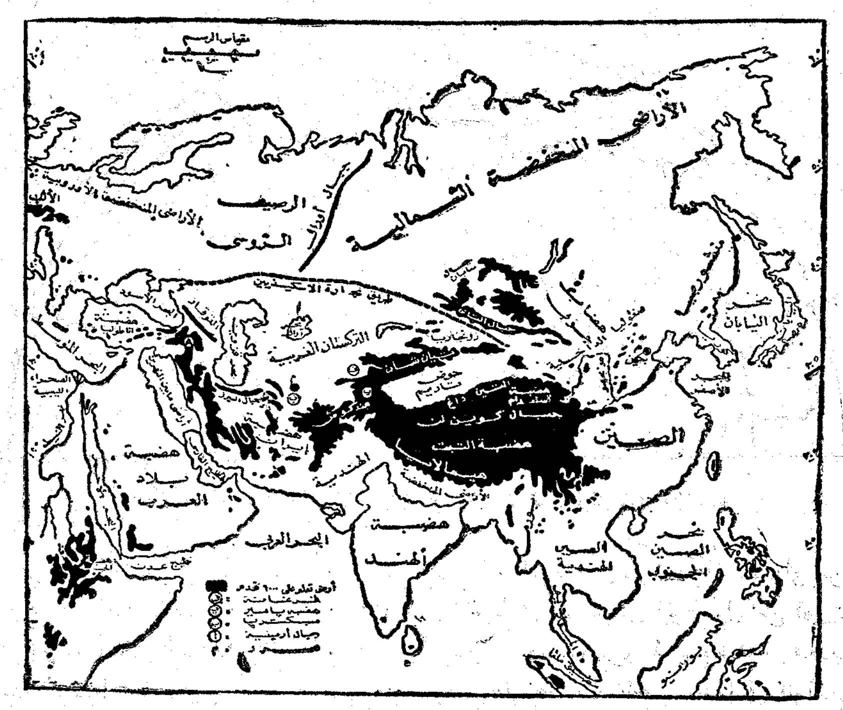


شكل (٥٩) الامبراطورية الرومانية والصين فى القرن الاول الميلادى

وان نظرة عجلى نلقيها على خريطة العالم أو الكرة الارضية تجلو ــ ولو من الوجهة النظرية على الاقل ــ أنه يمكن أن تسلك أربعة سبل للوصول من أوربا للصين ، وكان الطريقان اللذان يسلكان البحر فحسب ، والذى يمتد أحدهما غبر المحيط الهادى ويدور الآخر حول رأس الرجاء الصالح ــ هما فى الواقع آخر ماعرف من هذه السبل ، أما الطريق الثالث الذى يبدو أنه كان أول ما استخدم منها فقد كان طريق البر الذى يجتاز آسيا الوسطى ، أما الآخر فقد كان يمتد للصين من سواحل البحر المتوسط الشرقية ، باستخدام البحر فى أكثر أجزاء الطريق باتباع البحر الاحمر أو الخليج الفارسى

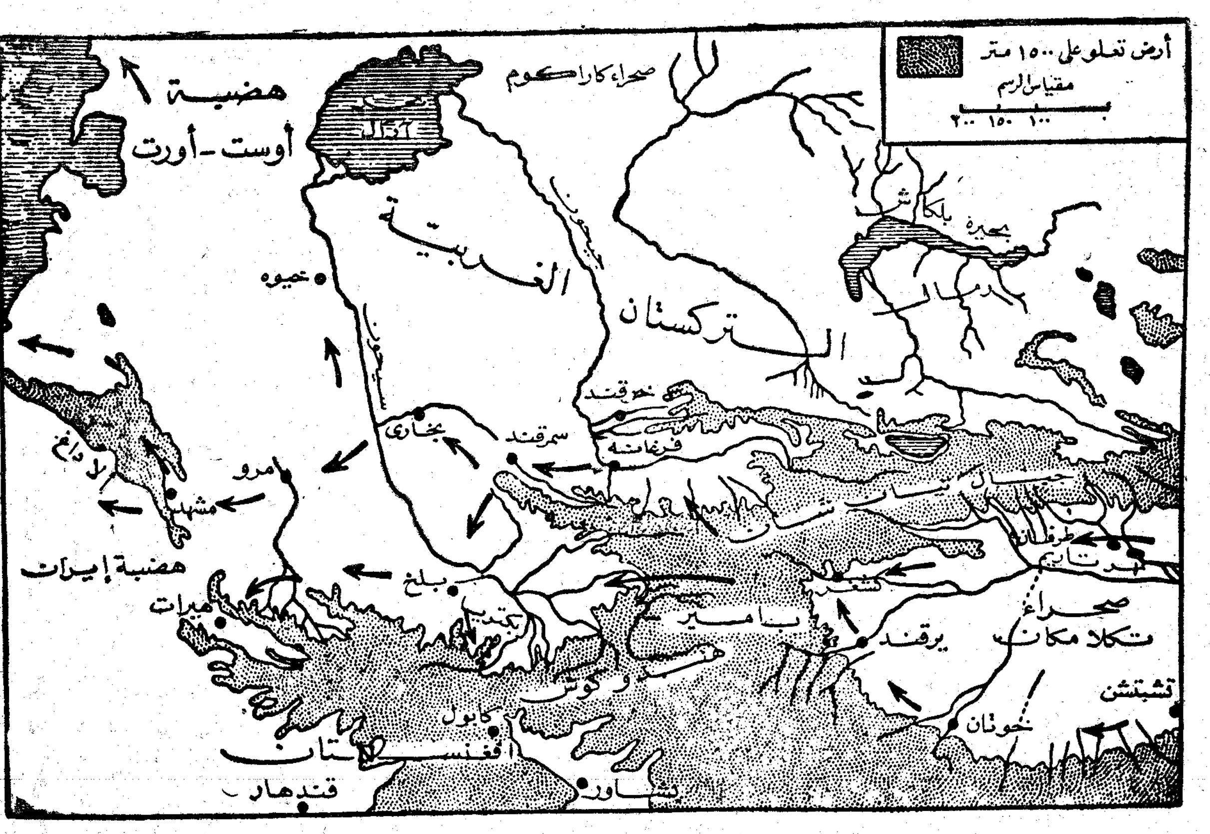
أما الطريق البرى فقد كان يقتضى القيام برحـــلات طويلة عبر الاستبس المرتفعة والصحارى التى تمتد من جنوب روسيا وفارس حتى حدود شمال الصين . فالاستبس والصحارى فى آسيا الوسطى كجوبى وزونجاريا وحوض تاريم والتركستان الغربية مثلا ــ انما هى هضاب مرتفعة تحدق بها فى أكثر

جهاتها سلاسل جبلية شاهقة (شكل ٦٠) . وهي لا تقاسي التجمد والاعاصير الباردة في الشتاء فحسب ، ولكن تعاني من فروق حرارية كبيرة بين فصلى الصيف والشتاء بل وبين النهار والليل ايضا . ويندر سقوط المطر الذي يقل عادة عن عشر بوصات في العام ، ويبلغ من الندرة في بعض الجهات حدا يؤدي الى وجود الصحراوات التي تكاد تكون خلوا من الحياة تماما ، كما هو شأن صحراء تكلمكان Taklamakan الرهيبة التي تقع في حوض تاريم ، وهي تمثل منطقة مموجة متسعة قاحلة ، وان كانت تغطيها « رمال » على جانب كبير من الخصوبة الحقيقية (انظر الشكل ٦١)



شكل (٦٠) الاقاليم الطبيعية الرئيسية في آسيا
(تبين طرق قوافل الاسكيذيين)

وقد كان اختراق هذه الهضاب المكشوفة ميسورا بفضل القوافل التي تستخدم فيها الجياد لان الموطن الاصلي للحصان — كما نذكر — هو الاستبس الآسيوية . فلم تكن تجتاز القوافل مساحات واسعة تتناوبها الحرارة اللافحة والبرودة القارصة التي تفضي للتجمد فحسب ، بل كانت تضطر أيضا لاختراق العقبات من الجبال التي كانت تعترض طريقها . وتخرج من هضبة بامير المرتفعة المشققة السلاسل الجبلية متشعبة في كل الاتجاهات تقريبا ، مثل جبال



شكل (٦١) مناطق القلب فى آسيا الوسطى (تبين الاسهم طرق العصور الوسطى بين الصين والغرب)

هندكوش والهيمالايا والتين تاغ Altyn Tagh وكون لون Kun Lun وتيان شان Tien Shan والتاى Altai وهذه أهمها (انظر شكل ٦٠)

وقد نشأت بعض المدن عند سفوح الجبال حيث تتصل بالهضاب مثل سمرقند وكشغر وخوتان ، فقامت كمحطات فى مواقع مناسبة للوقوف بها على طول المسالك البرية (انظر شكل ٦١) ، ولكن علينا أن نؤكد أن العقبات الطبيعية التى تعترض الرحلة عبر آسيا الوسطى لم تكن لتقف حائلا بين التجار والقيام برحلاتهم اذا توافرت فرص الاتجار ، فالواقع ــ كما عرضنا لهذا الرأى من قبل ــ كانت هذه المساحة الشاسعة مما ييسر النقل لان العقبة الكبرى لاستخدام هذا الطريق كانت بشرية أكثر منها طبيعية ، فالانقسام السياسى والمنافسات التى كانت تحتدم بين جماعات الرعاة من سكان آسيا الوسطى كانت تكتنف هذا الطريق بالاخطار ، ولا زالت الظروف السياسية حتى الآن تجعل القيام برحلة برية صعبا ان لم يكن محفوفا بالخطر

***

أما المسالك التى كانت تمر بالبحر الاحمر والخليج الفارسى فقد كانت أهم من الناحية التاريخية من الطريق البرى ، ويوضح (شكل ٦٢) ما سمى بحق « خصر » آسيا فمياه البحر الاحمر والخليج الفارسى ترتطم بالسواحل الغربية والشرقية على التوالى للكتلة الصلبة التى تتكون منها هضبة بلاد العرب ، كما تتوغل متعمقة من البحر العربى نحو البحر المتوسط ، فلا يحول دون الاتصال البحرى المباشر بين أوربا والهند التى تقع فى مركز متوسط للصين سوى برزخ ضيق يقع فى مصر الشمالية وآخر أكثر اتساعا يمتد فى الجزيرة وسوريا

ويعزى وجود هذين الذراعين من المياه الى احداث التاريخ الجيولوجى ، فالبحر الاحمر يمثل منطقة « انكسار عيبى » ، اذ نشأ نتيجة لفلق أصاب كتلة بلاد العرب التى كانت تمتد دون انقطاع الى شمال افريقية ، وقد هبطت الارض على طول منطقة الانفلاق فغمرت مياه البحر المنخفض الهابط ، أما الخليج الفارسى فيختلف عن ذلك اذ يمثل جزءا من أرض شاسعة هابطة sunkland تمتد نحو الشمال فى الجزيرة

ويتجه وادى النيل الادنى الذى كان صالحا للملاحة ووادى الفرات والدجلة اللذين لم يكونا يصلحان كثيرا للملاحة نحو منابعهما ــ من الشمال للجنوب ، وهو الاتجاه الذى يغلب على البحر الاحمر والخليج الفارسى على التوالى ، كما تشير الى اتجاه الطرق البرية الى البحر المتوسط . فتوافر لذلك عبر خصر آسيا طريقان يحل أحدهما محل الآخر ، وعلى حين كان الطريق الذى يخترق مصر يتطلب استخدام المراكب للنقل على النيل واجتياز الصحراء الشرقية المرتفعة من مصر الى ساحل البحر الاحمر ، كان الطريق الآخر يمتد من موانى سوريا وفلسطين حتى وادى الفرات أو الدجلة ليتبع بعد ذلك مجرى النهر

أو الطريق البرى حتى الخليج الفارسى

وقد أمكن الوصول الى الهند من مخرج البحر الاحمر ومن الخليج الفارسى بملازمة السواحل فى أول الامر ، وهكذا أمكن ـ بالقيام برحلات من ميناء لآخر على طول السواحل ـ أن ينقل البحارة الذين ألفوا مناطق السواحل والبحار المختلفة حاصلات الصين الى الغرب ، وحين استخدم البحار الاغريقى هيبالوس Hippalus حوالى ٥٠ ق . م طريق الرياح الموسمية الجنوبية الغربية للاتجاه من الخليج الفارسى مباشرة الى غرب الهند ، أوضح أنه يمكن اتباع مسالك بحرية أقصر وأسرع من الرحيل بالسفن على طول السواحل كما كان شائعا قديما ، ولما كانت الرياح الموسمية تهب من الجنوب الغربى فى الصيف ومن الشمال الشرقى فى الشتاء ، فانه يمكن الافادة منها سواء فى الرحيل عن البلاد أو فى العودة اليها

ولكل بحر مميزاته الطبيعية الخاصة فيما يختص بالرياح أو المضايق والسواحل والموانى ، ولذلك فقد كان ضروريا للملاحين أن يلموا بكثير من البيانات عن الظروف المحلية السائدة فى البحر الاحمر حيث تهب الرياح الشمالية فى أكثر الاحيان ، وحيث تمتد السواحل الجدباء ، وقد كان مضيق ملقا الذى يقع بين سومطره وشبه جزيرة الملايو يمثل الطريق المألوف المباشر بين المحيط الهندى وبحر الصين

***

ولا نستطيع أن نقطع بصحة ما رواه هيرودوت عن رحلة البحارة من الفينيقيين الذين داروا حول قارة افريقية من الشرق الى الغرب حوالى ٦٠٠ ق. م ، وحتى لو صح هذا الزعم ، فان ما أقدموا عليه لم يسفر عن نتائج، اذ ظل فتح طريق المحيط بين أوربا والهند وجزائر الهند الشرقية والصين ينتظر كشوف البرتغاليين من البحارة ، فاكتشف برثلميوديار رأس الرجاء الصالح فى سنة ١٤٩٤ كما أبحر فاسكودى جاما حتى بلغ قليفوت فى غرب الهند سنة ١٤٩٨ ، ولكن لماذا تأخر كشف طريق الرجاء الصالح حتى ذلك الوقت ؟

يعزى ذلك على الاقل من جانب الى مايعترض ذلك من صعوبات ملاحية على جانب كبير من الخطورة فى عصر الشراع ، فسواحل غرب افريقية فى العروض المدارية قاحل مجدب ، فضلا على أنه كان على السفن ـ الى الشمال من خط الاستواء ـ أن تسير فى منطقة الركود الاستوائى التى ظلت منفرة أمدا طويلا ، كما استدعت الكثير من الشجاعة والبراعة ، الى جانب أنه كان من الضرورى أن ندرك ونحسن استخدام نظام هبوب الرياح الى شمال هذه العقبة وجنوبها

والواقع أنه حين أخذ التجار يترددون على هذا الطريق ، عرفوا كيف يحسنون استخدام مجموعات الجزائر العديدة فى المحيط الاطلسى الجنوبى، وان

يتبعوا المسالك التى تمكنهم من الافادة الى أقصى حد من الرياح السائدة ، ولذلك لم يسلكوا طرقا مباشرة أو سبلا تلتزم السواحل ، فقد كانت السفن تتجـــه صوب الجنوب الغربى لكى تفيد من الرياح الشمالية الشرقيـــة التى تهب فى العروض المدارية ، مما حمل هذه السفن نحو ساحل البرازيل (انظر شكل ٦) فقد بلغ بعض رجال شركة الهند الشرقية ساحل البرازيل عند ريودى جانيرو فعلا وهم فى طريقهم للهند كما كانت السفن فى المحيط الهندى وبحر الصين تعتمد على الرياح الموسمية ، ولهذا كانت تتفق أوقات اقلاعها أو ابحارها مع مواسم هبوب هذه الرياح

***

لقد أشرنا من قبل الى الطرق التى يمكن أن تتصل بواسطتها أوربا بالصين ، ولنتناول الآن باختصار بعض المراحل فى تاريخ العلاقات بينهما

قد ذهبنا من قبل الى أن الآثار التى عثر عليها ، تشير الى أن الصين قد تلقت الافكار والعادات عن طريق البر فى عصور ماقبل التاريخ ، وبعد مضى حقبة طويلة من الزمن انتقلت فى القرن السادس قبل الميلاد بعض الانواع المتميزة من الفؤوس البرونزية socked celts التى شاع استخدامها فى أوربا الوسطى والجنوبية الشرقية قبل ذلك بزمن طويل ــ وذلك بطريق البر الى الصين . ولكن لم يرد ذكر وجود الصين الا حوالى ٤٥٠ ق . م . لاول مرة فى كتابات الاوربيين

وقد روى هيرودوت ما زعمه اغريقى يدعى Aristeas فى القرنين الســـادس والسابع الميلاديين ، من أنه رحل عبر آسيا الوسطى حتى حوض زونجاريا وجبال التاى (انظر شكل ٦٠) وهناك سمع عن الصينيين كشعب مســـتقر يتمتع بالرخاء وينزل على كثب من بحر لا يتجمد البتة ، كما وصفت احدى الاساطير ، التى أثرت عن زمن هيرودوت ، الصينيين بأنهم قوم (نباتيون) وهى اشارة لا تخلو من مغزى جغرافى ، لانها تؤكد الاختلاف بينهم بوصفهم زراع يقتاتون من الحبوب وبين الشعوب الرعوية من سكان الاستبس الذين يتناولون اللحوم واللبن فى طعامهم . كما كان الاسكيذيون Scythians فى زمن هيرودوت أيضا ــ وهم من رعاة آسيا الذين نزلوا فى السهل الروسى الجنوبى الى الغرب من نهر الدون الادنى ــ يتجرون مع الشعوب الآسيوية التى كانت تنزل فى المنطقة حتى جبال التاى فى الشرق مستخدمين القوافل فى ذلك (انظر شكل ٦٠)

وقد كانت القوافل تخرج من تنيس Tanais وهى مدينة أغريقية تقع عند مصب نهر الدون ــ لتمر عن طريق جنوب جبال أورال وليس عبرها متتبعــة باب أو منفذ أورال ــ بحر قزوين المتسع ، وقد كان الاسكيذيون يحتاجون فى تجارتهم التى كانت تسلك هذا السبيل الى تراجمة لسبع لغات مما يقوم

دليلا على تعدد الاقوام التى كانت تسكن هذه الجهات ، وربما استبدلوا فى نهاية رحلتهم ــ بالسلع المعدنية وأعنة الخيل المحلاة والسجاجيد ــ الذهب الذى كان يستخرج من الجانب الجنوبى الشرقى من جبال التاى

وقد أغلق طريق القوافل الذى كان يسلكه الاسكيذيون لحدوث اضطرابات سياسية فى آسيا عقب ٤٠٠ ق . م . مباشرة ، فلم يعد يذكر الجغرافيون المتأخرون من الاغريق الا النذر اليسير عن هذه البلاد التي كان يخترقها طريق القوافل ، بل أصبحوا لايذكرون أن بحر قزوين كان مغلقا ، بل يبدو أنه لم تنشأ علاقات بين الامبراطورية الفارسية والصين فى ذلك العصر ، رغم أن أراضيها كانت تمتد الى بحر آرال وتضم التركستان الغربية ، كما أنه حين أطاح الاسكندر الاكبر بالامبراطورية الفارسية فى ٣٢٩ ق . م وتقدم الى بخارى والتركستان الجنوبية ، لم يحاول أن يواصل غزواته فى آسيا الوسطى ، وقد ثناه عن هذه المحاولة أسباب قوية ، اذ كانت تمتد وراء واحات مرو وبخارى وسمرقند حيث نشأت الزراعة وأماكن السكنى المستقرة ــ أراضي قاحلة ــ عالم غريب غير مألوف من الاستبس المكشوفة تحلق فوقها حواجز شاهقة من جبال هندكوش وتيان شان (انظر شكل ٦١) وقد أسس الاسكندر بعض المراكز الحربية والمدنية مثل Khojent على نهر سيحون Iaxartes ولكن لم تلبث هذه المراكز المتطرفة للحضارة الاغريقية فى آسيا أن هجرت حين وقعت فى قبضة شعب رعوى يدعى يوتشى Yue-Chi

***

ماهى الجهود التى بذلتها الصين نفسها لتوطيد علاقتها بالغرب ؟ أرسل الامبراطور وو ــ تى Wu-Ti . من اسرة هان فى ١٢٨ ق.م سفارة الى اليوتشي Yue-chi الذين كانت عاصمة ملكهم تقع على كثب من بخارى ، وقد تمخضت هذه السفارة التى وصلت الى فرغانه وبخارى وبكتريا Bactria (انظر شكل ٦١) عن نتائج مهمة ، فقد استطاعت الصين أن تلم بالظروف الجغرافية التى وضعت على ضوئها سياستها فى التوسع فى آسيا الوسطى

ومن هذه النتائج دخول زراعة الكروم فى الصين ، اذ جلبه الاغريق الى بخارى وسمرقند ، وقد كانت سياسة الصين فى التوسع نحو الغرب موفقة ، فبعد أن حلت الهزيمة بالهون Hun ــ وهم قوم من الرعاة الاشداء احتلوا منغوليا ــ استطاعت الصين ان تبسط نفوذها الذى وصل غربا الى واحات فرغانه ، كما بعثت الصين بسفاراتها الى بارثيا Parthia وبخارى ، كما تبادلت معهما التجارة ، فأرسلت اليهما الذهب والحرير اللذين كانا غير معروفين فى الغرب ، مقابل بعض الغلات المحلية وبخاصة خيول فرغانة الاثيرة لديهم

وهكذا اتصل الصينيون انفسهم ــ بفضل اتباعهم سياسة توسعية ــ بالشعوب الاسيوية التى كانت تقطن وراء الحاجز الفاصل الجبلى ــ الصحراوى ــ الذى

يتألف من حوض تاريم وتيان شان وهندكوش

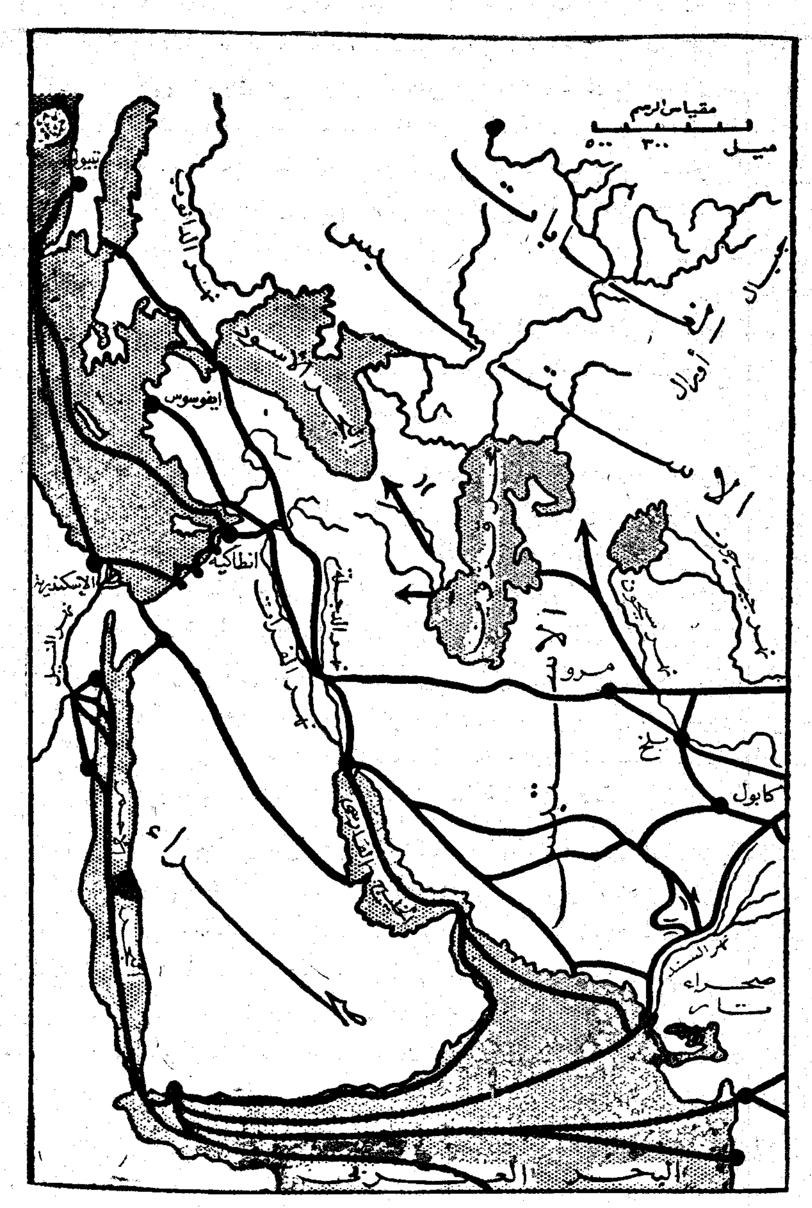
وقد عرف الحرير وشاع استخدامه فى العالم الاغريقى من بارثيا أثناء القرن الاول (قبل الميلاد) ، وكانت بارثيا دولة مستقلة تبسط رقعتها فى هضبة ايران أى كانت تشغل موقعا يتيح لها فرصة القيام بدور الوساطة بين الصين وبلاد البحر المتوسط . وكان الطريق الذى يستخدم لنقل الحرير من الصين يتتبع السفوح الشمالية لجبال نان ــ شان Nan Shan وجبال التين تاغ Altyn Tagh حتى بحيرة لوب نور ومن هناك يتابع السير عبر حوض تاريم (التركستان الصينية) الى كشغر ملتزما السفوح الشمالية أو الجنوبية لصحراء تكلامكان ، واخيرا يعبر هضبة بامير المرتفعة الى واحات فرغانه ليمر بمرو حتى يصل الى بارثيا (انظر شكلى ٥٨ و ٦١)

***

بلغت التجارة التى ازدهرت بين الامبراطورية الرومانية والصين ذروتها فى القرن الثانى الميلادى ، وقد كان الطريق البرى الذى يمر ببارثيا اقل اهمية من الطرق التجارية البحرية وبخاصة الطرق التى تنتهى الى مصر (انظر شكل ٦٢) وكان الحرير من أهم المنتجات التى كان الطلب شديدا عليها من الصين ، وكان استيرادها يتم على نطاق يزداد اتساعا بفضل معونة الوسطاء من العرب والهنود والبارثيين والصينيين

وقد كان يسيطر على الجزء الغربى فقط من المسالك مباشرة المواطنون الرومان أنفسهم وبخاصة الاغريق والسوريين واليهود ، كما أتاحت سيادة روما على البحر المتوسط ومصر والبحر الاحمر فى آخر القرن الاول قبل الميلاد الظروف السياسية الملائمة لنمو التجارة مع الشرق وبخاصة عن طريق مصر ــ البحر الاحمر . ولم تكن روما أول من استخدم هذا الطريق ، فقد سبقها اليه حكام مصر من البطالمة ، كما اكتسب هذا الطريق المار بمصر أهمية جديدة بفضل الافادة من الرياح الموسمية التى جعلت الرحلة بين خليج عدن والهند سريعة

ولم تكن موانى شبه جزيرة الهند تزود العالم الرومانى بمنتجاتها المحلية مثل البهار والمنسوجات القطنية والجواهر والذهب فحسب ، بل كانت تمدها أيضا بالحرير الصينى واللالىء والعقاقير التى كانت تصل اليهم سالكة طرقا مختلفة اما بالبحر مباشرةاو بالبر عن طريق المسالك البرية الطويلة الوعرة ، واما أن تعبر ممر خيبر لتصل الى وادى السند ، واما عن طريق التبت وسيكيم Sikkim الى باتنا Batna ومنها الى دلتا الجنج ، بل عن طريق برما وسيام الى الموانى الواقعة عند مصبات ايراودى وسلوين



شكل (٦٢) خصر آسيا (يبين الطرق الرومانية)

كان يتم التجهيز النهائى للسلع الحريرية أو تعاد صناعتها لاعدادها للسوق الرومانية فى مدن مصر وسوريا وبخاصة فى الاسكندرية وانطاكية اللتين كانتا تقعان عند نهاية الطرق البحرية . ووصل بعض الملاحين الرومان فى القرن الثانى الميلادي فعلا الى الصين عن طريق البحر مباشرة وذلك بالدوران حول رأس كومورين Comorin فى جنوب الهند والمرور خلال بوغاز ملقا ، وقد أفادوا من الرياح الموسمية الجنوبية الغربية التى حملتهم الى بحر الصين الجنوبى ، ثم هبطوا الى البر فى هانوى فى تونجكنج التى كانت تعد حينئذ جزءا من الصين ، ولم يستخدم الطريق البحرى بين الهند والصين الذى كان مطروقا تتبعه السفن الصينية Junks والهندية Dhows لربط روما بالصين بطريق مباشر ، ويبدو ان الصين وروما لم تتبادلا السفارات وان كانت قد بذلت الصين من جانبها محاولة واحدة لتقيم علاقات دبلوماسية مع روما

***

اخذت العلاقات التجارية غير المباشرة بين روما والصين فى التدهور والضعف حين تطرق الوهن الى قوة روما فى القرن الثالث الميلادى وما تلاه من قرون . وقد قطعت مملكة اكسوم Axum الحبشية طريق البحر الاحمر حين غزت البلاد الواقعة على جانبى بوغاز باب المندب وخليج عدن حتى اصبحت قادرة على السيطرة على منفذ أو باب البحر الاحمر (انظر شكل ٦٢) ، وهكذا انتقلت تجارة الحرير الى أيدى الاحباش والفرس الذين ورثوا الامبراطورية البارثية سنة ٢٢٤ م حين خضعت لهم ، وظل الحرير يصل الى سوريا برا عن طريق كشغر ، ولكن أصبحت القسطنطينية حين انتقلت اليها عاصمة الامبراطورية الرومانية سنة ٣٣٠ م تمثل نهاية اخرى للطريق البرى

وقد أبرم اتفاق تجارى بين فارس واكسوم فى أول القرن السادس الميلادى ، فاستطاعت فارس بفضله ان تحتكر تجارة الحرير ، وارتفعت اسعاره فى السوق الرومانية ، ولكن خفت وطأة هذه الظروف الحرجة فجأة حين ادخل بعض دود القز لاوربا لاول مرة ، فقد نقل الى القسطنطينية عدد من بيض فراشة الحرير الصينى Bombyx mori مخبأة فى عصا من الخيزران سنة ٥٥٢ م ، وهكذا وقفت أوربا على سر صناعة الحرير ، ذلك السر الذى كانت الصين حريصة على كتمانه فجنت من ورائه مكاسب طائلة زمنا طويلا ، ومارست ممتلكات الرومان فى سوريا وبلاد الاغريق الجنوبية تربية فراشة الحرير بنجاح (١)

وهكذا وجهت ضربة قاصمة الى احتكار الصين لانتاج الحرير ، فقد

---

(١) انظر الفصل السابع

استطاعت الامبراطورية الرومانية ان تسد حاجة مصانع الحرير فى القسطنطينية من الحرير الخام ، الذى كانت تنتجه محليا دون حاجة الى الحصول على الحرير الصينى بفضل الزيادة السريعة فى انتاج الحرير فى سوريا واليونان ، وقد ذاعت شهرة هذه المصانع فى انتاج المنسوجات الحريرية الفاخرة التى كانت تتضمن الصنف « القرمزى » الامبراطورى نفسه

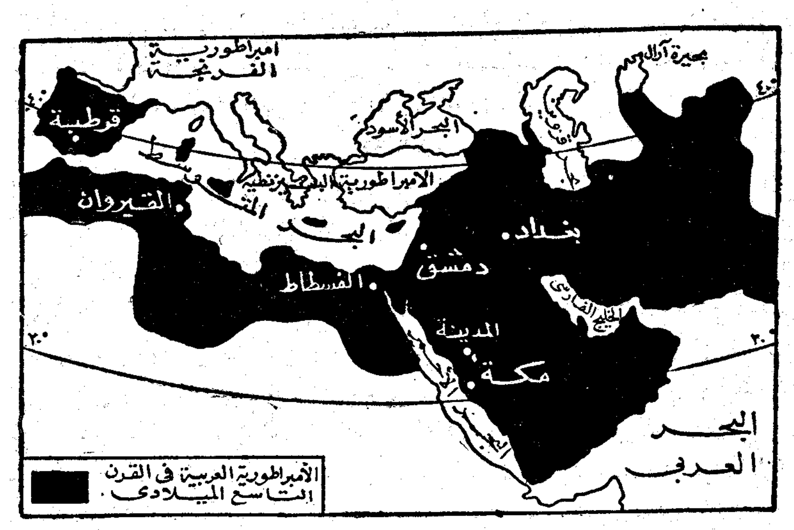
***

انقطعت العلاقات تماما بين اوربا المسيحية والصين لمدة ستة قرون تقريبا عقب القرن السادس الميلادى ، حتى أصبحت لاتعرف عن الصين ولا تذكر الا القليل ، ولتفسير ذلك عدة أسباب هى : أن الاحوال السياسية كانت مضطربة فى أوربا والصين وآسيا الغربية والوسطى على السواء ، كما اصبح ماتحتاج اليه أوربا من الحرير متوفرا وبخاصة فى اليونان ، فضلا على أن الخلافة العربية التى وصلت الى أقصى اتساعها فى القرن الثامن الميلادى وقفت كقوة معادية « غير مؤمنة » بين أوربا والشرق الاقصى ، لان أراضيها فى فارس ومصر وسوريا وحول بحر آرال كانت تعترض الطرق التى تمتد للشرق الاقصى (انظر شكل ٦٣) كما كان الاتراك السلاجقة ــ وهم شعب رعوى نزاع للحرب ــ قد بسطوا نفوذهم أثناء فترة طويلة من هذه الحقبة على مناطق واسعة فى آسيا الوسطى والغربية

وأصبح من الممكن بعد قيام الامبراطورية المغولية العظيمة فى القرن الثالث عشر الميلادى التى ارتبطت باسم جنكيزخان واسرته ــ أن ينشأ الاتصال البرى المباشر مع الصين ، فقد خرج فرسان المغول يتدفقون خارجين من موطنهم فى الاستبس المغولية ليسيطروا على مناطق اوسع مما خضع لحكم الصينيين خلال العصور ، اذ وقع فى قبضتهم الصين نفسها وكوريا وآسيا الوسطى وفارس بل وروسيا (انظر شكل ٦٤) ، بل هددت جحافل المغول أوربا نفسها فتقدمت جيوشهم لتغزو بولنده والمجر وسيليزيا ، وان لم يستطيعوا أن يسيطروا على هذه البلاد المتطرفة سيطرة تامة ، فكانت حدود امبراطوريتهم تنتهى بحق عند الاطراف الغربية لنطاق الاستبس الاوراسية

وقد اعتمدت خانات الكبرى Great Khanate كما كانت تسمى الامبراطورية المغولية .. فى تماسكها ووحدتها على الاتصال بواسطة الخيل ؛ وعلى قوافل الخيول وسيلة للنقل والمواصلات . ورغم أن هذه الامبراطورية كانت مقسمة الى عدد من الخانات التى كان يتوارث حكمها الابناء والاحفاد من نسل جنكيزخان ، فقد كان الاعتراف بسيادة الخان الاكبر عادة متبعة ، أتاحت استقرار النظام واستتباب الامن بين سواحل المحيط الهادى وسواحل البحر الاسود والخليج الفارسى ، فكانت الصين بفضل كثافة سكانها وثروتها الزراعية وانتشار مدنها وموانيها العديدة تمثل قلب الامبراطورية المغولية ،

ت العاصمة من منغوليا الى بيكين واكسنادو Xanadu (عام ١٢٦٤)،
صى الخان وحاشيته الصيف فى الاولى والشتاء فى الاخرى



شكل (٦٣) الامبراطورية فى أقصى اتساعها

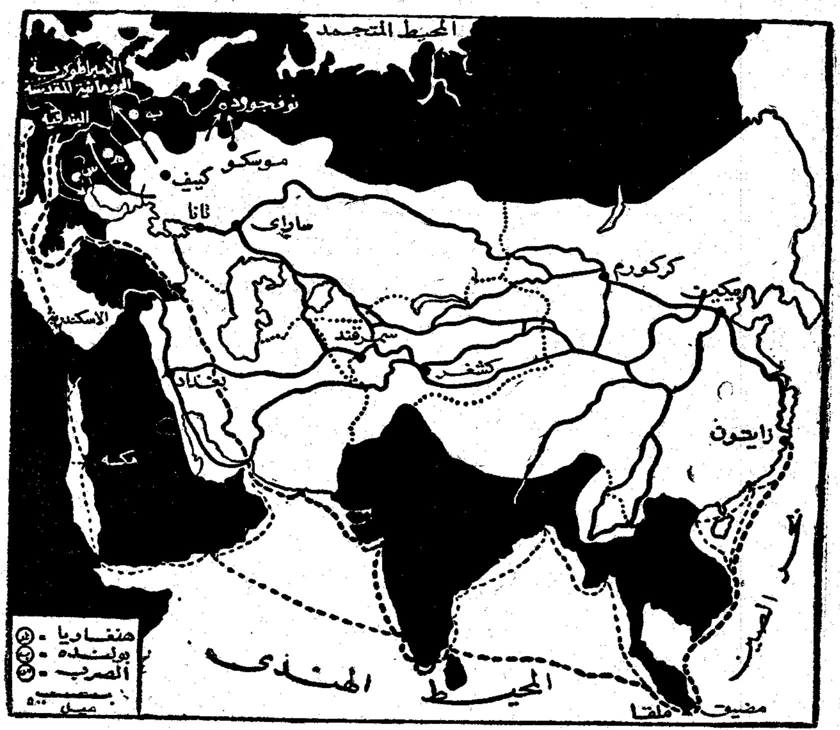
(لاحظ أن هذه الاراضى المتسعة تعترض الطرق بين أوربا والشرق الاقصى)

وهكذا كان امتداد سيادة المغول فاتحة عهد جديد فى قصة العلاقات بين اوربا والصين ، فقد كثر استخدام الطرق البرية الى جانب المسالك البحرية الى الخليج الفارسي (انظر شكل ٦٤) واسس البنادقة واهل جنوه الفريق بعد الآخر أثناء القرن الثالث عشر ، محطات تجارية فى شبه جـــزيرة القرم فى الاطراف الغربية للطريق البرى، كما قام التاجران نيكولو Nicolo ، مافيوبولو Maffea Polo من البندقية فى هذا القرن أيضا برحلتهما الى بيكين ، وحينما عادا بين ١٢٧١ ، ١٢٧٥ الى بلاط الخان الاكبر كان ماركوبولو Marco Polo ابن نيكولو فى صحبتهما

وقد كان وصف ماركوبولو الذائع لآسيا الوسطى والصين ، ذلك الوصف الذى استمده مما عرفه وشاهده أثناء اقامته نحو ١٧ سنة فى خدمة الخان الاكبر بها واضحا فى أذهان الاوربيين وان كان فى الوقت نفسه يصعب على الاوربيين أن يصدقوا ماذكره عن عظمة الحضارة الصينية ونوعها ، وان كان يجمل بنا ألا نغفل أن العالم الاسلامى تمييزا له عن العالم المسيحى كان لديه دراسات مفصلة للصين وآسيا الوسطى قبل أن يقوم ماركوبولو برحلاته بنحو ثلاثة قرون ، وقد استقرت بعثات التبشير المسيحية فى القرن الرابع عشر فى بيكين وزيتون Zayton (بالقرب من Amoy) فى جنوب الصين ، التى

اقام بها التجار من جنوه كما هو معروف

وخلاصة القول ان اوربا عادت لاماطة اللثام والحجاب عن الصين مرة اخرى تلك البلاد التى كانت تدعى (سيرز Seres) قديما ، التى اصبحوا يعرفونها حينئذ باسم كاثاى Cathay ، ودب الانتعاش من جديد فى تجارة الحرير التى عنيت بالمصنوعات الجاهزة اكثر مما تناولت استيراد الحرير الخام ، كما



شكل (٦٤) الطرق بين أوربا والصين وامتداد امبراطورية المغول (تركت تلك الامبــراطورية دون تظليل) حوالى ١٢٩٠ ..

يبدو ان الصين اسدت أيادى فى الفنون ، فقد عرفت اوربا صناعة الورق من الاسمال من الصين عن طريق العالم العربى ، كما انه من الممكن ان تكون المانيا قد تلقت من كوريا اختراع حروف المطبعة التى يمكن تحريكها (١) ، مما جعل من الممكن طبع الكتب على نطاق واسع فى منتصف القرن الخامس عشر

ولنعرض لآخر فصول القصة الطويلة للعلاقات المتقطعة الواهية التى قامت

---

(١) للاطلاع على المناقشات بشأن هذه المسألةالتى لم تسفر فيها الدراسة عن رأى قاطع — انظر ج.ف. هدسن G. F. Hudson كتاب Europe and China ١٩٣١ صفحات ١٦٥–١٦٨

بين أوربا والصين ، وهو فقط ، كشف الطرق البحرية التى تصل الى كاثاى ، وقد كان الدافع للاقدام على هذا النشاط البحرى اقتصاديا فى بعض نواحيه على الاقل ، وهو [illegible] البرتغاليين أن يتحدوا ويقضوا على احتـكار البندقية و[illegible] لتجارة الشرق ومن الحوافز التى اضيفت الى السابق اغلاق احد الطرق التجارية القديمة مع الصين حين سقطت القسطنطينية فى قبضة الاتراك العثمانيين سنة ١٤٥٣ ، ففى سنة ١٥١٤ بعد أن هزم البرتغاليون العرب فى المحيط الهندى وانتزعوا ملقا ، واصلوا رحلتهم حتى بلغوا الصين

***

وبعد فترة من الزمن سمح لهم ان يقيمـــوا فى كوانجتنج Kwangtung عند مكاو Macao بالقرب من هنج كنج ، التى انتهى بها الامر أخيرا الى أن اصبحت من أملاك البرتغاليين ولازالت كذلك . ثم طفق الانجليز والهولنديون وغيرهم فى البحث عن سلع الصين للاتجار بها سواء بطريق مباشر فى موانى الصين أو فى مراكز متوسطة فى الملايو والهند الصينية

وقد كانت السلع من الحرير وعقار الروبارب Rhubarb والخزف الرقيق porcelain . ومصـــنوعات الخــزف المطــلى lacquer work والشـــاى بوجه خاص فى القرن الثامن عشر هى المنتجات الرئيسية التى كانت تشتدالرغبة فى الحصول عليها من الصين . ولكن كان لايزال هناك طريق آخر للصين لم يكن قد كشف بعد ، وهو الذى يمر عبر المحيط الهادى العظيم ، فقد وصلت سفينة مجلان التى طافت حول العالم فى خدمة المصالح الاسبانية بين ١٥١٩ ــ ١٥٢٢ بعد ان عبرت المحيط الهادى الى جزائر الفليبين التى تقع على عتبة عالم الصين ، ففى سنة ١٥٧١ خرج اسطول اسبانى من المكسيك ليعبر المحيط الهادى واستولى على مانيلا بجزائر الفليبين ، وهكذا فتح طريق بحرى جديد للشرق الاقصى بعد القيام برحلة صوب الغرب . . فبلغت أسبانيا الهدف الذى وقف كريستوف كولومبوس ازاءه حائرا

فهرس

طبع بمطابع دار الهلال